خواطر في الدعوة إلى الله

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خواطر في الدعوة إلى الله

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خواطر في الدعوة إلى الله

تأليف
الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب: ٣٧٧١/١١ - برقيا: اسلاميا - تلكس: ٤٠٥٠١ - هاتف: ٤٥٠٦٣٨
دمشق : ص.ب: ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب: ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٦٥٦٦٠٥ - فاكس: ٧٤٨٥٧٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أدّى الأمانة، وبلغ الرسالة، فصلَّى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع شريعته بصدقٍ وإخلاصٍ ودعا لها إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنني منذ خمسة وعشرين عاماً دُعيتُ في بلدٍ من البلاد الإسلامية إلى إلقاء كلمة عن الدعوة إلى الله وعن صفات الداعية فاستجبت لذلك وعرضت على الحاضرين تجاربي المتواضعة في هذا الموضوع الجليل، ثم يسَّر الله أن تظهر هذه الكلمة تحت عنوان «من صفات الداعية»، وإني لأحمد الله أن نفع بهذه الكلمة الألوف الكثيرة لأن هذه الرسالة طبعت مرات ومرات في المكتب الإسلامي في بيروت، وطبعت كذلك في عدد من البلاد، وقامت بعض الجهات الفاضلة بتوزيعها على المسلمين جزاهم الله خيراً.

وكنت على مدى سنوات متعددة أكتب مقالات في الدعوة إلى الله، أبسط فيها معاني تخطر لي عندما أقرأ في كتاب الله العظيم، نشرت بعضها وأذعت بعضها، فتجمع عندي مادة هذا الكتاب، وقد شرح الله صدري لتنسيقها وتعديلها وكتابة فصول جديدة ونشرها في هذا الكتاب الذي أقدمه إلى القراء الكرام راجياً أن ينفعني الله وإياهم بما فيه من دعوة لالتزام الحق والعمل به والدعوة له، وأنا أسأل الله أن يغفر لي ما كان فيها من زلل أو غلط أو وهم، فأعمال البشر مهما حاولوا تحسينها تبقى بحاجة إلى استكمال

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتصحيح وأرجو من كل أخٍ كريمٍ وقف في هذا الكتاب على موضع يحتاج إلى تسديد أن يكتب إلي لأستدرك ما أوافقه عليه في طبعة مقبلة إن شاء الله تعالى.

إن موضوع الدعوة إلى الله موضوع يحتاج أن يعالج من قبل رجالات كبار يملكون طاقات ضخمة ومواهب فذة. ولا يجوز أن تقابل الحركات الهدامة بروح اللامبالاة التي صار إليها كثير من الدعاة بسبب الإحباط الذي أصيبوا به نتيجة للنكبات المتوالية التي وجهت إلى كثير من الدعاة في عددٍ من البلاد.

لا بدَّ من ظهور دراسات عميقةٍ وافيةٍ تعالج الواقع الذي يحياه المسلمون وأوضاع مجتمعهم التي تتبدل حيناً بعد حين.

إن معرفة العصر وتياراته والواقع الاجتماعي والسياسي القائم، والتخطيط وفق هذه المعرفة ضرورة من ضرورات الدعوة التي تطمح إلى النجاح.

وأنا لا أزعم أن ما ضمه هذا الكتاب من بحوث حول الدعوة يفي بالمطلوب، ولا أزعم أنه يحقق المرجو ولكنني أرجو أن يسهم ولو بقدر يسير من هذا المطمح المأمول. وإذا نجحتُ في أن أثير دوافع الدراسة عند بعض المقتدرين من العلماء العاملين والدعاة الصادقين فإنني أعدُّ ذلك توفيقاً أرجو ثوابه، وإلا فحسبي فيما فعلت أن يكون تذكرة لنفسي ولأبنائي وإخواني من الذين يعملون في حقل الدعوة إلى الله.

إن الخيرين موجودون وإن الصادقين موجودون، وإن المخلصين القادرين على العمل موجودون، ولكنهم جميعاً بحاجة إلى أن يتعاونوا على تحديد معالم الطريق وخطوات العمل وأن يستبينوا حقيقة ما يدعون إليه وأن يعملوا على التحلي بالصفات التي يجب أن يستكملوها ليصلوا إلى مقصدهم.

هذا وإن الظروف العامة في العالم كله والخاصة ببلاد المسلمين ظروف مناسبة جداً لأن تعرض مبادئ الإسلام على الناس وأن يدعوهم إليها، ذلك

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لأن كثيراً من النظم التي تعتمد على أفكار معادية للإسلام قد أفلست وبدأت عوامل الانهيار تبدو واضحة جلية.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى اغتنام الفرص قبل فواتها وأن يشرفنا بحمل دعوة الحق إلى الناس وأن ينصر هذا الدين ويعلي كلمته والحمد لله رب العالمين.

عمان ٧ من ذي الحجة سنة ١٤٠٩ كتبه

محمد بن لطفي الصباغ

أهميّة الدّعوة إلى الله

أسباب تخلف المسلمين

قد يسأل سائل: لقد كنّا ـ نحن المسلمين ـ أعظم أمة في الأرض، نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونؤمن بالله، ونحرّر المظلومين في الأرض، ونحقّق العدالة بين الناس، وننشر التوحيد في كل مكان، حتّى دانت لنا الدنيا المعمورة فلم تكن فوق كلمتنا كلمة، ولم تكن أمة في الأرض تتقدم علينا في العلم ولا الاقتصاد ولا الأخلاق ولا السياسة. فلماذا تَبَدَّلَ ذلك كله وآل أمرنا إلى هذا الواقع المؤلم الحزين؟

لماذا أصبحت شعوبنا ودولنا متخلفة يطلق عليها (الدول المتخلفة)؟ وإذا أرادوا المجاملة في التعبير والتأنق فيه قالوا: (الدول النامية) والدلالة هي الدلالة.

لماذا كل هذا؟

الجواب على هذا السؤال تضمنته الآية الكريمة قال تعالى: ﴿**كدأب آل فرعونَ والذينَ من قبلهم كفروا بآياتِ الله فأخذهُمُ اللهُ بذنوبهم. إنّ الله قويّ شديد العقاب. ذلك بأنّ الله لم يكُ مغيّراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأنَّ الله سميعٌ عليمٌ. كدأبِ آلِ فرعونَ والذين من قبلهم كذبوا بآياتِ ربِّهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعونَ. وكلٌ كانوا ظالمين**﴾ [الأنفال: ٥٢ ـ ٥٤].

فلقد قررت هذه الآية أنّ الله تبارك وتعالى لم يكن ليغير نعمة أنعمها على قوم حتى يكون التغيير منهم.. حتى يغيروا ما كانوا عليه من فكر واعتقاد، ومن سلوك ومعاملة. ومن خلق ومنهاج.

تلك سنة الله تحققت في الأمم الماضية من آل فرعون والذي من قبلهم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من الذين كفروا بآيات الله وتعدوا حدوده وحاربوه في حياتهم بمخالفة شرعه الذي شرع لهم..

ونرى في الآيات أن العقوبة كانت بسبب ذنوبهم قال تعالى: ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ وقال: ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾.

إنها سنة الله في عباده كما قال عز من قائل: ﴿ذلك بأنَّ الله لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.

وتذكر الآيات من صفات الله هنا ما تخشع له القلوب وتنخلع له الأفئدة.. إنه سبحانه قوي شديد العقاب.. وإنه سميع عليم وإنه سبحانه يعاقب الظالمين بالأخذ الشديد والإغراق والإهلاك في الدنيا والآخرة.

إن تخلف المسلمين ظاهرة يصعب أن نحصر أسبابها التفصيلية في هذه الكلمة، ولكني سأذكر بعضاً من أهمّ هذه الأسباب في نظري.. وقبل ذلك لا بدَّ من أن نتعرّض إلى وصف هذا الواقع بغاية الإيجاز وأحسب أن هذا الواقع المؤلم الحاليَّ يقترب من وصف الحديث الصحيح للمسلمين في آخر الزمان.

عن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذٍ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم. وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»[1] رواه أبو داود.

وأودّ أن أقف عند الجملة الأولى:

«يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها» صورة

(١) انظر «سنن أبي داود» ٤/١٥٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أدبية رائعة. . . تحوّل فيها المسلمون إلى شيء مأكول، والمأكول لا حيلة له ولا قوة، ولا حركة فيه ولا مقاومة.

وعندما يكون كذلك فهو إلى التمزيق والطحن والمضغ والازدراء وما وراء ذلك صائر. والمسلمون في هذه الصورة الفنية الرائعة صمٌّ لا يسمعون!! تعلن الأمم عزمها على أكلهم، وتتداعى أمم الكفر إلى ذلك. . . ومع ذلك فهم لا يسمعون!! وكيف يسمعون وقد فقدوا الحياة. وقد يسمعون ولكنهم لا يعون ما يسمعون فكانوا هم والصمُّ سواءً.

أولسنا نرى اليوم في تصريحات كثير من دول الكفار من النصارى واليهود والشيوعيين وغيرهم وفي أعمالهم مثل هذا الإعلان الذي يتضمن عزمهم على احتلال بلادنا؟ بل جاوزوا الإعلان إلى التنفيذ!! ولا حول ولا قوة إلا بالله كما حصل في فلسطين وأفغانستان. ومع ذلك فإننا نأكل ونشرب، ونلهو ونلعب، ونتمتع بكل ألوان المتعة، وكأنّ الأمر يخصّ غيرنا!!! لا نسمع، أو نسمع ولا نعي، وكلا الأمرين مصاب جلل، له أوخم العواقب وأسوأ النتائج.

والمسلمون في هذه الصورة النبوية الرائعة محاط بهم من كل جانب!! فالأكلة يتحلقون حول القصعة، وكذا الكفار اليوم يحيطون بالمسلمين.

وعندما سمع الصحابة رضوان الله عليهم ماذا سيكون حال أمتهم في ذاك الزمان تصوروا أنّ عددهم يومئذٍ عدد قليل. فسألوا رسول الله ﷺ عن صحة هذا التصور فقالوا: (أومن قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟).

فأجابهم ﷺ: «لا. . . إنكم كثير. . . ولكنكم غثاء كغثاء السيل».

لقد نبّههم إلى أن الأمور لا تقاس بالكمية، وإلى أنَّهُ لا ترتفع قيمة الأمة ولا يعزّ شأنها بكثرة عددها فقط. .لا. .لا بدَّ من الكيفية الجيدة، ويقرر رسول الله أن المسلمين سيكونون في ذاك الزمان كثيرين.

إنَّ عددهم اليوم يزيد عن مليار نسمة، وتصل نسبتهم إلى خُمْس سكّان

العالم كلّه. ولكن هذا المليار من المسلمين: ما شأنه؟ ما قيمته الفكرية؟ ما قيمته الاقتصادية والعسكرية؟ ما قيمته السياسية؟... إنهم غثاء كغثاء السيل... رغوة سرعان ما تتبدد، وأوساخ وقشّ وما إلى ذلك سرعان ما تتناثر هنا وهناك!!

إن الكثرة ليس لها شأن كبير إن تخلّت عن النوعية الجيدة، إنّ ألف تفاحة فاسدة لا تسدُّ مسدّ تفاحة واحدة صحيحة، إن التفاح الفاسد زبالة تجلب الجراثيم وتنشر الروائح الكريهة وتأتي بالحشرات والديدان، ولكنّ التفاحة الصحيحة تنشر الشذى الرائع، وتنعش البدن، وتفيد الجسم، وتمتع آكلها.

إنَّ أزمة المسلمين ليست في قلتهم ولكنّ الأزمة في فسادهم وتخلفهم وبعدهم عن دينهم.

ورغبة مني في الموضوعية قلت: أحسب أن واقع المسلمين يقترب من هذا الحديث الذي هو من أعلام نبوته ﷺ.

ثم ذكر رسول الله ﷺ أن هؤلاء المسلمين الغثاء ستنزع من صدور أعدائهم المهابة منهم، وذلك باتصافهم بصفتين هما: حبّ الدنيا، وكراهية الموت.

إن الدنيا تشغل بال أكثر الناس اليوم، يوظفون لها حياتهم، يعيشون من أجلها، ويشقون رغبة في جمع أكبر قدر ممكن من متاعها وعَرضها. نعم... هذا حال سواد المسلمين.

وهو أمر سيّء مؤلم، ولكن الأكثر إساءة وإيلاماً أن يكون كثير من الدعاة وطلبة العلم في العالم الإسلامي لا يرتفع عن مستوى العامة والدهماء.

فترى الواحد من هؤلاء الدعاة والطلبة خاضعاً للدنيا التي سيطرت عليه سيطرة تامة، ولكنه يلبّس على نفسه ببعض التعللات وببعض المغالطات.

ومن مستلزمات حبّ الدنيا أن يكره الإنسان الموت، لأنَّ الحياة هي من

الدنيا ولو نظرنا إلى كثير من الأغاني التي يطرب لها الناس ويرددونها لوجدناها تنبئ عن تصوّر خطر من أنّ الدنيا محصورة في اللذة... وأنّ الغاية من هذه الحياة أن يعبَّ المرء أكبر مقدار من اللذات الآثمة.

وكان إلى جانب ذلك كيدٌ من الكفار بدأ في وقت مبكر... منذ مجيء الإسلام، وقد اتخذ هذا الكيد وسائل متعددة حسب الظروف العامة التي يحيا فيها الناس، وتعاون على هذا الكيد أعداء الإسلام من مجوس ويهود ونصارى وزنادقة... ثم كانت الحملات العسكرية التي شنّها الصليبيون والتتار والاستعمار الحديث، وكان مع ذلك كله في العصر الأخير الغزو الفكري الذي أقام استعماراً فكرياً شديد الخطورة. إن سبب هذا التخلف الأكبر يكمن في نفوس الناس، ولا ننكر تأثير **الأسباب** الخارجية، لكننا يجب أن نتذكر دائماً أن شأن الأعداء أن يقاتلونا وأن يكيدوا لنا وأن يبذلوا قصارى جهدهم لإضعافنا وإذلالنا وإخضاعنا لسيطرتهم ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يرُدُّوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾ [البقرة: ٢١٧] إن من شأن الجراثيم أن تفتك بالأجسام فلا ينبغي أن نلوم تلك الجراثيم وننسى الإنسان المقصر في الاحتياط والاحتراس والحذر من ارتياد أماكن وجودها والاحتكاك بالمصابين بها... إن اللوم كله يجب أن يوجه لهذا الإنسان الذي قصر في اتخاذ أساليب الوقاية ومحاربة الجراثيم وإبادتها. إن الواجب على الإنسان أن يعد لمقابلة عدوه ما استطاع من قوة، وأن يتسلح بكل أنواع الأسلحة التي تضمن له رد عدوان المعتدين وقد قيل:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم.

وإننا لنقرأ في السيرة النبوية أخبار غزوة أحد عندما أصابت المسلمين مصيبة فسألوا: أنى هذا؟ من أين هذا؟ فنزل في ذلك قوله تعالى ﴿**أَوَ لَمَّا أصابتكم مُصيبةٌ قد أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلتُم: أنى هذا؟ قل: هو من عند أنفسِكم إنَّ اللهَ على كل شيءٍ قديرٌ**﴾ [آل عمران ١٦٥] أصابتكم هذه المصيبة بسبب يعود إليكم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يكُ مغيراً نعمةً أنعمَها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفُسِهم وأنّ الله سميعٌ عليمٌ﴾ [الأنفال:٥٣].

هذا وأودّ أن أورد أهم أسباب تخلف المسلمين إجمالاً ثم آتي عليها بالتفصيل وأن أضع بعد ذلك بين أيديكم ما أحسبه علامات طريق الخلاص إنّ من أهم أسباب تخلف المسلمين ما يأتي:

١ ـ البعد عن الدين في حياة الفرد والبيت والمجتمع وفي مجال الحكم.
٢ ـ التأثر بالكفار في مجال التشريع والمبادئ الاعتقادية.
٣ ـ اضمحلال الشخصية المسلمة في كثير من بلاد المسلمين.

١) البعد عن الدين:

١ ـ إن من أبرز مظاهر البعد عن الدين هو الجهل بالدين.. الجهل المطبق... وهذا أمر عام في العالم الإسلامي بالنسبة إلى العامة، ورسَّخ الجهل هذا في كثير من بلاد المسلمين كونُ الحكم في أيدي كفّار مستعمرين أو كفّار من أبناء الأقليات أو ممَّن ارتدّ عن الإسلام في فكره من أبناء المسلمين وكذلك فقد رسَّخ هذا الجهل بالدين أيضاً سيطرةُ العقلية الصوفية التي تنشر أفكاراً غريبة عن الإسلام في كثير من الأحيان، وتبحث في الغيبيات بحثاً تفصيلياً لا تؤيدها فيه نصوصٌ دينية ثابتة. ومعلوم أن الغيبيات لا مجال للخوض فيها إلا بمقدار ما تدل عليه النصوص الصريحة الصحيحة.

إن سيطرة هذه العقلية جعل اهتمام الناس بالإسلام محصوراً في مسائل لا تتصل بحياتهم ولا بواقعهم، فتراهم يخوضون في موضوع الوجد ومقامات الأولياء وكراماتهم وفي موضوع الأقطاب والأبدال والأوتاد، وفي موضوع أخبار الزهاد المنقطعين عن الحياة المتنسكين في الصوامع والزوايا والتكايا، وفي موضوع المنامات ودلالاتها، وربما تكلموا بكلام غامض لا يفهمه أحد من الحاضرين.

وكان من تأثير سيطرة العقلية الصوفية أن وجد جيل من المتدينين يرون

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الدين تراتيل وأناشيد يرددونها ويسمعونها بصوت جميل، وقد يرافقها ضرب بالدف وعزف بالمزمار، ورقص رتيب، وفي الوقت ذاته تراهم لا يعرفون شيئاً عن الوضوء والصلاة، ولا عن الصوم ولا الزكاة، ولا عن الجهاد والبيع والشراء.

ومن أخطر تأثير هذه العقلية الصوفية قلبها لفهم كثير من عقائد الدين وتصورها على شكل معكوس، فمن ذلك الفهم المقلوب لفكرة القضاء والقدر التي كانت تدفع المسلمين في الماضي إلى الجهاد، وتحرير البلاد والعباد، من قيود الشرك والمظالم الاجتماعية، فأصبحت الآن تحمل الناس على الرضا بحكم الكفار وسيطرتهم على العقول والأموال، لأنّ ذلك من القضاء والقدر ولقد رأيت أناساً في بلاد كان يحكمها مستعمر كافر يعدون العدة لنصرة المهدي المنتظر إذ كان واحد منهم يشتري فرساً يربطه لهذه الغاية، وكلما مات فرس اشترى آخر ولا يسهم في تغيير واقع المسلمين ولا واقع بيته وحيّه.

ومن ذلك الفهم لفكرة التوحيد التي تحولت عند بعضهم إلى كفر أشدّ من كفر اليهود والنصارى عندما ذهبوا يقررون وحدة الوجود أو يقررون عقيدة الحلول. والعياذ بالله تعالى.

كان هذا شأن الذين يتصلون بمراكز التوجيه الديني، أما الفسقة المنحرفون فهم في وادٍ آخر... منغمسون في الإثم والمعاصي، واللعب والملاهي... وهم أشدّ جهلاً من أولئك.

ومما يتصل بالجهل بالدين عدم اليقظة لمخططات أعداء الإسلام، وعدم مقابلة هذه المخططات بما يبطلها ويزيل مفعولها.

٢ ـ وكذلك فإنَّ تقصير القيادة الفكرية بالنصح والتوجيه والإرشاد والتعليم كان من أهم مظاهر البعد عن الدين.

ذلك لأنه إذا كان الشيطان موجوداً ويعمل بنشاط كبير، وكانت الشهوات قائمة في طبيعة الناس التي خلقهم الله عليها، وكان الهوى ذا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سلطان والنفس الأمارة بالسوء ذات تأثير... فكيف يُترك هؤلاء الناس وهذه القوى الشريرة الشرسة.

إن القيادة الفكرية التي كان ينبغي أن تعصم الأمة من الانحراف تخلّت عن مهمتها للقصاص الجهلة[1] والمتصوفة الدجالين.

فكان من ذلك ازدياد الجهل، وتفاقم الفساد، وانتشار الفسق.

٣ ـ وكذلك فإنّ ترك المنهج التجريبي الذي أبدعه المسلمون والانصراف عن ذلك بما سبق أن ذكرنا من البحث في الغيبيات والمناقشات اللفظية الفارغة... كان من أهم مظاهر البعد عن الدين.

وهذا المنهج التجريبي هو أكبر هدية قدّمها المسلمون إلى الدنيا وأخذ به الغرب فتقدم... وكان من نتيجة ذلك هذه الحضارة المادية الضخمة.

٤ ـ ومن البعد عن الدين إحلال العادات المحلية محلّ الأخلاق الدينية هذا في أول الأمر، ثم كان أن قامت النعرات القبلية والقومية والوطنية والاشتراكية وحلت محل العقيدة الإسلامية.

أما بالنسبة إلى العادات المحلية فهذا جليٌّ في كل أنحاء العالم الإسلامي، ولأضرب على ذلك مثلاً واحداً: موقف كثير من الشعوب الإسلامية من المرأة... إذ يمنعونها من الإرث، ولا يسمحون لها بأن تظهر أمام الخاطب.

وأما بالنسبة إلى النعرات القبلية والقومية والوطنية والاشتراكية فنحن ما زلنا نرى آثارها في تقسيم أمة الإسلام وتمزيقها وتفريقها ونشر الفساد فيها.

٥ ـ ومن أجلى مظاهر البعد عن الدين ضعف الناحية الروحية، وضعف التوكل على الله... التوكل الإيجابي الذي يكون بعد الأخذ بالأسباب، وضعف الشعور باليوم الآخر.

---

(١) انظر كتابي «تاريخ القصاص وأثرهم في الحديث النبوي».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكان نتيجة لذلك أن سيطرت الدنيا على الناس... فهم متعلقون بالمادة والملذات والمتع... خائفون من الموت وأسبابه.

* * *

٢) التأثر بالكفار في التشريع والاعتقاد والمجتمع:

ومن أهم أسباب تخلف المسلمين تأثرهم بالكفار في مجال التشريع والمبادئ الاعتقادية والحياة الاجتماعية.

لقد حلَّت القوانين الأجنبية محل الشريعة في كثير من بلاد المسلمين.

وغزتنا من ديار الكفر مبادئ اعتقادية ملحدة قائمة على المغالطة والتدجيل، صورت أنه لا خلاص لنا من هذه الويلات والمآسي إلا بالتخلّص من الدين وآثاره، وقالت: إن لكم بأوربا أسوة، فهي لم تتقدم إلا بعد أن تركت دينها وراءها ظهرياً.

لقد انتشرت هذه المبادئ الهدامة مع الأسف الشديد لأول مرة في أبناء المسلمين، وتبنوها وقاتلوا من أجلها، وأقاموا عليها تجمعات سياسية استطاعت بمعونة من الكفار وبغفلة من المسلمين أن تستولي على مقاليد الأمور الفكرية والإدارية والتشريعية والإعلامية والسياسية في كثير من بلاد المسلمين، وكذلك فقد تأثر المسلمون بالكفار في الحياة الاجتماعية من حيث سفور المرأة واختلاطها بالرجال وفشوّ المنكرات من خمر وربا وفواحش وما إلى ذلك.

* * *

٣) اضمحلال الشخصية المسلمة:

وأخيراً فإنَّ اضمحلال الشخصية المسلمة في كثير من بلاد المسلمين سبب من أبرز الأسباب في تخلف المسلمين.

لقد مرت على أمتنا الإسلامية نكبات عظمى، وكوارث سود، ولكنّ الشخصية الإسلامية ظلت تقوم من وراء هاتيك الكوارث والنكبات والعواصف العاتية على قدميها تنهض بالأمة، وتدفع بها إلى جادة السلامة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد كانت تقوم على أنقاض الواقع المؤلم وتعمل على استئناف الحياة الإسلامية الكريمة السامية وهناك مثل من أعظم الأمثلة على حيوية الشخصية المسلمة وأثرها الفعال:

سقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ على يد هولاكو، وعاث التتار فساداً وإفساداً في ربوعها، ونكلوا بالعلماء، وهتكوا أعراض المسلمين والمسلمات وألقوا بالكتب في دجلة، وخربوا البلاد وظلموا العباد، وفعلوا الأفاعيل، ولكن الشخصية المسلمة التي لم تضمحلّ في ذاك الحين استطاعت أن تنتصر على هؤلاء الأعداء في عين جالوت سنة ٦٥٨.

كذلك كان الأمر في الماضي... أما اليوم فإننا لا نكاد نرى الفرق جلياً بين أكثر المسلمين وأعدائهم، ليس هناك من الفروق ـ في كثير من الحالات ـ إلا في الموقع الجغرافي، والانتماء الطائفي وإلا في الأسماء، وحتى هذا الفرق الهزيل بدأ يبهت لونه على مرّ الأيام فهناك اتجاه عند بعض الأقليات إلى ترك الأسماء الخاصة بهم التي كانت تميزهم، وهناك بعض الدول تمنع ذكر الانتماء إلى الدين في أوراقها الرسمية. والفرق الشكلي أضحى سمة بين المتقدمين في السن، كما ترى في عجوزين حاسرتين تأتيان أفعالاً واحدة وتظهران بمظهر واحد، وكل ما بينهما من فرق أن إحداهما تعلق في صدرها مصحفاً ذهبياً والأخرى تعلق صليباً من الذهب. إن اضمحلال هذه الشخصية الإسلامية كارثة أسهمت في تخلف المسلمين أيما إسهام.

* * *

وطريق الخلاص يتلخص فيما يأتي:

١ ـ التوعية والتوجيه.

٢ ـ مقابلة عوامل الهدم بمؤسسات إيجابية، إن الفكر المنحرف لا يقاوم بالقمع، بل بالفكر السليم، إن الزواجر القسرية والروادع الرسمية لا بد من وجودها في المجتمع، ولكن لا يجوز أن تبقى وحيدة وننسى الأمور الإيجابية.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٣ ـ التربية الدينية لإعداد الأمة الإسلامية عن طريق الدراسة ومناهج التعليم، ووسائل الإعلام.
٤ ـ العناية بالأسرة وإقامتها على أسس إسلامية.
٥ ـ إبراز فكرة التميّز التي جاء بها الإسلام ونحن نكررها في سورة الفاتحة مرات ومرات في اليوم والليلة.
٦ ـ إيثار ما عند الله والتخلي عن الأنانية والأثرة.
٧ ـ إقامة الحكومة الإسلامية وحمايتها من كل عوامل الهدم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ضرورة الدعوة إلى الله

إنَّ الدعوة إلى الله أمرٌ ضروري في المجتمع الإسلامي، فقد دعا الكتابُ الكريم والسنة المطهرة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير يقول الله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمَّةٌ يَدْعونَ إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمَعْروفِ وينَهونَ عن المنكرِ وأولئكَ هم المفلحونَ**﴾ [آل عمران ١٠٤].

والآيات التي تدعو إلى ذلك كثيرة معروفة، وكذلك فإنّ الأحاديث الصحيحة في هذا الموضوع كثيرة مشهورة.

والدعوة إلى الله أمرٌ لا بدَّ من قيامه في المجتمع الإسلامي؛ لأنها تكبح من جماح الشهوات والغرائز، وتكفكف من سلطان الهوى، وتصدّ كيد الشيطان فهي صيانةٌ للأمة أفراداً وجماعات، ودرءٌ للمفاسد والانحرافات.

ولما كانت الشهوات قائمة، والغرائز عارمة، وهي مما فطر الله النفس الإنسانية عليه من غريزة الجنس وحبّ التملك وحب البقاء، وكانت الأهواء عاصفة قوية وكان كيد الشيطان مستمرّاً.. لما كان ذلك كله كانت الدعوة ضرورة لازمة لا يماري في وجوب قيامها ذو علم أو بصر.

والدعوة إلى الله ضرورية لأنّها وسيلة الإنقاذ للبشر عامّة وللمسلمين خاصة وقد تجلت ضرورتها للناس بعد إفلاس حضارة أوربا بشقيها الشرقيّ والغربيّ، فأساطين هذه الحضارة وفلاسفتها ومفكروها يعلنون أنّها وشيكة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

السقوط، وأنها استنفدت أغراضها ولم تعد تملأ نفوس الناس الذين يعيشون في ظلالها.

والحقّ أن المسؤولية كبيرة على الذين يزعمون أنهم دعاة في هذا الضياع وهذه المآسي التي يعانيها أبناء أمتنا والناس كلهم. ففي الإسلام الدواء الناجع وفيه الحلول لمشكلات الإنسانية.

وكلما رأيت سيطرة للباطل فاعلم يا أخي أن أهل الحق مقصرون نائمون... إنَّ غياب الشمس يتيح لجحافل الظلام أن تسيطر على أرجاء الكون وجوانب الوجود... وإنَّ شمعة واحدة في غرفة تطارد فلول الظلام وتطردها من جوّها.

وممّا يؤكد لنا ضرورة الدعوة إلى الله ووجوب قيامها في المجتمع معرفة ما تقدمه هذه الدعوة من مصالح ومنافع وإيجابيات نوجز أهمها فيما يأتي:

إننا لنتطلع بكثير من الأمل إلى تلك المصالح والإيجابيات التي ننتظرها وينتظرها معنا كثيرون.

- وأهم هذه الانجازات الإيجابية العمل على صياغة الفرد المسلم لأنَّ الإنسان الصالح من أعظم ما تحتاج الأمة إلى وجوده.

إن الفرد المسلم الذي التزم بالإسلام ليحقق الخير لأمته وللدنيا، إنه لا يأتي بالشر، ويدفع الشر عن محيطه ما استطاع لذلك سبيلاً، وترك الشرّ في كثير من الأحيان كسب كبير للأمة، وهو بعد هذا يأتي بالخير ويأمر به ويذكر به.

إن كثرة وجود مثل هذا الفرد الذي يحقق الخير ويدرأ الشر يوجد المجتمع المثالي الذي أصبح أمنية يعز وجودها اليوم.

- ومن إنجازات الدعوة إلى الله المساعدة على إقامة البيت المسلم البيت الذي يسوده الحب والود والتكافل.

إنّ الأسرة هي اللبنة الاجتماعية المهمة في المجتمع.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ما أشدّ حاجتنا إلى بيت تسود فيه الفضيلة، وتنحّى عنه الرذيلة... إن هذا البيت المسلم سيخرج للأمة أفراداً صالحين... وما أعظمه من إنجاز.

- ومن إنجازات الدعوة الناجحة الرشيدة إقامة المجتمع المسلم الذي تسود أوساطه علاقات الحب والود والإخاء والتكافل.

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً»(١).

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢).

«والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه»(٣).

«ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»(٤).

هذا المجتمع الذي لا تحاسد فيه ولا تباغض ولا حقد ولا كيد.

«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه، لا تظالموا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسسوا ولا تحسسوا وكونوا عباد الله إخواناً»(٥).

هذا المجتمع الفاضل الذي تصوره هذه الآيات:

﴿للفقراء المهاجرينَ الذينَ أخرجُوا من ديارهم وأموالهم، يبتغونَ فضلاً من اللهِ ورِضواناً وينصرونَ اللهَ ورسولَه، أولئكَ هم الصادقون. والذينَ تبؤوا الدارَ والإيمانَ من قبلهم يحبونَ من هاجرَ إليهم ولا يجدونَ في صدورهم حاجةً مِمَّا أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كانَ بهم خصاصة ومن

(١) رواه البخاري ٨٦/١ ومسلم ٢٠/٨ والترمذي ١٢٣/٣ والنسائي ٧٩/٥ عن أبي موسى وصحيح الترمذي ١٥٧٣.

(٢) رواه أحمد ١٧٦/٣ والبخاري ٩/١ ومسلم رقم ٤٥ والترمذي ٣٢١/٣ والنسائي ١٢٥/٨ وابن ماجه ٦٦ عن أنس وصحيح الترمذي ٢٠٤٢.

(٣) رواه أحمد والبخاري فتح الباري ٤٤٣/١٠ ومسلم ٤٦ بلفظ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» والحاكم ١٠/١ عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي عن ابن عباس وانظر صحيح الجامع الصغير ٥٣٨٢.

(٥) الجزء الأول متفق عليه. من رواية ابن عمر. البخاري ١١٢/٣ ومسلم ١٨/٨، وبقية الحديث من رواية ابي هريرة في مسلم برقم ٢٥٦٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأولئكَ المفلحونَ. والذي جاءوا من بعدهم يقولـونَ ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونَا بالإيمان ولا تجعل في قلوبِنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوفٌ رحيمٌ﴾ [الحشر ٨ - ٩ - ١٠].

وعن هذا المجتمع الفاضل تنبثق الدولة المسلمة التي لا تريد علواً في الأرض ولا فساداً، تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر **﴿الذينَ إن مكَّنَّاهم في الأرضِ أقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبةُ الأمور﴾** [الحج ٤١].

ومن خلال ذلك كله تتحقق للفرد والمجتمع السعادة الكاملة في الدنيا والنجاة يوم القيامة.

العَقَبات التي تقوم في وَجه الدّعوة

عقبات في طريق الدعوة إلى الله

إنَّ طريق الدعوة ليس ممهداً ولا معبداً، وليس مفروشاً بالزرابي والطنافس، ولا تنثر على جوانبه الورود والرياحين... بل هو طريق صعب يطلب من سالكه الصبر، ولذا كان من وصايا لقمان لابنه ﴿**يا بنيَّ أقم الصلاةَ وأمُر بالمعروف وانهَ عن المنكرِ واصبرْ على ما أصابَك إن ذلك من عزمِ الأمورِ**﴾ [لقمان ١٧].

وجاء في وصف الإنسان الناجي من الخسران بعد التواصي بالحق التواصي بالصبر، إشارة إلى أن الأمر بالمعروف يعرّض صاحبه إلى الأذى والاضطهاد، فعليه أن يقابل ذلك بالصبر ﴿**والعصرِ إن الإنسانَ لفي خسرٍ إلا الذينَ آمنوا وعَمِلوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبرِ**﴾.

بل إن الإيمان نفسه لا بدّ من أن يلحق صاحبه إيذاء وفتنة ﴿**ألم أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يفتنون ولقد فتَنَّا الذينَ من قبلهم فليعلمنَّ الله الذينَ صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين**﴾ العنكبوت ١ ـ ٣.

﴿**أم حَسِبتُم أن تدخلوا الجنةَ ولما يعلمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصابرينَ**﴾ [آل عمران ١٤٢].

﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنةَ ولما باتكُم مثلُ الذينَ خَلَوا من قبلكم**

مَسَّتهُم البأساءُ والضراءُ وزُلزِلوا حتى يقولَ الرسولُ والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إنَّ نصرَ الله قريبٌ﴾ [البقرة ٢١٤].

فالعقبات لا بدَّ أن تقوم في طريق الدعوة ولكنّها تختلف من عصر إلى عصر.

إنّ ذكر هذه العقبات يحقق مصلحة كبيرة للدعوة إلى الله، إذ نستطيع بذكرها وتحديد معالمها ووصف واقعها أن نشخص الداء، وذلك يعين جداً في البحث عن الدواء الذي إن لم نجده الآن وجدناه في المستقبل القريب إن شاء الله.

وينبغي ألاّ يكون ذكر هذه العقبات التي تقوم في طريق الدعوة إلى الله مثبّطاً ولا موقعاً في اليأس.

إنّ المؤمن لا ييأس مهما تكاثفت في وجهه الظلمات، وانتصبت في طريقه العقبات، وهدته المتاعب، وأرهقته المصاعب... إنه يعتمد على الله ويعمل ما وسعه العمل.

إننا نستطيع أن نصنف العقبات التي تقوم في طريق الدعوة إلى الله إلى زمرتين:

١) زمرة تعود إلى المسلمين عامة.
٢) زمرة تعود إلى غير المسلمين.

أما الزمرة الأولى التي تعود إلى المسلمين فهي تنقسم إلى قسمين:

١ ـ قسم يتصل بمجتمعات المسلمين.
٢ ـ وقسم يتصل بالدعاة المسلمين.

ونودّ أولاً أن نتحدث عن العقبات التي تقوم في وجه الدعوة إلى الله والتي تتصل بمجتمعات المسلمين.

ومن أكبر هذه العقبات جهل المسلمين بالإسلام عقيدة وأحكاماً، جهل

مطبق لا يكاد يتصوره الباحث، ولذلك أسباب ليس المجال مجال تعدادها. ومن أجلى مظاهر هذا الجهل جهل هؤلاء المسلمين بالعقيدة وبأحكام الصلاة، وهما من الفروض العينية التي لا يعذر في جهلها أحد من الناس إلاّ أن يكون حديث عهد بالإسلام.

ومن جهل شيئاً عاداه، وأنكر على من يدعوه إليه والناس أعداء ما جهلوا. إنَّ هذه العقبة ينبغي أن تكون في تصور الدعاة.. فلا تنتظر أيها الداعية أن يكون الذين تحدثهم عارفين لهذه المسألة لأنها مما يعلم من الدين بالضرورة... بل عليك أن تبدأ مع الذين تدعوهم من أول الطريق.

ومن هذه العقبات المتصلة بمجتمعات المسلمين **حلول العادات المحلية والقبلية** محلّ العادات الإسلامية، والمؤسف ـ في هذا الموضوع ـ أن كثيراً من الناس يعتقدون أن هذه العادات من الدين. ثم جاءت **الصوفية بخرافات وبدع وأباطيل** فترسخ لدى الدهماء أن هذه هي الدين. وكثير من هذه العادات مخالف للإسلام، أما الخرافات المبتدعة فكلها مردودة تصادم الإسلام.

وهذه عقبة ضخمة... وينبغي أن يكون الداعية سالكاً مسلك الحكمة والرفق في معالجة هذه العقبة.

ومن هذه العقبات انحراف مناهج التعليم والإعلام في معظم بلاد المسلمين وتأثرها بالعلمانية من جهة، وبلوثات التصوف من جهة أخرى.

إنَّ هذه المناهج في معظم بلاد المسلمين إما من وضع المستعمرين أيام احتلالهم لبلادنا، وإما من وضع تلامذة المستعمرين من أبناء جلدتنا، الذين تحولوا إلى عبيد للغرب، يستحسنون ما يستحسنون، ويكرهون ما يكرهون. تراهم مندفعين لتحقيق أهداف أعدائنا اندفاعاً هائلاً.

وخطورةُ هذه العقبة اتساعُ أثرها وشموله واستمراره.

ومن هذه العقبات تعاظم سلطان الشهوات، وتسهيل الوصول إليها، وسيادة الرذائل واستعلانها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والشهوات تميل إليها غرائز الناس عامة والشباب خاصة، وقد سلحت هذه الشهوات بأقوى الوسائل في التأثير والإغراء.

إن الشباب يتعرضون إلى إغراء شديد بالمعاصي، وإغواء خطير بسبب هذه الوسائل الجذابة الميسرة.

إنه طوفان الغريزة المستحكم[1] يهدّد أسرنا وأبناء أمتنا في كل صقع... وهذا باب من أبواب الفساد ينجذب إليه كثير.

ومن أهم وسائل مقاومة هذا الباب الدعوة إلى الزواج المبكر بكل سبيل[2].

أما العقبات التي تعود إلى الدعاة فكثيرة سنذكر أهمّها فيما يأتي.. نقررها ههنا لعلّ الله يجعل في ذلك خيراً.. إنّ تشخيص المرض هو الخطوة الأولى لعلاجه، وإنَّ التاجر الذي لا يراجع حساباته ولا ينقد تصرفاته نقداً ذاتياً مقضيّ عليه بالإفلاس.

فمن أكبر المآخذ على الدعاة اليوم أنهم لا يسيرون في دعوتهم وفق مخطط منهجي مدروس يعتمد المراحل التي يبنى بعضها فوق بعض.

إنّ الذي يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بدَّ من أن يعيش عصره، ويعرف الوسط الذي يتحرك فيه تمام المعرفة.

إن العصر الذي نعيش فيه عصر تخطيط... فأيّ عمل نريد أن نواجه به الناس لا نستطيع أن ننجح فيه ما لم يكن قائماً على منهج مدروس... إننا لن نقوى على الاستمرار في طريق الدعوة إلا بالتخطيط المنهجي المدروس.

إنَّ أعداء الإسلام يحاربون ديننا وفق مخطط بذلت أعظم الجهود في رسمه، واستفيد من كل معطيات الحضارة في وضعه، فلا يجوز أن تكون حركة

---

(١) كتبت بحثاً تحت عنوان «طوفان الغريزة المستحكم» أجريت فيه موازنة بين المجلات المحافظة والمجلات الهابطة وأوردت فيه نماذج خطيرة من بعض الصحف والمجلات.

(٢) انظر كتابي «نظرات في الأسرة المسلمة» فقد أشرت في مواضع منه إلى الخطر الداهم الذي ينتظر هذه الأمة إن لم يتدارك عقلاؤها وأولو الأمر فيها الحال الراهنة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الدعاة إلى الله حركة خبط عشوائية، لا يعرف الواحد منهم ماذا يريد أن يحققه اليوم وماذا يريد أن يحققه غداً. إن هذا لا يجوز... لأن من سنن الله أن التنظيم يغلب الفوضى... إن الذي يسير وفق مخطط لا يتردّد في مسيرته ولا يتعثر، ولا يعبأ بما يعترضه من عواء العاوين، ولا يترك للأحداث الطارئة أن تحرفه عن طريقه... ولا يترك للافتراضات والاحتمالات مجالاً لتضيع عليه هدفه الذي يرمي إليه.

لا يجوز أن يحركنا أعداؤنا ـ كما يشاؤون ـ... يقوم أعداء الدين أحياناً بأعمالٍ مخالفة للدين فإذا الدعاة إلى الله يتحركون بمنطق ردّ الفعل، وتستغرق حركتهم وقتهم كله، ولا تصبح لهم مهمة غير مقاومة هذه الأعمال، وينسون هدفهم الأول والأهمّ. ولا يعني كلامي هذا أن نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... بل الذي أريد تقريره: أنّ علينا أن نمضي في طريقنا وأن نحقق هدفنا الأول والأهم، في إقامة المجتمع الإسلامي والفرد المسلم على النهج الذي جاء به الإسلام، ولا مانع من أن نقول كلمة الحق كلما دعانا إلى ذلك داع دون أن يصرفنا ذلك عن تحقيق المطلب الأهمّ. وينبغي أن يكون ذلك عن تخطيط من هؤلاء الدعاة.

إنّ من يسير في طريق ويلقى في أثناء سيره أن عدوه قد حفر له حفرة لتعوق تقدمه، عليه أن يتجنبها ويحذر من الوقوع فيها، ويضع لافتة تحذر السالكين من الوقوع فيها، ثم يتابع طريقه لأنّ اشتغاله بردم الحفرة، وذمه من حفرها واهتمامه بذلك ينسيه غرضه الأصلي، وهدفه الذي سار من أجل الوصول إليه.

إنّ هذه النقطة من الأهمية والدقة بمكان كبير.

ومن العقبات التي تعود إلى الدعاة أنّ الدعوة في أكثر بلاد المسلمين تتصف بالنزعة الفردية... إذ تقوم على أفراد لا على مؤسسات، فهي تصطبغ في كثير من الأحيان بصبغة القائم عليها ومزاجه.

وليس من شك في أن لشخصية الداعية الكبيرة أثراً فيمن يعاونه، وعلينا أن نعمل على بناء الشخصيات المؤثرة الفعّالة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولكنّ الشيء الذي لا يجوز أن نهمله هو اعتماد العمل المبنيّ على المؤسسات، إنّ العمل المبني على المؤسسة لا يجعل العمل متأثراً بغياب الشخص الكبير، فيضعف أو يتوقف.

إنّ كثيراً من الدول لا تتغيّر سياستها ولا تتبدل مواقفها بتبدل القائمين عليها... بل تتابع طريقها المرسوم وتحقق الهدف المطلوب، وذلك لا يلغي أثر الشخصية الضخمة فيها. فلا ينكر أحدٌ ما لشخصيات العالقة من نتائج ملموسة في صياغة الأفراد والتأثير على المجتمعات.

إن مؤسسات الأمر بالمعروف والدعوة إلى الله يجب أن تكون مسيرتها معتمدة على نظامها المرسوم، وخطتها المدروسة، وعلى تخطيطها المحكم، وعلى وضوح الرؤية لدى الدعاة، وعلى إدراك الوسط الذي يقيمون فيه والمتغيرات التي حصلت ومعرفة العصر، وعلى التفريق بين الغاية والوسيلة، ويومئذٍ لن يكون هناك مجال لتوقف لذهاب الشخصية الضخمة التي توجه أولئك الدعاة... ولن يكون هناك مجال للفرقة أو الاختلاف.

ومن العقبات التي تعترض طريق الدعوة إلى الله وتعود إلى الدعاة ما نجده في كثير من بلاد المسلمين من أنَّ الدعوة تجمد على ما ورثه القائمون عليها عمن كان قبلهم من وسائل. فلا يكون عند الواحد منهم استعداد لترك أي وسيلة حتى لو ثبت له قصورها عن الوفاء بالمطلوب.

وعندئذٍ لا تستطيع الدعوة مواكبة العصر، ولا مسايرة التطور الشديد الذي تعرض له المجتمع الإسلامي، ولا يتحقق التجاوب بين الدعاة والناس، إن اختراع الطائرة والطباعة، والتلفاز والإذاعة، والبرق والهاتف والتلكس والفاكس... أدخل تغييرات كبيرة جداً على مجتمعاتنا فلا يجوز أن تبقى وسائلنا في الدعوة على ما كانت عليه قبل مائة عام.

لو أنك وازنت بين المسلمين اليوم وهم في سنة ١٤٠٩ هـ وبينهم وهم في سنة ١٣٠٩ هـ لوجدت الفرق كبيراً جداً يفوق كل تصور.

فلا بدّ من أن تكون وسائلنا في الدعوة منسجمة مع عصرنا ومع

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأحوال الجديدة، ولا يجوز أن نهمل الوسائل الحديثة التي تتيح لنا تأثيراً واسعاً وباقياً... كما يحصل في بعض الأصقاع.

ومن هذه العقبات اختلاف الدعاة وتفرقهم، وكل يدعي أنه على النهج السديد، وهذا يوقع بالحيرة أكثر الشباب يقولون: إلى من نستجيب ومن نصدّق؟ ذلك لأنهم يتنازعون على كسب التلاميذ والأتباع، وقد يكيد بعضهم لبعض، وقد يتّهم بعضهم بعضاً. إنَّ هذا التجزّؤ والتفرق من أكبر العقبات التي تقف في طريق الدعوة إلى الله. ولقد حذرنا ربنا من التفرق، ونهانا عن الاختلاف، وأمرنا بالاعتصام بحبله جميعاً فقال تعالى: ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً**﴾ [آل عمران ١٠٣] وقال عز من قائل: ﴿**ولا تكونوا كالذينَ تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءَهُم البيناتُ وأولئكَ لهم عذابٌ عظيمٌ يومَ تبيضُ وجوهٌ وتسودُ وجوهٌ**﴾ [آل عمران ١٠٥ - ١٠٦].

وقال: ﴿**إنَّ الذينَ فرَّقوا دينَهم وكانوا شيعاً لستَ منهم في شيءٍ**﴾ [الأنعام ١٥٩].

إن هذا الاختلاف منشؤه إيثار الدنيا وسيطرة الهوى على الناس، وينعكس هذا الاختلاف على أمتنا فيفقد التعاون بين أفراد الأمة... فلا يتعاون الشباب والشيوخ، ولا العامة والعلماء ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن هذه العقبات قلة الدعاة الذين تتوافر فيهم صفات طيبة كريمة من صفات الداعية[1].. قلة في العدد والنوعية الممتازة.

إنَّ المشكلة الكبرى التي يعانيها المصلحون اليوم هي الفقر في الرجال، ويتجلى هذا بوضوح عندما نرى إقبال عدد كبير من الناس على الدين يسألون عن أحكامه ويحتاجون إلى من يجيبهم ويتعهدهم ويرعاهم. وفي كثير من الأحيان لا يجدون من يرشدهم ويأخذ بأيديهم.

(١) انظر رسالة لي مطبوعة بعنوان «من صفات الداعية».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولقد أتاح هذا الفقر في الرجال الصالحين ظهور طائفتين من الدجالين يدعون أنهم دعاة وعلماء.

أما الطائفة الأولى فهم علماء سوء باعوا دينهم بالدنيا.

وأما الطائفة الثانية فهم جهلة نفعيون يدورون حول مصالحهم ويحسنون التمثيل والتدجيل.

وكلتا الطائفتين يسعون في استرضاء العامة ولا سيما الاثرياء منهم، واسترضاء من يستطيع أن يقدم لهم معونة أو خدمة أو جاهاً أو منصباً. إنهم قوم انتهازيون يتخذون الدين وسيلة للدنيا على حدّ تعبير عبدالله بن المبارك:

يا جاعل العلم له بازياً ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلة تذهب بالدين
تقول: أكرهت فما حيلتي ... زلّ حمار العلم بالطين
لا تبتغ الدنيا بدين كما ... يفعل ضلال الرهابين[1]

وهناك شباب جهلة ليسوا بانتهازيين ولكنهم أُتوا من الجهل، يذهبون إلى تحريم كل أمر اختلف العلماء فيه، فيقعون في الانحراف والتنفير من الدين، وهم بمثابة رد فعل على نفر من الذين يميلون إلى التساهل ويأخذون بالقول المبيح تسهيلاً على الناس كما يزعمون، وكلاهما مخطئ فالحرام ما يحرمه الله والحلال ما يحله. ولا يثبت ذلك إلا بالدليل.

ولا بدّ من قيام عدد من أهل العلم يؤثرون ما عند الله، ويتقدمون للنصح والإرشاد لا يريدون جزاء ولا شكوراً، بل يريدون ثواب الآخرة.

ومن العقبات التي تُعَدُّ من سلبيات الدعوة هذا الاستعجال الذي تلقاه عند نفر طيب من الدعاة الذين يحاولون اختصار الطريق، فينقطعون في منتصف الدرب، ويسيئون، وما أجمل هذا المثل الذي يروى مرفوعاً ولكنه بسند ضعيف:

---

(١) انظر جامع بيان العلم لابن عبد البر ١/١٦٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«إنَّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإنَّ المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[1].

إنَّ الذي يستعجل في سيره فيحمل دابته على الجري المستمر... هذا الإنسان لا يقطع مسافة قصيرة حتى تموت هذه الدابَّة وينقطع في الطريق، فلا هو قطع أرضاً، ولا أبقى لنفسه ظهراً يركبه، إنَّ هؤلاء المتعجلين يخطئون أخطاءً عدّة مركبة:

أما أولها فهو سوء فهم الدعوة الإسلامية؛ إذ ينسون أن المطلوب منهم هو البلاغ، وليس عليهم إدراك النتائج قال تعالى مخاطباً رسوله: ﴿**فإن أعرضوا فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً إن عليك إلاّ البلاغُ**﴾ [الشورى ٤٨]، وقال: ﴿**ليس عليكَ هداهم ولكنَّ الله يهدي من يشاء**﴾ [البقرة ٢٧٢]، وقال له ﷺ: ﴿**فذكِّرْ إنَّما أنتَ مذكِّرٌ لستَ عليهم بمسيطرٍ**﴾ [الغاشية ٢١ - ٢٢].

وجاء في الحديث أن النبي يأتي يوم القيامة ومعه الرهط، ويحشر نَبِيٌّ ومعه رجلان، ويأتي النبي وليس معه أحد[2]. وقصة نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ولم يؤمن معه إلا من ركب السفينة ذات دلالة عظيمة في أن الواجب على الرسل أن يبلغوا، وكذلك العلماء ورثتهم وليس عليهم الوصول إلى النتيجة.

وثانيها مخالفة سنة رسول الله ﷺ في سيرته، فقد كان يعطي كل حال ما يناسبها، فهو عندما كان في مكة كان يدعو، وَعَلَّمَنا بسلوكه في هذه المرحلة وبقوله أن على الداعية أن يصبر على ما يلقى من الأذى، وأن يترفق بمن يدعوهم، وأن يحسن التأتِّي لدعوته ما دام رجلاً لا سلطة له، فلما انتقل إلى المدينة وأصبحت السلطة في يده دعا إلى الله بالحكمة والأسلوب الحسن المقنع، واستعمل الحزم مع الذين لم يستجيبوا لدعوة الله عناداً ومحاربة للإسلام والمسلمين.

(١) انظر «مجمع الزوائد» ٦٢/١ و«سنن البيهقي». ١٩/٣.

(٢) أخرجه البخاري ٩٥/٨ ومسلم ١٣٦/١، وقد درست هذا الحديث وشرحته في كتاب ضمَّ عدداً من الأحاديث يسَّر الله نشره.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وثالثها مصادمة طبائع الأشياء ومخالفة سنَن الحياة... فلكل أجل كتاب، ولكل أمر مدى لا بدّ أن يأخذه، إن الجنين يبقى في بطن أمه مدة معينة إن تعجل أحدٌ نزوله نزل سقطاً، والطعام له مدة يحتاج إليها ليتم نضجه، وكذلك الفواكه والخضار، والدواء لا بدّ له من مدة ليعطي تأثيره النافع.

وقد دلّ الواقع على أن إساءة هؤلاء المتعجلين للإسلام إساءة كبيرة جداً بسبب تصرفاتهم هدانا الله وإياهم إلى الحق.

* * *

ومن العقبات التي تعترض الدعوة في واقعها المعاصر وهي تعود إلى الدعاة وجود عدد من هؤلاء الدعاة يقتصرون على ناحية من الدين لا يجاوزونها إلى غيرها، ولا يستطيعون أن يتصوروا الإسلام كلاً واحداً.

فتجد المرء منهم تشغله مسألة من المسائل لا يرى الدين إلا من خلالها، ولا يحكم على الناس إلا بمقياسها، وقد تكون هذه المسألة صحيحة، ولكن الغلط في موقفه هو الاقتصار عليها، لا بدّ من النظر إلى كل مسألة في موضعها من مجموع المسائل في الإسلام.

وأخيراً وليس آخراً فإن من العقبات ضيق النظر عند عدد من الذين يقومون بأمر الدعوة فيفوتون فرصاً متاحة لهم، ربما لا تتاح لهم في المستقبل، ويزهدون في وسائل هي في مقدورهم، قد تصبح متعذرة عليهم فيما بعد، ولعل أهم سبب يجعلهم في قصر النظر هذا قلة ثقافتهم، وضعف صلتهم، بالأحداث التي تجري في زمانهم، وسيطرة المزاج الفردي على عدد منهم، وعدم استعانتهم بآراء زملائهم واستشارتهم.

هذه أهم العقبات التي تقف في طريق الدعوة وهي تتصل بالدعاة ذكرناها ليتلافاها هؤلاء الفضلاء.

أما العقبات التي تعود إلى غير المسلمين فهي كثيرة جداً يمكن أن نذكر

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أهمها فيما يأتي ولن نستطيع التفصيل فيها لأن التفصيل في كل منها يقتضي صفحات وصفحات:

١ ـ الغزو الحضاري المدعوم بوسائل الترفيه والتدمير، والقائم على دراسات موضوعية عميقة تناولت أوضاع المسلمين القائمة وعقائدهم وتشريعات دينهم، وقد استخدمت هذه الدراسات كل معطيات الحضارة وجميع وسائلها وعلومها من نحو علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع والاحصائيات المختلفة، والدراسات المتخصصة في أحوال المسلمين سواء كانت بأقلام عربية مسلمة أو أجنبية.

٢ ـ التبشير النصراني الذي تدعمه كثير من الدول الغربية الكافرة.

٣ ـ الاستعمار بمختلف أنواعه الشرقي والغربي والأنواع العسكرية والاقتصادية والسياسية والفكرية.

٤ ـ الحقد اليهودي الماكر المسلح بسلاح المال والعلم.

٥ ـ قيام الأفكار الهدامة المدعومة من قبل دول قوية سخرت لها إمكانات مادية وإعلامية كثيرة. وهذه الأفكار الهدامة مثل الشيوعية الملحدة والحركات القومية المحاربة للإسلام.

أما علاج هذه العقبات فيحتاج إلى دراسة عميقة ونسجل هنا بعض الخطوط العريضة للعلاج:

ولا بدّ لنا من أن نقرر من أن العلاج النافع لن يكون سريعاً، فلا يمكن أن تتغير الحال، وتزال العقبات بين عشية وضحاها.. أجل لا بد من أن يتاح وقت كاف يتمثل فيه الناس مبادئ الحق ومن أهم وسائل العلاج:

١ ـ العلم، فالجهل تعود إليه عقبات كثيرة... إن اعتمادنا على العلم وفشوه في صفوف الناس هو الوسيلة الفعالة في التخلص من آثار هذه العقبات. والعلم بعمومه هو المراد هنا، فالعلم بالشريعة عقيدة وأحكاماً، والعلم بالخصوم وطبيعة العصر، ومسار الأحداث، وما إلى ذلك من العلم المطلوب الذي يفيد في علاج كثير من هذه العقبات.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢ ـ التعاون، علاج مهم وأول ما يطالب به الدعاة... ثم الناس العاديون... إن المسلمين قوة وطاقة ولكن الذي يبددها عدم التعاون، وقد يكون من الخطوات الأولى للتعاون التعارف.

٣ ـ قيام طائفة من الرواد الدعاة يريدون ما عند الله ويستكملون الصفات التي تجعل عملهم ناجحاً من الإيمان الراسخ والعلم الواسع والورع والتقوى والاخلاص في العمل والحكمة في قول كلمة الحق، لأن قولها في الوقت المناسب بالشكل المناسب يقدم خدمة عظمى للدعوة. ولكلمة الحق سلطان وأي سلطان.

٤ ـ الأخذ بالتخصص في جوانب الحياة والدعوة، فليس لنا أن نقابل خصوماً يحاربوننا باعتمادهم على التخصص، ونحن لم نستفد من التخصص ولم نعالج قضايانا بأداته.

٥ ـ التفرغ: إن وجود ناس متفرغين لا همَّ لهم إلاّ الدعوة أمر لا بدّ منه لتحقيق النجاح في الدعوة.

٦ ـ الإفادة من أئمة المساجد وخطباء الجمعة فهذه أداة من أدوات معالجة تلك العقبات وذلك بالعمل على رفع مستواهم... وهذه الإفادة تعيد للمسجد مهمته العظمى التي كانت له أيام السلف الصالح.

٧ ـ معالجة كل عقبة من العقبات التي ذكرناها آنفاً بعد دراسة موضوعية تضع النقاط على الحروف وتتحدث عن الواقع بلغة موضوعية وبأسلوب العصر مع الحرص على تجنب الفتن وإيقاع الصدام.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

يقول الله تعالى: ﴿ولتكُن منكم أمةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرونَ بالمعروف وينهونَ عن المنكرِ وأولئكَ هم المفلحونَ﴾ [آل عمران ١٠٤].

إنّ صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الصفات التي تميز أمّة الإسلام عن غيرها من الأمم السابقة واللاحقة، ولهذا وردت هذه الصفة في أعقاب نعت تلك الأمة بالخيرية في قوله تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس تأمرونَ بالمعروفِ وتنهونَ عن المنكرِ وتؤمنونَ بالله﴾ [آل عمران ١١٠]. وكأن اتصاف المسلمين بهذه المقومات جعلهم خير أمة... ويمكن أن يعود لهم عزهم وسيادتهم إذا عادوا إلى التحلي بهذه السجايا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وورد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وصف المؤمنين في مقابلة وصف المنافقين.

فقال تعالى: ﴿المنافقونَ والمنافقاتُ بعضهم من بعض يأمرونَ بالمنكر وينهونَ عن المعروفِ ويقبضونَ أيديهم. نسوا الله فنسيهم. إنّ المنافقين همُ الفاسقون. وعد الله المنافقينَ والمنافقاتِ والكفارَ نارَ جهنمَ خالدينَ فيها هي حسبُهُم ولعنَهُمُ اللهُ ولهم عذابٌ مقيمٌ﴾ [التوبة ٦٧ -٦٨].

وقال بعد آيتين من السورة نفسها: ﴿والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضهم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أولياءُ بعض يأمرونَ بالمعروف وينهونَ عن المنكر ويقيمونَ الصلاةَ ويؤتونَ الزكاةَ ويطيعونَ الله ورسولَهُ أولئكَ سيرحمُهُم الله. إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ. وعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها ومساكنَ طيبةً في جنات عدنٍ ورضوانٌ من الله أكبرُ. ذلك هو الفوزُ العظيمُ﴾ [التوبة: ٧١ - ٧٢].

واضح من الآيات السابقة أن المؤمنين يتميزون عن المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، بينما نرى المنافقين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف والعياذ بالله تعالى.

إن الإنسان ضعيف كما قال ربنا جلّ وعزّ: **﴿وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً﴾** [النساء ٢٨].

فقد تزلُّ به القدم، وتتخاذل قواه أمام سلطان الشهوة العارم، والشيطان ساعٍ وراء هذا الإنسان الضعيف يطغيه ويفتنه ويزيّن له الحرام، ويهوّن عليه الوقوع في المعاصي **﴿... وإنْ يدعونَ إلاّ شيطاناً مريداً. لعنهُ اللهُ وقال: لأتخذنَّ من عبادكَ نصيباً مفروضاً. ولأضلَّنَّهم ولأمنينَّهم ولآمرنَّهم فليبتِّكنَّ آذانَ الأنعام﴾** [النساء ١١٧ - ١١٩]. **﴿قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطَكَ المستقيمَ، ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرينَ﴾** [الأعراف ١٦ - ١٧].

وهذا الضعف الإنساني إن لم يقم الأخيار بالتذكير بالحق والوقوف في وجه الانحراف أدّى إلى الوقوع في الضلال ومجانبة السبيل السويّ... وكانت عندئذ الكارثة. ومن هنا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة التقويم، وأداة صيانة الأمّة من السقوط.

قال ابن الجوزي: [اعلم أن الطباع لما خلقت مائلة إلى حب الشهوات المردية، والبطالة المؤذية، افتقرت إلى مقوم ومثقف ومحذر يرد، فهي في ضرب المثل كالماء يجري بطبعه، فإذا رُدَّ بسكر وقف عن جريانه، ثم أخذ يعمل في فتح طريق. فكما ينبغي أن يتعاهد ذلك السكر بالإحكام فكذلك ينبغي أن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تتعاهد الطباع بالزواجر، ولا ينبغي أن يطول أمر التعاهد، فإن عمل الماء في باطن السكر دائم وإن خفي، وكذلك الطباع في ميلها إلى ما يؤذيها، ولهذا بعث الأنبياء بالترغيب والترهيب، وأنزلت عليهم الكتب للتثقيف والتأديب فما زالوا مبشرين ومنذرين. ثم خلفهم العلماء...][1].

والذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة أنّ تقويم الانحراف والأمر بالخير مرتبط بالإيمان.

فالآية الكريمة تصف المؤمنين والمؤمنات بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وجاء في حديث ابن مسعود أنّ النبي ﷺ قال:

«ما من نبيّ بعثه الله في أمته قبلي إلاّ كان له من أمته حواريّون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم يخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون.

فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن. ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن.

ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن.

وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» رواه مسلم[2].

أرأيتم كيف ربط هذا الحديث تقويم الانحراف بالإيمان، ونفى وجود أقلّ أثر من الإيمان عمّن لا يكون في قلبه مجاهدة للمنحرفين وإنكار لما يكون منهم من منكر.

إن هذا الربط بين الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليرفع من شأن هذه الخصلة الكريمة في أنظار المؤمنين الذين يتدبرون كلام الله وحديث رسوله.

وإن هذا ليضع أيدينا أيضاً على صورة مجسدة مؤلمة لواقع كثير من

(١) كتاب القصاص والمذكرين بتحقيقنا ص ١٧٧.
(٢) صحيح مسلم برقم ٥٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المسلمين الذين ينغمسون في المنكرات، وتعجُّ مجتمعاتهم بها، ومع ذلك فلا يحسون بها، ولا يشعرون نحوها بأي كراهية أو إنكار.

إنها صورة رجال ليس في قلوبهم مثقال حبة خردل من إيمان... وإنها لصورة مذهلة، ينخلع لها قلب كل غيور.

إنَّ هذا ليدعونا حقاً إلى أن نوقظ شعلة الإيمان في قلوبنا، وإلى أن نعمل على تنمية هذا الإيمان بكل ما نستطيع، لنكون أهلاً لنصرة الله التي وعد بها المؤمنين في قوله ﴿وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنينَ﴾ [الروم ٤٧].

إنّ علينا أن نسارع إلى علاج هذا التخلف الرهيب في مستوى الإيمان، ومن أهم وسائل العلاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فما أكثر ما يقوى المرء على أن يغيّر المنكر بيده إذا ما رأى منكراً في دائرته أو بيته، ومع ذلك فلا يغيره. وذلك من ضعف الإيمان.

وما أكثر ما يتاح للمرء أن يقول كلمة خير لا تكلفه شيئاً من جهد أو مال أو وقت، ومع ذلك فإنّ من الناس من لا يقولها. وذلك من ضعف الإيمان.

إن الكلمة ميسور قولها الآن لكل من رأى منكراً إن كان هو يريد أن يقولها، فرسالة في البريد تكتبها وأنت تريد وجه الله تنصح بها أخاك وتذكره بالله وتأمره بالخير يمكن أن تغيّر مجرى حياة إنسان وقد يكون في ذلك نفع لعموم المسلمين. وتركها من ضعف الإيمان. وهذان أمران يمكن أن يحققهما كثير من الناس. أما الإنكار بالقلب الذي لا يسيطر عليه أحد، ولا يطلع عليه سوى الله، فليس لمسلم عذر في ألاّ ينكر المنكر في قلبه ما دام في وعيه وفكره. وهكذا فإنَّ الأمر بالمعروف ومجاهدة أهل المنكر لا يعفى منه أحد من المؤمنين.

نسأل الله أن يزيد في إيماننا حتى ننكر المنكر ونجاهد أهله بما نستطيع، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الدين كله كما جاء في الحديث الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم(١). والشاهد في مطلع الحديث الشريف حيث جعل رسول الله ﷺ الدين هو النصيحة. وَبَيَّنَ باقي الحديث عموم النصيحة وشمولها.

وهي من مُقْتَضَيَات الأخوة الصادقة التي تجعل المسلم إذا رأى العيب وضّحه وكشفه لأخيه ليتركه ويتجنبه. وهذا هو ما يدل عليه الحديث الآخر وهو قوله ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن»(٢) وهكذا كان السلف الصالح يُهدي أحدهم لأخيه عيوبه.

وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جزءاً من البيعة، كما في حديث عبادة بن الصامت الذي رواه البخاري ومسلم والذي يقول فيه:

بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة... وعلى أن نقول الحقَّ أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم(٣).

ولولا أن تكون هذه الخلة الكريمة من دعائم الدين المهمة لما كانت جزءاً من البيعة، ولما كانت مماثلة للصلاة والزكاة كما في حديث جرير بن عبدالله الذي يقول فيه:

بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم(٤) ولذلك فقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طاعة يثاب عليها المسلم، وقد عدّها رسول الله ﷺ تارة صدقة كما في حديث مسلم المشهور:

---

(١) مسلم برقم ٥٥ وأبو داود ٤٩٤٤ والنسائي ١٥٦/٧. والترمذي ١٢٣/٣ ومجمع الزوائد ٨٧/١.

(٢) أبو داود ٣٨٥/٤ والترمذي ١٢٤/٣ والسنن الكبرى ١٦٧/٨ والمجمع ٢٦٤/٧ والأدب المفرد ٣٧ والحديث صحيح.

(٣) البخاري فتح الباري ١٩٢/١٣ ومسلم برقم ١٧٠٩ والنسائي ١٣٧/٧ وابن ماجه برقم ٢٨٦٦.

(٤) مسلم برقم ٥٦ والبخاري (فتح الباري) ١٣٧/١ و٢٦٧/٣ وأبو داود ٤٩٤٥ والنسائي ١٥٢/٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة»[1] وعدَّها تارة أخرى صلاة كما في حديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال:

على كل ميسم من الإنسان صلاة كل يوم» وفي هذا الحديث جاء قوله ﷺ: «أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة» رواه ابن خزيمة. والصدقة والصلاة ركنان من أركان الإسلام.

وترك الدعوة إلى الله والإرشاد والتوجيه سبب البلاء يصيب المجتمع كله ولا يخصّ المذنبين والعصاة بأعيانهم؛ ذلك لأنَّ المسؤولية يوم القيامة فردية على الفعل، ولكنَّ البلاء في الدنيا يعمّ. وهذا ما دلت عليه نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة:

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**واتقوا فتنةً لا تُصِيبَنَّ الذينَ ظلموا منكم خاصةً واعلموا أنَّ اللهَ شديدُ العقابِ**﴾ [الأنفال ٢٥].

ومن ذلك حديث عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم» قالت عائشة: قلت: يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: «يخسف بأولهم وآخرهم ثمّ يبعثون على نياتهم» متفق عليه[2]. وهذا لفظ البخاري.

ومن ذلك حديث أبي بكر الذي يقول فيه:

يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلَّ إذا اهتديتم**﴾ [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» رواه أحمد وابن حبان وأبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة[3].

---

(١) مسلم برقم ١٠٠٦ وورد في حديث لمسلم أيضاً برقم ٧٢٠.

(٢) البخاري الفتح ٣٣٨/٤ ومسلم برقم ٢٨٨٤.

(٣) أبو داود برقم ٤٣٣٨ والترمذي ط دعاس ٢١٦٩ و٣٠٥٩ وأحمد ٢/١ وابن ماجه ٤٠٠٥ وموارد الظمآن ١٨٣٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن العقاب يقع على الظالم لظلمه وعلى الناس الذين أقروه عليه إن كانوا قادرين على منعه ولم يفعلوا.

إن الظالم عندما يتلقى الإنكار والتسخط من كل الذين هم حوله لا يمكن أن يستمر في ظلمه. وما أجمل قول القائل:

أنصفت مظلوماً، فأنصف ظالماً ... في ذلة المظلوم عذر الظالم
من يرض عدواناً عليه يضيره ... شرٌّ من العادي عليه الغانم[1]

وهذا إن كان قادراً على الأخذ على يد الظالم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

إنَّ الظالم عندما يرى تأييداً من الناس الذين لم يقع عليهم ظلمه يتمادى في غيه ويُسرف في عدوانه، وربما لحق ظلمه أولئك الذين أيدوه في يوم من الأيام ووقع عليهم ما وقع على المظلومين السابقين.

وهذا ما نراه اليوم في المجتمعات التي تنكبت سبيل الإسلام بعد أن كانت تنعم في ظلاله قروناً وقروناً... إنها تعيش جحيماً لا يطاق من الويلات والنكبات، والقلق والاضطهاد، والخوف من العدوان على الأموال والأرواح والأعراض ومن هنا فقد جعل رسول الله ﷺ أفضل الجهاد قول كلمة الحق للحكام الظالمين، والجهاد ذروة سنام الإسلام ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ وهذا يبين رتبة هذا النوع من أنواع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحقاً إن هذه المواقف الجريئة من أفضل أنواع الجهاد، لأنَّ المقدم عليها يجود بنفسه غالباً وهو أعزل.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النَّبيّ ﷺ قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[2] وعن طارق بن شهاب رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ وقد وضع رجله في الغرز: أي الجهاد أفضل؟ قال: «كلمة حق عند سلطان جائر»[3].

(١) ديوان من دواوين لعباس محمود العقاد ص

(٢) أبو داود ٤٣٤٤ وابن ماجه ٤٠١١ والترمذي ط دعاس ٢١٧٥.

(٣) النسائي ١٦١/٧ قال النووي: رواه النسائي بإسناد صحيح. والغرز: ركاب كور الجمل.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ : «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»(١).

ولقد حفل تاريخنا بنماذج من الأبطال الشجعان الذين يقولون كلمة الحق لا يخشون في الله لومة لائم وقد فاز بعضهم بالشهادة من أجل تلك الكلمة واذكر فيما يأتي بعض الأمثلة(٢).

روى مسلم أن عائذ بن عمرو رضي الله عنه دخل على عبيدالله بن زياد فقال:

أي بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن شر الرعاء الحطمة» فإياك أن تكون منهم فقال له: اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ . فقال: وهل كانت لهم نخالة؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم(٣).

ومن ذلك قصة الأوزاعي وحواره مع الأمير العباسي الذي فتك بالأمويين(٤).

وقصة أحمد ومحنته بحمله على القول بخلق القرآن وثباته العظيم(٥).

وقصة ابن تيمية مع نائب قلعة دمشق، وكلامه القوي الذي وجهه لقازان، وكذلك للملك الناصر محمد بن قلاوون(٦).

وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب العقوبة وعدم الاستجابة كما في حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله

---

(١) رواه الحاكم ٣/١٩٥ والضياء وانظره في صحيح الجامع برقم ٣٦٧٥.

(٢) وقد جمعتُ طائفة من أخبار هؤلاء الرجال في كتاب أرجو أن أقدمه للطبع قريباً.

(٣) مسلم ١٨٣٠. ومسند أحمد ٥/٦٤ ج ١٠ ص ١١٨ وتذكرة الحفاظ ١/١٨٠ والجرح والتعديل ١/٢١١.

(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير.

(٥) انظر طبقات الحنابلة والبداية والنهاية.

(٦) انظر المقدمة التي كتبتها لرسالة أحاديث القصاص لابن تيمية ص ٤٦ - ٤٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم تدعونه فلا يستجيب لكم» رواه الترمذي[1].

وكما في حديث النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها. فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا.

فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» رواه البخاري والترمذي[2].

وهذا الحديث يدل على أنّ الأمر بالمعروف وقاية للمجتمع من أسباب الهلاك والانحراف وأن حرية المرء محدودة بمصالح الآخرين فليس هناك حرية مطلقة، وأن المجتمع متضامن إذا كثر الخبث فيه هلك. فقد سألت أم المؤمنين زينب رسول الله ﷺ: أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟

قال: «نعم إذا كَثُرَ الخبث»[3].

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهمة الأنبياء والعلماء، وبه تكون النجاة من عذاب الله. قال تعالى:

﴿فلمّا نَسوا ما ذكروا به أنجيْنا الذينَ ينْهَوْن عن السوء وأخذنا الذينَ ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون﴾ [الأعراف ١٦٥].

وبتركه تكون اللعنة كما ذكر ربنا تبارك وتعالى:

﴿لُعِنَ الذينَ كَفَروا من بني إسرائيلَ على لسانِ داود وعيسى بن مريمَ ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدونَ. كانوا لا يتناهَوْنَ عنْ منكرٍ فعلوهُ لبئسَ ما كانوا يفعلون. ترى كثيراً منهم يتَوَلَّوْنَ الذين كفروا لبئس ما قدَّمت لهم

(١) الترمذي ط دعاس برقم ٢١٧٠.

(٢) البخاري ١٢١/٣و(فتح الباري) ١٣٢/٥ و٢٩٢ والترمذي ٢٠٩/٣.

(٣) البخاري (فتح الباري) ٣٨١/٦و١١/١٣ ومسلم برقم ٢٨٨٠ وأحمد ٤٢٨/٦ و٤٢٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أنفسهم أنْ سَخِطَ اللهُ عليهم وفي العذاب هم خالدون. ولو كانوا يؤمنونَ بالله والنبيِّ وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون﴾ [المائدة ٧٨ - ٨١].

قال ابن كثير:

[يخبر تعالى أنه لعَنَ الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى بن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه].

ومن مظاهر اللعنة النازلة بالمجتمعات التي لا يتناهى أفرادها عن المنكرات اضطرابُ الأمن، وسيطرةُ القلق على النفوس، وانتشارُ الفواحش، وفشوّ الجرائم، وظهورُ الأمراض والأوجاع، وتسلطُ الظلمة على جماهير الناس يسومونهم سوء العذاب.

وكثيرٌ من مجتمعات المسلمين اليوم ظهرت فيها المنكرات، واستعلنت فيها الآثام، وقلَّ فيها الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر. فكان واقُعها واقعاً مؤلماً وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وإذا كنا نتطلع اليوم إلى نهضة إسلامية، وصحوة إيمانية، ويقظة فكرية، فما أجدرنا بأن نحيي هذه السنة الكريمة، فيكون التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر شعارنا.

وإمكانياتُ النجاح متوافرةٌ اليوم، وربما لا تكون كذلك غداً. والعاقل من يغتنم الفرصة قبل فواتها.

إننا مطالبون للقيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن نزداد علماً بحقائق هذا الدين وأحكامه، وأن يكون منا تصميمٌ صادق لإعلاء كلمته، وخدمة حملته، وإخلاص النية في ذلك، وعملٌ دائب لإحياء طريقته، واختيارُ أحسن السبل والوسائل في إبلاغ الناس ودعوتهم.

يجب أن ينبه المسلمون إلى مواطن الخطر في حياتهم، وإلى نقاط الضعف وأن يذكر الغافل، وينصح العاصي، ويكافأ المحسن.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يجب أن يكون المسلمون بعضهم لبعض نصحة.

لا يجوز أن نرى الشهوات والأهواء تغتال أبناءنا أمام أعيننا ثم لا نحسّ بمسؤوليتنا نحوهم.

يجب أن يكشف الدجل، وأن تنزع الأقنعة، وأن نسلك إلى التوعية الطريق الأقوم.

إن مهمة المسلم أن يستجيب لله، وأن يحيا الحياة الإسلامية التي أراد الله له أن يحياها، ولن يحياها إلا في وسط إسلامي يطبق الإسلام، ولا يكون ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... الأمر بالقيام بالواجبات، والنهي عن المحظورات. ومن عظمة هذا الدين صلاحيته للحياة ويسره، فالحلال بيّن والحرام بين، وكتابُهُ ميسر لمن يريد أن يذكر ﴿**ولقد يَسَّرنا القرآن للذكر فهَلْ من مدَّكر**﴾ [القمر: ٢٢]، فلا يجوز أن نتردد في قول الكلمة الطيبة على الوجه المناسب.

يا أخي إذا رأيت مسلماً يرتكب مخالفة شرعية فعليك أن تُنَبِّهَهُ إلى هذه المخالفة بالأسلوب الحسن.

إننا ـ لو فعلنا ذلك ـ نباعد بين مجتمعنا وبين حلول لعنة الله، وإننا بذلك أيضاً نأخذ العبرة من قصة كفار بني إسرائيل الذين كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

وإذا أصبح التناهي عن المنكرات سجية لأفراد الأمة كان ذلك ضغطاً اجتماعياً على العصاة المنحرفين.. إذ سيواجه العاصي بالإنكار من كل إنسان يلقاه، فهو عندئذٍ سيترك المنكر ليتخلص من انتقاد المنتقدين وسؤال السائلين، ونصح الناصحين، ولأضرب على ذلك مثلاً لو أنّ إنساناً جاهر بمعصية ومشى في الطريق في مجتمع إسلامي يلتزم أفراده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسيستوقفه أول إنسان يمر به وينكر عليه اقترافه للمعصية وينبهه إلى أن هذا لا يليق بالمسلم، ويجري بينهما حوار... ثم يمضي كل في سبيله... فيلقاه آخر وينكر عليه ما يراه من تلبسه بهذه المعصية... ثم يلقاه ثالث ورابع...

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعاشر.. يسمع منهم إنكار المنكر على أساليب مختلفة تتفاوت فيما بينها تبعاً لمستوى كل واحد منهم ومزاجه وطريقة تعامله مع الناس. إنه ـ ليتخلص من هذا الضغط ـ سيترك المنكر.

إنّ مجتمعاً يتصف أفراده بهذه الصفة تصبح فيه المعاصي كلها منكرة مجهولة لا يعرفها أحد، بينما تكون الطاعات كلها معروفة لا يجهلها أحد. ونجد ما يشبه هذا في بعض الدول. إذا خالف إنسان قواعد المرور والنظافة قابله من يراه من الناس بالاستنكار والاستهجان، وأطلقوا منبهات سياراتهم احتجاجاً عليه ورفعوا أصواتهم سخطاً لفعله.

إن واقع المسلمين يتصف بالضعف والتخلف والجهل، وإنهم يشكلون قوة بشرية هائلة، ويملكون ثروات وكنوزاً عظيمة، وتقع بلادهم في موقع استراتيجي مهم، وينحدرون من أمة مدَّنتِ الدنيا وأقامت للإنسانية حضارة خالدة... فلماذا صاروا إلى ما صاروا إليه؟

إنّ أسباب ذلك كثيرة[1] ويمكن أن نضعها في زمرتين اثنتين:

إحداهما تعود إلى المسلمين أنفسهم، وذلك عندما بعدوا عن دينهم، وقد بدأ البعد عن الدين شيئاً فشيئاً.. فلم يلقوا من يقوّم عوجهم وينكر عليهم صنيعهم ويذكرهم بالحق... وما زالوا كذلك حتى صاروا إلى هذا الواقع الأليم. إن بعدهم عن دينهم أورثهم الضعف والجهل والانحطاط.

وثانيتهما تعود إلى أعدائهم الذين بدأ كيدهم منذ أن قام الإسلام وما زال هذا الكيد يتعاظم ويتخذ له أسلحة الفكر والشهوة والقوة والحديد والنار.

إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يردّ على الأمة معالم من أصالتها ومقومات من مقوماتها، وعندئذٍ تعود إلى سالف مجدها. وتعود من جديد إلى حمى الإسلام، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ألا وهو الدين.

(١) وقد تقدم تفصيل ذلك قبل صفحات.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفات الإنسان الذي يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لا ينبغي أن يقتصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على فئة انتدبت نفسها لذلك محتسبة أجرها عند الله، أو أقامتها الدولة. بل إنَّ كل مسلم علم شيئاً من أمر دينه مُطَالَبٌ أن يذكر به آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر.

إن قيام جماعة لهذه المهمة شيء طيب، ولكن وجودها لا يعفي المسلمين من واجب النصح والتحذير والتذكير.

إننا لنقرأ في كتاب الله ﴿**ولتكن معكم أمةٌ يَدْعونَ إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾ [آل عمران ١٠٤] ونقرأ أيضاً ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾[التوبة ٧١].

ونجد في السنة أن رسول الله ﷺ ندب الذين يجلسون في الطريق أن يعطوا الطريق حقه وعندما سألوه عن حق الطريق قال ﷺ :

«غض البصر، وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1] رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود.

أما الصفات والأحوال التي لا بدَّ من توافرها في الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر فهي كثيرة أهمها:

(١) أحمد ٣/٣٦ و٤٧ والبخاري (فتح الباري) ٥/١١٢ومسلم برقم ٢١٢١ وأبو داود برقم٤٨١٥ وابن حبان برقم ١٩٥٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١ ـ أن يكون خالص النية، لا يقصد إلا وجه الله. لا يريد علواً ولا استكباراً على من يأمره وينهاه.

وعندما يكون كذلك يخف وقع كلامه على السامع، ويكون هذا أدعى للاستجابة والانصياع. ذلك لأن هناك قوماً ممن يتصدون لهذا العمل إذا أمروا بالمعروف تكبروا وتعالوا، فلا ينتفع منهم أحد ولا يحصلون على نتيجة في عملهم.

٢ ـ أن يكون سلوكه مصدقاً لقوله:

لأن الدعوة بلسان الحال أبلغ من لسان المقال. ويقول الله جل جلاله: **﴿يا أيها الذينَ آمنوا لم تقولون ما لا تفعلونَ كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلونَ﴾** [الصف ٢ ـ ٣].

ويقول: **﴿أتأمُرونَ الناسَ بالبر وتنسون أنفسكُم وأنتم تتلونَ الكتابَ أفلا تعقلونَ﴾** [البقرة: ٤٤].

وعليه أن يستحضر عقوبة الذين يخالف فعلهم قولهم من نحو قوله ﷺ «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى فيجتمع إليه أهل النار.

فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟

فيقول: بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه» رواه البخاري ومسلم[1].

والأقتاب: الأمعاء. وتندلق: تخرج.

ومن نحو قوله ﷺ:

«مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه» رواه الطبراني وغيره[2].

٣ ـ أن يكون عالماً بالأمر الذي يدعو إليه. وهذا أمر في غاية الأهمية

(١) أحمد ٥/٢٠٥ و٢٠٦ و٢٠٧ و٢٠٩ والبخاري (فتح الباري) ٦/٣٣١ ومسلم ٢٩٨٩.
(٢) انظر كتابي الحديث النبوي ص ٦٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فربما أمر الجاهل بشيء أو أنكر شيئاً والشرع لا يقره في الأمر والانكار، ولذا كان واجباً على الذي لا يعلم أن يسأل ويتعلم قبل أن يتصدى للأمر والنهي. وعليه أن يتعرف على منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ويتأسى بهم، فقد ذكر القرآن في قصصهم طريقتهم في الدعوة وأسلوبهم ولا سيما إبراهيم ويوسف وموسى صلوات الله عليهم جميعاً.

٤ ـ أن يكون على معرفة تامة بالوسط الذي يعمل فيه، حتى لا يكون أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر يؤدي إلى فتنة تراق فيها الدماء ويحصل بسببه منكر أكبر.

٥ ـ أن يكون أسلوبه حسناً، يسلك في أمره ونهيه مسلك اللطف وحسن التأتي للأمر.

يقول تعالى: **﴿ادْعُ إلى سبيل ربِّكَ بالحكمة والموعظة الحَسَنة وجادِلْهم بالتي هي أحسن﴾** [النحل ١٢٥].

كان مصعب بن عمير يعلّم الأوس والخزرج الاسلام، ويؤمهم في دار أسعد بن زرارة فلما علم بذلك أسيد بن حضير وسعد بن معاذ اتفقا على أن يذهب أسيد ليُهَدِّدَ القوم ويزجرهم، فلما جاءهم قرأ عليه مصعب آيات من القرآن فأسلم. فذهب واحتال على سعد ليأتي فيسمع الذي سمع، وعند ذلك يسلم سعد أيضاً، وينادي قومه بني عبد الأشهل: «كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله» فما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة.

وقصة الطفيل بن عمرو في دعوته قومه معروفة[1].

ويقول تعالى:

﴿فبما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ولَوْ كُنْت فظّاً غليظَ القلب لانفضُّوا من حَوْلِكَ فاعفُ عنهم واستغفرْ لهم وشاوِرْهُمْ في الأمر فإذا عزمتَ فَتوكَّلْ على الله إنَّ اللهَ يحبُّ المتوكلين﴾ [آل عمران ١٥٩].

(١) انظرها في كتاب «من صفات الداعية».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هذا خطاب من الله إلى سيد الأنبياء والمرسلين المؤيد بالعصمة، فيه عظة كبرى لمن يتصدون لمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فبرحمة من الله كان ﷺ ليناً مع قومه. ولم يكن فظاً ولا غليظاً، ولو كان كذلك لانفض أصحابه من حوله.

ثم أوصاه الله بأن يعفو عنهم وأن يستغفر لهم وأن يشاورهم.

تحدثنا كتب السيرة أن رسول الله ﷺ اعتق زيد بن حارثة وتبناه قبل إبطال التبني، وكان حِبَّه ومولاه، فلما جاء أبوه يطلبه من رسول الله ﷺ لم يمتنع عن الاستجابة لطلبه، ولكنه ترك الخيار لزيد، ويقول زيد: ما كنت لأختار أحداً على رسول الله ﷺ. لقد فضل البقاء عند الرسول على الذهاب مع أبيه وأهله. إن المعاملة الحسنة من الداعية تجعله يملك قلوب الناس وتحملهم على حبه والتعلق به.

ويقول ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[1] فلماذا ينسى الدعاة هذا المبدأ العظيم.

لقد سبق في علم الله أن فرعون لن يهتدي ولن يتذكر ولن يخشى ومع ذلك فعندما أرسل إليه هارون وموسى قال لهما: ﴿**اذهبا إلى فرعون إنَّه طغى. فقولا له قولاً ليّناً لعلَّه يتذكر أو يخشى**﴾ [طه ٤٣ - ٤٤]. فليتدبر الآمر بالمعروف هذا المعنى حق التدبر.

وكان تطبيق رسول الله ﷺ لهذا المبدأ في حياته على أفضل وجه وأشير إلى بعض القصص الثابتة في السنة من نحو قصة الصحابي معاوية بن الحكم الذي تكلم في الصلاة واشتد الصحابة في الانكار عليه ثم علمه النبي وتلطف في بيان الأمر له[2]، وقصة الأعرابي الذي بال في المسجد[3].

---

(١) رواه مسلم من حديث عائشة برقم ٥٥٩٤.

(٢) رواه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي برقم ٥٣٧ وأبو داود برقم ٩٣٠ قال معاوية: فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس...» إلى آخر الحديث.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة قال: بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه فقال =

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومما يتصل بهذا المعنى أنّ على الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يبدي لمن يدعوهم من وسائل التحبب ما يدعوهم إلى الاستجابة لنصحه.

٦ ـ وعليه أن يختار الوقت والمكان المناسب.

فلا ينصح امرءاً، بل ينتظر حتى يسكت عنه الغضب ثم يأمره وينهاه ولا ينصحه في ملأ إن أمكن أن ينصحه في السرّ.

٧ ـ أن يقدم الأهم على المهم، ويفرق بين الكبائر والصغائر، والفرائض والمندوبات، لأن الواجبات درجات والمنكرات درجات، والمبالغة في أمر قد تؤدي إلى عكس المطلوب.

٨ ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يختلف باختلاف الآمر.

فإن كان حاكماً أو والداً أو مديراً استطاع أن يزيل المنكر بيده.

فقد رأى رسول الله ـ وهو ولي الأمر ـ رأى خاتماً من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه وقال: يعمد أحدكم إلى جمرة من جهنم فيضعها في يده» فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ خذ خاتمك انتفع به. قال: لا والله لا آخذه أبداً وقد طرحه رسول الله ﷺ رواه مسلم[1]. وفي هذه الحادثة دروس وعبر منها أن رسول الله وهو ولي الأمر عندما رأى منكراً غيره بيده، واتبع ذلك بالبيان الواضح والترهيب المخيف والموعظة المؤثرة عندما قال: أيعمد أحدكم إلى جمرة من جهنم فيضعها في يده.

ومنها هذه الاستجابة الكريمة من ذاك الرجل وتركه خاتم الذهب في الأرض بعد أن ألقاه رسول الله ﷺ.

وإن كان عالماً أو كاتباً أو إعلامياً استطاع أن ينكر المنكر بلسانه، وإن كان عاجزاً عن التنفيذ والقول، فلا بد من إنكاره في القلب. وهذا أضعف

= النبي ﷺ: «دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء فإنكم بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» انظر الفتح ١/٢٧٨ ـ ٢٧٩.

(١) مسلم ٢٠٩٠.

شبكة الألوكة ـ قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإيمان «من رأى منكم منكراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان»[1].

٩ ـ وعليه أن يصبر على ما يلقاه في سبيل ذلك وأن يحتسب ذلك عند الله.

وقصة صبر آل ياسر قصة ذائعة مشهورة، وكذلك قصة بلال، ولقد أخذ مسيلمة الكذاب الحنفي صاحب اليمامة حبيب بن زيد فجعل يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع.. فجعل يقطعه عضواً عضواً حتى مات في يده.

١٠ ـ وعلى الآمر بالمعروف أن يصمم على متابعة الطريق مهما لقي من عقبات، ولا بدَّ أن يلقى عقبات، وله أيضاً في ذلك أسوة برسول الله ﷺ عندما حاول عمه أبو طالب أن يثنيه عن عزمه فقال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري....».

إن هذا الموقف ثمرة من ثمرات الايمان لا بدَّ لمن يريد تحقيق مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أن يسلكه.

عندما عاد عثمان بن مظعون رضي الله عنه من الحبشة دخل بجوار الوليد بن المغيرة، ولكنه بعد مدة لم يسرّه أن يكون آمناً وإخوانه يعذبون، فردّ على الوليد جواره وأحب ألا يستجير بغير الله، وحدث بعد ذلك أن جلس مع لبيد وردّ عليه، فقام إليه رجل ولطمه على عينه. فقال الوليد بن المغيرة: أما والله إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة.

فقال عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر.

بحث العلماء قديماً وحديثاً هذا الموضوع وألفوا فيه المؤلفات الخاصة، وذكروه في ثنايا كتبهم الأخرى فمن هؤلاء الإمام النووي:

(١) مسلم برقم ٤٩ وأبو داود برقمي ١١٤٠ و٤٣٤٠ والترمذي ط دعاس برقم ٢١٧٣ والنسائي ١١١/٨ وابن ماجه برقم ٤٠١٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تكلم الإمام النووي كلاماً جيداً وعميقاً عن هذا الموضوع في كتابه «الروضة»[1] فقد ذكر أن المراد منه الأمر بواجبات الشرع والنهي عن محرماته. وذكر أنه فرض كفاية.

ونقل عن الماوردي تقسيمه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثلاثة أقسام:

١ ـ ما يتعلق بحقوق الله وهو نوعان:
١ـ يؤمر به الجميع كإقامة الجمعة.
٢ ـ يؤمر به الآحاد كأمر المتأخر في الصلاة.

٢ ـ ما يتعلق بحقوق الإنسان وهو نوعان:
١ ـ عام كالبلد إذا تعطل شربه.
٢ ـ خاص كمطل المدين الموسر.

٣ ـ الحقوق المشتركة كأمر الأولياء بإنكاح الأكفاء.

ثم تحدث النووي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فذكر أنه من أعظم قواعد الإسلام، ولا يسقط عن المكلف لأنه يظن أنه لا يفيد..

وليس الواجب عليه أن يقبل منه، بل واجبه أن يقول كلمة الحق بالأسلوب المناسب. والله يقول ﴿**ما على الرسول إلا البلاغ**﴾ وأفاض في هذا الموضوع فليرجع إليه.

وردّ القارئ إلى أنه تعرض لهذا الموضوع في كتاب الغصب وكتاب الصيال وتعرض إلى موضوع التجسس. هل للآمر بالمعروف أن يتجسس. وفرق في الحكم بين حالات.

وقال أخيراً: [واعلم أنه لا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بأن يخاف منه على نفسه وماله أو يخاف على غيره مفسدة أعظم من مفسدة المنكر الواقع].

---

(١) الروضة ١٠/٢١٧ ـ ٢٢١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وبحث النووي أيضاً هذا الموضوع بحثاً متكاملاً في شرح صحيح مسلم[1] فليرجع إليه فإنه بحث نفيس.

(١) شرح مسلم ٢/٢٢ - ٢٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دَورُ العُلمَاء في الدعوة إلى الله

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الرد على المنحرفين وقول الحق منجاة من اللعن

إن كشف عوار الاتجاهات الهدامة، وبيان بطلانها أمر مهم بالنسبة إلى الأوساط التي تتعرض لدعايات تلك الاتجاهات، فالمغالطة، واستغلال جهل الناس وسذاجتهم، والبيان الساحر الذي قد يملكه بعض دعاة الباطل ووسائل الإعلام المؤثرة من إذاعة وتلفاز وصحافة المسخرة لتأييد تلك المبادئ... كل هذا يقضي بأن يتصدى الدعاة إلى دراسة الأفكار المنحرفة والردّ عليها بموضوعية واعتماد على الحقائق وبأسلوب حسن حكيم. ولا بد من أجل الوصول إلى هذا الهدف من معرفة هذه الأفكار ودراستها في كتب أهلها...

ولقد كان أئمة الدعاة من رجالاتنا يسيرون على هذا النهج السويّ... فابن تيمية مثلاً كان واقفاً على حقيقة الدعوات الباطلة التي كانت في زمانه، وقد ألف في هذا كتباً.

من أهم هذه الكتب كتاب منهاج السنة الذي ردّ فيه على الرافضة، ومنها كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ومنها كتاب درء تعارض العقل والنقل فقد أبطل في هذه الكتب شبهاتهم، وكشف عن ضلالهم وحذر من الانخداع بهم.

وهكذا يبدو لنا أنه لا بد من الرد على المنحرفين وابطال شبهاتهم وقول الحق.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال الله تعالى:

﴿إنَّ الذين يَكتُمونَ ما أَنْزَلنا من البيّنات والهُدى من بعد ما بيَّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ [البقرة ١٥٩ - ١٦٠].

إن هذه الآية تهديد مخيف للذين يكتمون العلم وهم يرون انحراف الناس عن الجادة، وحيرتهم في سلوك الطريق المستقيم، إننا لنقرأ في الصحف والمجلاّت، ونسمع من الإذاعات كلاماً كثيراً، فيه الخطأ وفيه الصواب، لأنَّ قائليه بشر مركبون على الضعف **﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾** [النساء:٢٨] ومع ذلك فإنّ كثيراً من الذين ائتمنهم الله على العلم إما أن يسكتوا عن قول الحق إيثاراً للسلامة وبعداً عن الوقوع في الخصومة، وإما أن يجاملوا المنحرفين، بتهوين خطئهم وانحرافهم. إن هذه الآية صرخة في وجوههم أن أفيقوا وانتبهوا. إنّ المصير الأسود الذي ينتظر هؤلاء المجاملين الجبناء هو الطرد من رحمة الله **﴿إنَّ الذينَ يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهُدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنونَ﴾** [البقرة: ٥٩] واللجام الناريّ المخيف يوم القيامة كما يقول رسول الله ﷺ:

«من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار»(١).

ولقد قصَّ الله علينا ما جرى للأمم السابقة التي سكت علماؤها عن قول الحق إيثاراً للسلامة أو الكسب الماديّ كيف عمتها اللعنة وحاق بها الخسران كما قال تعالى:

﴿لُعِنَ الذينَ كفروا من بني إسرائيلَ على لسانِ داودَ وعيسى بن مَرْيم ذلك بما عَصَوْا وكانوا يَعْتدون كانوا لا يَتناهَوْنَ عَنْ مُنْكَر فعلوه لَبِئْسَ ما كانوا يَفْعلونَ ترى كثيراً منهُمْ يتولّونَ الذينَ كَفَروا لَبِئْسَ ما قدَّمتْ لهم أنفسُهم أن سخطَ اللهُ عليهم وفي العذاب هُمْ خالدونَ. ولَوْ كانوا يُؤمنونَ

(١) رواه ابن حبان ٥٥ والحاكم وأبو داود ٤٣٧/٣٠ وابن ماجه ٩٧/١ والترمذي ٣٧٠/٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بالله والنبيّ وما أُنْزِلَ إليه ما اتَّخَذوهم أوْلياءَ ولكنَّ كثيراً منْهُمْ فاسِقونَ﴾ [المائدة ٧٨ - ٨١].

وهكذا نرى أن الآيات تربط هذا الموقف المتخاذل بالإيمان فلو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه لما كانت منهم هذه المجاملة ولما اتخذوهم أولياء.

إنه تهديد لكل الذين يعرفون أن الطريق الذي يسلكونه فيه انحراف ثم يخضعون لعوامل مصلحية أو عنصرية أو مالية أو قبلية، إنه العذاب الذي يخلدون فيه ﴿سخِطَ الله عليهم وفي العذاب هُمْ خالدون﴾.

وكما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا إنَّ كثيراً من الأحبار والرهبانِ لَيأكلونَ أموالَ الناسِ بالباطلِ ويصُدُّونَ عنْ سبيلِ الله﴾ [التوبة ٣٤] أما المسلمون فقد كانوا كما وصفهم ربنا تبارك وتعالى ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضُهُمْ أوْلياء بعضٍ يأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكر ويُقيمونَ الصلاةَ ويُؤتونَ الزكاةَ ويُطيعونَ اللهَ ورسولَهُ أولئكَ سيرحَمُهُمُ اللهُ إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ﴾ [التوبة ٧١].

لقد ربّى الإسلام أتباعه على أن تكون حاسّة النقد عندهم مرهفة فهم لا يقبلون الباطل الكبير ولا يقبلون المخالفة الهينة.

إن واحدهم عندما يواجه الشرك والكفر يقف الموقف الصلب الشديد الذي يطلبه منه هذا الدين... إنهم أشداء على الكفّار، يجد منهم أعداء الله الغلظة والشدة في الحق، وعندما يواجه المعصية ينكرها وكذلك عندما يواجه الأمر المكروه يعلن عن رأيه بالأسلوب الحسن الذي أوجبه الإسلام.

إنّ طريق الإسلام الذي سلكه الصحابة والتابعون طريق سوي لا لف فيه ولا دوران، ولا مواقف مختلفة باختلاف المصالح... إن الحق هو رائدهم وهو الذي يُحدّد لهم كل جوانب حياتهم.

لقد علَّم رسول الله ﷺ أصحابه أن ينكروا أي أمر مخالف لما علموه من هذا الدين، مهما كان قائله أو فاعله وألا يسكتوا عنه وفي الأحاديث

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصحيحة تصوير لهذا الواقع الإسلامي السليم يقول لهم رسول الله ﷺ وهو الذي هداهم الله به من الضلالة «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فلا يسكتون.. ولكن قائلهم يقول: يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً فبيَّن لهم ﷺ أن نصرة الظالم هي الأخذ على يديه وكفه عن الظلم، فهذه نصرته[1].

ويعجبني في هذا أيضاً ما سلكه علماؤنا الأقدمون الذين كان يرد بعضهم على بعض ولا تضيق صدورهم بهذا الردّ ولا يحقدون بل كانوا يسرون.

قال ابن قتيبة:

«فهؤلاء صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم وهم قادة الأنام، ومعادن العلم، وينابيع الحكمة، وأولى البشر بكل فضيلة، وأقربهم من التوفيق والعصمة، ليس منهم أحد قال برأيه في الفقه إلا وفي قوله ما يأخذ به قوم وفيه ما يرغب عنه آخرون.. وكذلك التابعون... ولا نعلم أنّ الله عزّ وجلّ أعطى أحداً من البشر موثقاً من الغلط وأماناً من الخطأ... ولا نعلمه خصّ بالعلم قوماً دون قوم، ولا وقفه على زمن دون زمن، بل جعله مشتركاً مقسوماً بين عباده، يفتح للآخر ما أغفله عن الأول، وينبه المقلّ منه على ما أغفل منه المكثر، ويحييه بمتأخر يتعقب قول متقدم... وأوجب على كل من علم شيئاً من الحق أن يظهره وينشره وجعل ذلك زكاة العلم... وقد يظن من لا يعلم من الناس ولا يضع الأمور مواضعها أن هذا اغتياب للعلماء وطعن على السلف... وليس ذلك كما ظنوا لأنّ الغيبة سبُّ الناس بلئيم الأخلاق، وذكرهم بالفواحش والشائنات، وهذا هو الأمر العظيم المشبه بأكل اللحوم الميتة. فأما هفوة في حرف أو زلة في معنى أو إغفال أو وهم أو نسيان فمعاذ الله أن يكون هذا من ذاك الباب أو أن يكون له مشاكلاً أو مقارباً، أو يكون

(١) انظر أمثلة أخرى في كتابي «الحديث النبوي» في الفصل الذي كتبته عن الحوار. والحديث المذكور رواه البخاري عن أنس ١١٢/٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المنبه عليه آثماً، بل يكون مأجوراً عند الله، مشكوراً عند عباده الصالحين»[1].

إذا كان علماؤنا المتقدمون لا يسكتون على هفوة في حرف أو زلة في معنى أو إغفال لأمر أو وهم أو نسيان فما بالنا ونحن نرى ما نرى ونسمع ما نسمع.

أليس هذا دافعاً لنا لنقول كلمة الحق، ونجهر بالرأي السديد المعتمد على الكتاب والسنة.

إنني أذكر نفسي وإخواني أن يتقوا الله في أنفسهم، وأن يحذروا ما هدّد الله به من آتاهم شيئاً من العلم. وأن يقولوا الحق بالأسلوب الحكيم الذي ينجي صاحبه من المسؤولية يوم القيامة، وقول الحق على هذا الوجه قد يهدي السامع وينبهه من الغفلة فكلمة الحق لها سلطان على النفس وأي سلطان.

(١) من مقدمة كتابه «إصلاح غلط أبي عبيد في غريب الحديث».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دعاة الشر..... والصراط المستقيم

الحقّ في صراعٍ مع الباطل منذ كانا في الوجود، وقد كان لكل منهما دعاة على مرّ العصور، وكانت المعركة قائمة بين الفريقين ﴿**الذين آمنوا يُقاتِلونَ في سبيلِ الله، والذينَ كفَروا يُقاتِلونَ في سبيلِ الطاغوتِ. فقاتِلُوا أولياءَ الشيطانِ إنَّ كَيْد الشيطانِ كانَ ضعيفاً**﴾ [النساء: ٧٦] ﴿**اللهُ وليُّ الذينَ آمنوا يُخرجهم من الظلماتِ إلى النورِ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوتُ يُخرجونهم من النورِ إلى الكلمات أولئك أصحابُ النارِ هُم فيها خالدون**﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وممّا يشرف أتباع الحق اليوم أنهم يقفون في صف كان فيه الأنبياء والرسل والصديقون والصالحون... الذين مضوا في طريق الله المستقيم لا يرومون بديلاً عنه، ولا يبغون إلا رضوان ربهم تبارك وتعالى.

ولقد كُذّبوا وعُذّبوا، واضطُهدوا وشُرّدوا، واستهزئ بهم وأوذوا، فصبروا وصابروا، واستمروا على الصراط السويِّ حتى لَقُوا ربَّهم وقد أعذروا ففازوا بالجنة، وذلك هو الفوز العظيم.

ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من أن تعصف بنا الأهواء فننحرف عن ذاك الصراط أو تقعد بنا المخاوف أو تصرفنا المغريات:

أخرج الإمام أحمد في مسنده[1] وابن ماجه في سننه[2] والحاكم في

(١) المسند ١/٤٦٥.
(٢) سنن ابن ماجه ١/٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مستدركه[1] عن ابن مسعود وأحمد أيضاً عن جابر أن رسول الله ﷺ خطَّ خطاً بيده هكذا أمامه - أي مستقيماً - ثم قال: «هذا سبيل الله» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السُبُلُ ليس منها سبيل إلاّ عليه شيطان يدعو إليه» ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم قرأ: ﴿**وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُلَ فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصَّاكم بـه لعلكم تتقونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ما أروعه من بيان اتخذ إلى التوضيح سبيل الرسم، فطريق الله مستقيم ولكنَّ السبل المتعددة عن يمينه ويساره كثيرة[2]، ويقف على رأس كل واحد منها شيطان يدعو إلى سبيله، ومن استجاب إلى واحد منها ضلّ الطريق وهلك الهلاك الحقيقي، وخسر الخسران المبين.

إنّ أمام الناس طريقاً مستقيماً هو سبيل الله، من سلكه وصَبَر على ما يلاقي في أثناء الطريق أصاب سعادة الدارين، وربما بدت السبل اليسارية واليمينية أكثر إمتاعاً وأشدّ جاذبية.. ولكنها تنتهي بسالكها والعياذ بالله إلى جهنم والعذاب المقيم. فاتقوا الله يا عباد الله واحذروا فتنة الشيطان وإغواءه، إذ قد حفت النار بالشهوات فاحذروا أن تحملكم اللذة العارضة والشهوة الخسيسة على ركوب المركب الصعب وسلوك الطريق المليء بالمخاطر، وربّ كاسٍ من السم مزخرفة من الخارج وضع فيها شيء من الحلو... تودي بشاربها وتنتهي به إلى الهلاك المحقق.

هناك سبيل مستقيم يدل عليه كتاب الله وسنة رسوله، وهناك سبل شيطانية منحرفة هدامة يقف على كل منها شيطان يدعو إليها، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟

ولقد زاد هذا المعنى توضيحاً حديث آخر صحيح أخرجه أحمد والترمذي والحاكم عن النواس بن سمعان أنَّ رسول الله ﷺ قال[3]:

---

(١) المستدرك ٢/٣١٨.

(٢) وما أجمل الإشارة في الحديث إلى اليمين واليسار اللذين أصبحا في عصرنا هذا اتجاهين هدامين.

(٣) انظر مسند أحمد ٤/١٨٢ وجامع الترمذي ٤/٣٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«ضرب الله مثلاً: صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاةٌ، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا هذا الصراط جميعاً ولا تتعوجوا، وداعٍ يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأباب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه.

فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم».

فلنتق الله، ولنستجب لكتاب الله ولواعظه الذي يناديا في قلوبنا، ويحذرنا بأننا إن فتحنا بابَ المعاصي ولَجْناهُ، وولوجه لا يقف بنا عند حدّ.

إن دعاة الشرّ والمعاصي في عصرنا أنواع منوعة، وقد سلحوا أنفسهم بكثير من الأسلحة التي لم تكن لسابقيهم فيما مضى، هناك الترغيب والترهيب والملاحقة والمطاردة والإلحاح، وهناك المغالطات واللف والدوران، وهناك إثارة الغرائز والبيان، ووسائل الإعلام المتعددة التي تتسلل إلى قلوب كثير من الناس ولا سيما السذج منهم، هناك الصورة والنغم والتعليق والخبر والتمثيلية والطباعة. وما إلى ذلك من الأسلحة الفتاكة التي يستخدمها في هذه الأيام أولئك الأشرار. ولعلّ من أخفى ألوان هذه الدعوات الباطلة تلك الدعوات التي تَلْبَسُ لَبوسَ العلم وتظهر بمظهر الدين والصلاح. وتعتمد على تحريف الكلم عن مواضعه، وتُلبِّس على الناس دينهم عن طريق تأويل النصوص على نحو يسلب الدين مضمونه، يفعلون ذلك بثرثرة وتشدق تجعل المرء الطيب العاديّ فيما يشبه الدوار.

روى مسلم أن حذيفة رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ قائلاً: فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال ﷺ: نعم. قلت: كيف؟ قال: «يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بِسُنَّتي، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس».[1]

(١) مسلم برقم ١٨٤٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أيها المسلمون

استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واستقيموا على الصراط المستقيم، واحذروا دعاة الشر مهما كان اتجاههم يساريين كانوا أم يمينيين، يهوداً أو نصارى شيوعيين، دجالين أو مبتدعين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مكانة العلماء

إنّ الحياة الكريمة الفاضلة للأمة لا تتحقق إلاّ بتوافر أمورٍ عدّةٍ، لعلَّ من أهمّها وجودُ قيادةٍ فكريةٍ واعيةٍ ناضجةٍ، قيادةٍ تؤثر الآخرة على الأولى، وتشعرُ بمسؤوليتها في حمل الرسالة، وأداء أمانة التوجيه والتبليغ.

وليست هذه القيادةُ بأقلَّ شأناً من القيادات السياسية والعسكرية، بل إنها هي التي تعطي لهاتين القيادتين الحيويّة والفعّاليّة والتأييد والشعبية، وتمنحهما المضمون الذي يحقق لهما الاستمرار والغلبة، ولمثلهما العليا البقاء على مرّ الأزمان وتغيّر الأشخاص والطاقات والظروف. والتاريخ أكبر شاهدٍ على ذلك في أمم الدنيا كلها. إنّ صوتَ المفكّر والعالِمِ أبقى، وتأثيره أشملُ؛ ومن هنا لم تعش الأنظمة الفردية التي لا تستند إلى قيادة فكرية أصيلة تتغلغل جذورها في قلوب الملايين والذراري والأحفاد، بل عاشت ما بقي الأفراد في السلطة، ثم اندثرت سريعاً وعقب نهايتهم فوراً.

والفكرُ الأصيلُ الحيّ العملاق في أمّتنا هو الإسلامُ، دينُ الله الخالد إلى أن يرث اللهُ الأرض ومن عليها. . كان هذا في ماضينا الطويل وسيبقى كذلك ما بقيت الدنيا، وإن أيامنا هذه التي نمرّ بها من أكثر العهود دلالة على ذلك فنحن في هذا العصر نرى العالم وقد انقسم بعد الحرب العالمية الثانية إلى معسكرين لم يقض أحدهما على الآخر ولم يستطيعا أن يحلاّ ما يعاني الإنسان والأمم من مشكلات وويلات نرى هذا العالم حائراً متطلعاً إلى فجر جديد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإننا قد رأينا أن كتلة عدم الانحياز لم تستطع أن تقيم كياناً جديداً وكذلك فإن الحركات السياسية هنا أو هناك عجزت عن مثل ذلك... وبقيت المشكلات كما هي، بل ازدادت تفاقماً... ويتعالى أنين المظلومين من آلامها يوماً بعد يوم.

والذي يقرأ في كتابات رجال العالَمَيْن الشرقيّ والغربيّ يجد أنهما يتطلعان إلى أمل ويترقبان منقذاً، ويخشى أساطين السلطة فيهما أن يقوم البديل الجديد للنظامين من ديار المسلمين، وقد بدأ المتخصصون في مسائل الشرق الأوسط والساسة والمفكرون في مختلف أنحاء العالم يحسبون للإسلام في عالم الغد ألف حساب.

فما أَحْرى أهل العلم المسلمين أن يَقْدُروا هذا الوضع الجديد الحسّاس حقَّ قَدْره.

والقيادةُ الفكرية في أمتنا متمثلةٌ في العلماء.

والعلماء ورثة الأنبياء - كما يقول رسول الله ﷺ - لأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورّثوا العلم فمن أخذه أَخَذ بحظٍّ وافر[1].

ووراثة النبوة شرف عظيم، ومقام كريم، وأمرٌ خطير ليس باليسير، وذلك إذا تصورنا معنى النبوة، النبوة التي هي اصطفاء الله تبارك وتعالى واحداً من عباده واختصاصه بإلقاء الوحي إليه، وإعداده إعداداً رفيعاً، وإلهامه الحقائق الصحيحة عن الكون والحياة والسعادة في الدنيا والآخرة.

وأنّى لي أن أصور إحساسي الضخم بجلال هذا الاتصال الربّاني وعظمة ذلك الإلقاء والاعداد والإلهام.. أنّى لي ذلك وأنا لا أجد فيما لديّ من مادة لغوية ولا بيان ما يجعلني أطمع في التعبير عن هذا الاحساس الضخم؟؟ واقرؤوا إن شئتم قوله تبارك وتعالى: ﴿**إنا سنلقي عليكَ قولاً ثقيلاً**﴾[المزمل: ٥] وقوله عزَّ من قائل: ﴿**لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبل لرأيتَهُ خاشعاً مُتَصدِّعاً**

(١) مسند أحمد ١٩٦/٥ وأبو داود ٤٣٢/٣ والترمذي ٣٨١/٣ وابن ماجه ٨١/١ والدارمي ٩٨/١ وانظر مختصر المقاصد رقم ٦٥٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من خشية الله وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلَّهم يتفكرونَ﴾[الحشر ٢١] واستحضروا أمثال هاتين الآيتين وأمِرّوها على أذهانكم وقلوبكم، وتذكروا قصة تلقّي نبيّنا محمد ﷺ الوحيَ لأول مرة في الغار، وتدبروا الآيات التي تذكر مقام النبوة من نحو قوله سبحانه ﴿واصطنعْتُكَ لنفسي﴾ [طه: ٤١] وقوله جلّ جلاله: ﴿وأنا اخترتُك فاستمعْ لما يُوحى﴾ [طه: ١٣] ومن نحو قول إبراهيم لأبيه: ﴿سأستغفرُ لك ربّي إنّه كان بي حفِيّاً﴾ [مريم: ٤٧] ثم تذكروا أثر النبوة الخالد في هذه الهداية الإسلامية التي تنعمون بها والتي يعمُّ نورها معظم الدنيا المعمورة، وتلتقي كل معاني الخير والحق والعدالة والفضل والاستقامة والنبل حول مبادئها بهذا كله وغيره تستطيعون أن تتصوروا منزلة وارث النبوة وفي أي مستوى رفيع ينبغي أن يكون.

وفقنا الله لمعرفة حق ورثة النبوة، ورثة القول الثقيل، وحملة هذا الكتاب الكريم الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله.

ذلك لأن هؤلاء العلماء إن لم يعرف الناس لهم حقهم لا يستطيعون أداء الأمانة ولا القيام بالواجب. إنهم بَشَرٌ من البشر لا يمكن أن نطلب منهم القيام بكل شيء إن لم نعرف لهم حقهم.

قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يعرف لعالمنا حقه»(١).

ولننظر في بيان مكانة هؤلاء العلماء كما يبينها القرآن:

١ ـ نجد القرآن الكريم يسمّي الوحي (علماً).. وفي ذلك شرف للعلم والعلماء لا يبلغه شرف مهما عظم. يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً نبيَّه محمداً ﷺ محذراً إياه من أن يتبع أهواء الكفار ومهدداً له إن هو فعل ذلك ﴿ولَئِنِ اتبعتَ أهواءَهُم بعد الذي جاءك من العلمِ مالكَ من اللهِ من وليٍّ ولا نصيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] والعلم هنا هو الوحي.

(١) الترمذي ٣/١٢٢، وموارد الظمآن ٤٧٣ وصحيح الجامع الصغير برقم ٥٤٤٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويكرر القرآن هذا التحذير مرة أخرى في السورة نفسها فيقول عزَّ وجل: ﴿ولئنِ اتبعتَ أهواءَهُمُ من بعد ما جاءكَ من العلمِ إنّكَ إذاً لمن الظالمين﴾ [البقرة: ١٤٥].

ويأمر الله عبده ورسوله محمداً أن يدعو الذين يجادلونه، ولا يريدون أن يقتنعوا بالحق، إلى المباهلة فقال جل جلاله: ﴿فمن حاجَّكَ فيه من بعدِ ما جاءكَ من العلمِ فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسَكم ثم نبتهلْ فنجعلْ لعنةَ الله على الكاذبينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

٢ ـ ونجد القرآن الكريم يذكر أولي العلم مع الله والملائكة في معرض الشهادة بوحدانيته وفي ذلك تكريم للعلم والعلماء لا يفوقه تكريم. يقول تعالى: ﴿شهد الله أنَّه لا إلهَ إلا هوَ والملائكةُ وأولو العلم قائماً بالقسطِ لا إلهَ إلا هو العزيز الحكيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

٣ ـ ويقرن القرآن الكريم العلماء الذين يأمرون بالقسط يقرنهم بالنبيين ويتهدَّدُ منْ يقتلهم بأعظم التهديد فيقول عزّ من قائل: ﴿إنّ الذينَ يكفرونَ بآياتِ الله ويقتلونَ النبيينَ بغير حقٍ ويقتلونَ الذينَ يأمرونَ بالقسط من الناس فبشرهم بعذابٍ أليمٍ. أولئكَ الذينَ حبطتْ أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرينَ﴾ [آل عمران: ٢١] وفي هذا النص الكريم فضلاً عن هذا التشريف العظيم صيانة لدمائهم وتعظيم لقتلهم.

بل إننا لنجد في قصة سيدنا موسى عليه السلام في القرآن حرصه الشديد على اتباع عالم علمه ربنا من لدنه علماً. قال الله عز وجل: ﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناهُ رحمةً من عندنا وعلَّمناه من لدنَّا علماً، قال له موسى: هل أتبعُكَ على أن تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشداً. قال: إنَّكَ لن تستطيعَ معيَ صبراً. وكيف تصبرُ على ما لم تُحِطْ به خُبْراً. قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتَّبعْتَني فلا تسألني عن شيءٍ حتى أُحدثَ لك منه ذكراً﴾ [الكهف: ٦٥ ـ ٧٠].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أخرج البخاري وغيره عن أبي بن كعب قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلمَ منك؟ قال موسى: لا.

فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدُنا خَضِر. فسأل موسى السبيل إليه. فجعل الله له الحوت آية وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه... فكان من شأنهما الذي قصَّ الله عز وجل في كتابه[1].

٤ ـ ويقرر القرآن أنّ العلم يرتبط بالإيمان والخشية من الله تبارك وتعالى... وعندما يكون المرء مؤمناً بالله حقّ الإيمان خائفاً من ربه أتم الخوف يبلغ المنزلة العالية في مدارج الكمال الإنساني:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هُنَّ أم الكتاب، وأُخَر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب**﴾ [آل عمران: ٧].

وسواء أوقف القارئ على لفظ الجلالة ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله**﴾ ثم استأنف الكلام أم لم يقف وعطف قوله: ﴿**والراسخون في العلم**﴾ على لفظ الجلالة فإنَّ الآية تدل أعظم الدلالة على فضل العلماء. لأنه في القراءة الأولى يكون المعنى أن المتشابه من القرآن لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، وفي ذلك فضلٌ عظيم وشرفٌ عالٍ، وفي القراءة الأخرى وهي الأرجح يكون المعنى أن الراسخين في العلم يقولون آمنا به، فالرسوخ في العلم يقود صاحبه إلى أن يعلن إيمانه بآيات الله المحكم منها والمتشابه، كل من عند ربنا.

ويقول تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾ [فاطر: ٢٨] ومعنى الآية كما تدل أداة القصر (إنما): لا يخشى الله من عباده حق الخشية إلا

(١) «فتح الباري» ١/١٦٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العلماء. وطوبى لهم لأن الله سبحانه يقول: ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ [الرحمن: ٤٦] ويقول: ﴿**وأمّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١].

٥ - ويقرر القرآن الكريم أن الله يرفع الذين أوتوا العلم درجات، قال تعالى: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ [المجادلة: ١١]. روى مسلم في صحيحه عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي وكان عامل عمر على مكة أنه لقيه بعسفان فقال له: من استخلفت؟ قال: ابن ابزى، مولى لنا. فقال عمر: استخلفت مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض. فقال عمر: أما إن نبيكم قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين». (١)

٦ - ومما يستدل به على فضل العلم قوله عز وجلّ: ﴿**وقل رب زدني علماً**﴾ [طه: ١١٤]، ذلك لأنَّ الله تعالى لم يأمر نبيه محمداً ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم، كما قرر ذلك العلماء وقوله تعالى: ﴿**وما يعقلها إلا العالمون**﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقد جاء في «صحيح مسلم» عنه ﷺ: «من سَلَكَ طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به له طريقاً إلى الجنة»(٢).

وجاء في صحيحي البخاري ومسلم: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(٣).

٧ - ولذلك كان فقدان العالم في المجتمع علامة من علامات الساعة، عندما يفسد الزمان، ولا يبقى إلا شرار الخلق، فكأن وجود العالم علامة لبقاء الصلاح، ومدعاة لرجاء الخير في المجتمع. جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا»(٤) وأخرج البخاري ومسلم عن

---

(١) مسلم برقم ٨١٧.
(٢) مسلم برقم ٢٦٩٩.
(٣) فتح الباري ١/١٦٤. ومسلم برقم ١٠٣٧.
(٤) فتح الباري ١/١٧٨. ومسلم برقم ٢٦٧١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[1] إنها صورة بغيضة للمجتمع الذي يفقد العلماء، ولعلّ هذا يبين لنا حرص أنظمة الكفر والإلحاد على محاربة العلم ومؤسساته ومحاولة تصفيتها نهائياً، وإن موت العالم كارثة للفكر كبيرة، حتى رُوي أنه إذا مات العالم انثلمت في الإسلام ثلمة لا تسد إلى يوم القيامة[2]. هذا فضل العلماء وهذه هي مكانتهم فما واجباتهم؟

(١) فتح الباري ١/١٩٤. ومسلم برقم ٢٦٧٣.
(٢) وهو أثر ضعيف، ولكن معناه صحيح.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أهم واجبات العلماء

قررنا أن العلماء ورثة الأنبياء كما قال ذلك سيدنا رسول الله ﷺ ومن كان وارثاً لمهمة النبوة لا يجوز أن تقعد به عن أداء واجباته المطامع ولا المخاوف، ولا أن تثبطه عن متابعة السعي في صراط الحق والخير المغريات ولا الصعوبات. وأود أن نتأمل بتدبر بعض النصوص القرآنية التي تبيّن أهم واجبات القيادة الفكرية التي تتمثل في العلماء ورثة نور النبوة.

١ ـ والواجب الأول عليهم، ويبدو كأنه هدف ينبغي السعي نحوه ليتحقق، وهو واجب النهوض بأمتهم، التي تخلفت وضعفت. هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس إن توافرت فيها حقيقة الأوصاف التي قررها القرآن الكريم لها وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ [آل عمران: ١١٠].

٢ ـ ومن أهم واجبات العلماء التي تتيح لهم تحقيق الهدف المنشود السابق الوعي التام لواقع المسلمين الذي يعيشون فيه، ومعرفة حقيقة التيارات الفكرية والسياسية التي تعبث بعقول الناس، والتي تسيطر على أدوات تكوين فكر الناس والرأي العام. وهذا الواجب مهم غاية الأهمية وليس منه بدّ، وينبغي على السادة العلماء أن يستكملوا أسباب تحصيله.

إن هذا الوعي هو السلاح الذي يستطيع حامله أن يحرز النصر في

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

معركة حامية تتصارع فيها القوى للسيطرة على المسلمين على نحو يقرب مما عبر عنه حديث ثوبان أدق تعبير. وحديث ثوبان أخرجه أبو داود بإسناد صحيح ويقول فيه صلوات الله وسلامه عليه: «يوشك أن تتداعى إليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها...».[1]

٣ ـ ومن هذه الواجبات الاحاطة الشاملة بحقائق الإسلام بعيداً عن التأثر بما ظهر أو يظهر من مبادئ ونظريات.

ويتحقق ذلك بكثرة الاتصال بالمصدرين الأساسيين: الكتاب والسنة، والرجوع إلى ما كتب الأئمة المتقدمون، وورود تلك الينابيع الثرة الصافية. ومتابعة هذا الاتصال وذاك الورود؛ ذلك لأن كثيراً من أهل العلم قد يشغلون بمسائل العامة وتوجيههم وقضاء مصالحهم عن مسائل العلم، وإنك ترى فريقاً منهم يسعى للرجوع إلى الكتب والبحث ولكنهم لا يتاح لهم خلوّ البال ولا اجتماع الفكر ولا صفاء الذهن.

لا بدَّ لهم من اتخاذ الأسباب والوسائل التي تهيء لهم الجو المناسب الذي يعينهم على ذلك، فأنا أعرف بعضاً من العلماء يسهرون حتى صلاة الفجر في كثير من الليالي لمتابعة البحث في مسألة من مسائل العلم لا يجدون وقتاً غيره. وأعرف بعضاً منهم ألزم نفسه بدروس مع طلبة جادين لا يترك ميعاد الدرس مهما كان عنده من شغل.

لا بدَّ من متابعة النظر في الكتب والرجوع إليها آناً بعد آن.

٤ ـ ومن واجباتهم أن يعملوا بما يعلمون. فإن لم يفعلوا تعرضوا لمقت الله الكبير ﴿**يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾ [الصف: ٢ ـ ٣] أجل إنهم إن لم يفعلوا أعرض الناس عنهم، وكان سلوكهم حجة عليهم أمام هؤلاء الناس وسبباً في مخالفتهم الحق. إن العلم الذي لا يعمل به الإنسان حجة عليه يوم القيامة، وإن من الأمور الأربعة التي لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عنها علمه ماذا

(١) انظر تخريجه في اول هذا الكتاب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عمل فيه، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ إن التطبيق الدقيق الكامل لما تدعو الناس إليه هو نفسه أبلغ من دعوة اللسان. قال تعالى مخاطباً أمة من الأمم المتقدمة: ﴿**ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾ [آل عمران: ٧٩] ومعنى قوله:(ربانيين) أي علماء عاملين منسوبين الى الرب ومعنى الآية: كونوا علماء عاملين بما كنتم تعلمون الكتاب وبسبب ما كنتم تدرسون فإنّ فائدته أن تعملوا.

٥ ـ ومن واجبات أهل العلم أن يكونوا أمناء على هذا الدين فلا يغيروه ولا يبدلوه على حسب أهواء الحكام وأصحاب الإمكانيات أو على حسب مصالحهم الشخصية. وقد قصَّ الله علينا من نبأ الأمم المتقدمة ما فيه عبرة لمن كان له قلب حاضر. قال تعالى: ﴿**فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾ [البقرة: ٧٩] وقال عزّ من قائل: ﴿**إنّ الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم وإنّ منهم لفريقاً يَلْوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**﴾ [آل عمران ٧٧ ـ ٧٨] وإن من نعم الله على الإنسانية أن تولى الله حفظ الكتاب الكريم ولم يكل حفظه إلى أحد ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩].

ولقد ذمَّ الله اليهود لأنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه فقال تبارك وتعالى: ﴿**ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد موضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب أكالون للسحت**﴾ [المائدة: ٤١ ـ ٤٢].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٦ ـ ومن واجباتهم أن لا يكتموا ما آتاهم الله من العلم. وإننا لنقرأ في كتاب الله عقوبة من يكتم دين الله.

قال تعالى: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**﴾ [البقرة: ١٥٩] وقال عز وجل: ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار**﴾ [البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٥].

ومما يتصل بعدم الكتمان أوثق الاتصال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأسلوب الحسن.

وفق الله علماء المسلمين لأداء هذه الواجبات كاملة ليستعيدوا المكانة الكريمة وليسعد الناس في الدنيا والآخرة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حكم سؤال العلماء وآدابه

قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [النحل: ٤٣].

إنّ العلم خزائن ومفاتيحها السؤال، ولا يستغني عن السؤال إنسانٌ مهما بلغ من العلم، ولكن للسؤال آداباً ينبغي التزامها، وأود في هذه الكلمة أن أذكر بها.

إنّ سؤال أهل العلم يختلف باختلاف الحالات والنيات، فقد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً، وقد يكون مباحاً، وقد يكون حراماً.

فهو واجب على من واجه في حياته موقفاً أو مشكلة لا يعرف حكم الله فيها. إنه في هذه الحالة مطالب بأن يسأل أهل الذكر عملاً بقول الله تبارك وتعالى (فاسألوا) والأمر في الأصل يقتضي الوجوب ما لم يَصْرِفْهُ صارف. وإذا كانت عبادة الله والتزام شرعه واجباً لا يتم إلا بسؤال أهل العلم وَجَب أن يسأل الإنسان العلماء، لأنّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والسؤال عن حكم الدين في مسألة تواجه المسلم هو من طلب العلم المفروض، وبهذا المعنى شرح الإمام عبدالله بن المبارك قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

(١) انظر «الباعث على الخلاص» للحافظ العراقي بتحقيقي. والحديث صحيح رواه عدد من الصحابة منهم أنس وابن عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وأبو سعيد. وانظر تخريجه في تعليقنا عليه في مختصر المقاصد برقم ٦١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهو مستحبّ إذا كان السؤال متعلقاً بأمر لا يتصل بحياة السائل ولا يتعلق بمشكلة تواجهه... بل هو للاستزادة من المعرفة في الدين... كأن يسأل عن أحكام الرق والعتق، وليس عنده رقيق ولا في السوق أرقّاء. أو كان يسأل عن توزيع تركة ميت وعما يستحق كل وارث وليس له علاقة بهذا الموضوع. واستحباب هذا السؤال إذا كان هناك في الأمة من يقوم بدراسة هذه الأمور وتعلمها، فيكون عندئذٍ مستحباً في حق بعض الأفراد... أما بالنسبة للأمة فتعلّم علوم الدين فرض كفاية، ولا بدَّ من قيام طائفة بهذا الأمر على الوجه الذي يجعل الأمة مطمئنة إلى وجود مرجع للرجوع إليه عند الحاجة، ولبيان حكم الإسلام ونظرته في كل شؤون الحياة.

وقد يكون السؤال مباحاً، كأن يسأل الطبيب عن أمور تتصل بالزراعة، أو التاجرُ عن أمور تتصل بمكتشفات العلم في بحوث الذرة والفضاء والجيولوجيا وما إلى ذلك.

وقد يكون محرماً كأن يكون من قبيل تتبع عورات المسلمين لفضحهم، أو أن يكون من مسائل السحر المحرّمة... أو أن يكون السؤال استهزاء بالدين وحملته... لا لمعرفة أحكامه.

* * *

والأسئلة أنواع بحسب النية، فقد يكون السؤال - في ظاهره - مستحباً أو واجباً، ولكنه يصبح بنيّة صاحبه شيئاً آخر، والله أعلم بالنيات، ومن الأحاديث العامة التي تشمل كثيراً من أمور الدين قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».(١)

فلا بدّ للسائل أن يراجع نفسه ويحاسبها وينظر إلى نيته التي دفعته للسؤال. فإن كانت هذه النية غير سليمة من الوجهة الشرعية، فعليه أن يستغفر الله عن فعله ويمتنع عن إلقاء مثل هذه الأسئلة، ويصحح النية.

* * *

(١) صحيح البخاري ٣/١ وصحيح مسلم ٤٨/٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقد رُوي أنّ العلم خزائن، ومفتاحه السؤال، فاسألوا رحمكم الله، فإنما يؤجر في العلم ثلاثة: القائل، والمستمع، والآخذ.

وعن عطاء بن رباح قال: سمعت ابن عباس[1] يخبر أن رجلاً أصابه جرح في رأسه على عهد رسول الله ﷺ ثم أصابه احتلام، فأُمر بالاغتسال، فاغتسل، فكزّ فمات، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «قتلوه قتلهم الله، أولم يكن شفاء العيّ السؤال».

وفي رواية عن جابر[2] أنه قال: «ألا[3] سألوا إذا لم يعلموا، فإنما شفاء العيّ السؤال».

قال الماوردي:

(فأمر بالسؤال وحثّ عليه، ونهى آخرين عن السؤال وزجر عنه فقال: «أنهاكم عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال[4]» وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وكثرة السؤال فإنما هلك من قبلكم بكثرة السؤال[5]». وليس هذا مخالفاً للأول. وإنما أمر بالسؤال من قصد به علم ما جهل، ونهى عنه من قصد إعنات ما سمع.

وإذا كان السؤال في موضعه أزال الشكوك ونفى الشبهة. وقد قيل لابن عباس: بم نِلْتَ هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول.

وروى نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «حسن السؤال نصف العلم».

---

(١) ابن ماجه ١/١٨٩ وأبو داود ١/١٤٢.

(٢) أبو داود ١/١٤٢.

(٣) وأورده الماوردي بلفظ: (هلاّ) أدب الدنيا والدين ص ٦٢.

(٤) البخاري ٩/٧٨ ومسلم ٥/١٣١.

(٥) روى مسلم ٤/١٠٢ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ انه قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأنشد المبرد عن أبي سليمان الغنوي:

فسل الفقيه تكن فقيهاً مثله ... لا خير في علم بغير تدبر
وإذا تعسرت الأمور فأرجها ... وعليك بالأمر الذي لم يعسر[1]

وقال بشار بن برد:

شفاءُ العمى طولُ السؤال وإنما ... دوام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلاً عمّا عناك فإنما ... دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل[2]

* * *

وللسؤال آداب فمن أهم آدابه مراعاة حال العالم الذي سيلقى عليه السؤال:

فإن كان في طريق يريد الوصول إلى مكان فليس لك أن تستوقفه وتسأله. بل خذ منه موعداً لمقابلته، أو خذ رقم هاتفه واسأله عن الوقت المناسب لاستفتائه.

أخرج البيهقي في كتاب «المدخل» عن ابن المبارك أنّ رجلاً سأله عن حديث وهو يمشي. فقال: ليس هذا من توقير العلم[3].

قال السيوطي: فكره ابن المبارك أن يسأل عن الحديث وهو ماش في الطريق وعده منافياً لتوقير العلم[3].

وإن كان في حالة غضب، فلا ينبغي أن توجه إليه سؤالاً.

وكذلك إن كان على طعام أو وضوء أو كان يتكلم مع إنسان آخر فينبغي لك يا أخي أن تنتظره حتى يفرغ من ذلك... ثم بعد ذلك تسأله.

أما إن كان السؤال عن طريق الهاتف فلا بدّ من مراعاة آداب استعمال

(١) أدب الدنيا والدين ٦٢ - ٦٣.
(٢) أدب الدنيا والدين ٥٠.
(٣) «الحاوي» للسيوطي ١/٤٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الهاتف، فلا يجوز أن تتصل هاتفياً في وقت النوم من بعد صلاة العشاء أو عندما يضع الناس ثيابهم من الظهيرة. فقد حدثني بعض أهل العلم أن رجلاً هاتفه بعد منتصف الليل، فاستيقظ من نومه فزعاً فإذا سائل يسأله في أمر من الأمور القابلة للتأجيل.. إن هذا لا يليق ولا ينسجم مع آداب السؤال.

ومن أهم آداب السؤال الترفق بالعالم فلا ينبغي أن نوجه إليه سيلاً من الأسئلة، فلا نتركه يلتقط نفسه بعد الانتهاء من إجابة حتى نوجه إليه سؤالاً آخر. كنت مرة في زيارة عالم، فكان في المجلس رجل سؤول، لا ينتهي الشيخ من جواب حتى يرميه بسؤال آخر.. حتى إذا طال المجلس ضجر الشيخ وضاق به ذرعاً قال: يكفي الآن ما تقدم من أسئلتك، وأرجئ الباقي إلى مرة أخرى، لأرى حاجات الحاضرين.

روي عن ابن جريج تلميذ عطاء أنه قال: لم أستخرج ما استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

إنّ من حق العالم ألاّ تكثر عليه بالسؤال، ولا تُعنِّته في الجواب وألاّ تلح عليه إذا كسل[1].

ومن آدابه أن يكون السؤال للوقوف على حكم الله لا للتعريض برجل حاضر.

حدثني بعض أهل العلم أنه دعي مرة إلى محاضرة، وكانت تعقبها أسئلة، فكتب بعض الحاضرين سؤالاً يُعرّض فيه بإنسان موجود، وقد صاغ السؤال على وجه يجعل إجابة الشيخ قاسية شديدة، وهذا ما وقع. وبعد انتهاء المحاضرة جاء إلى الشيخ الرجل المقصود وبيّن له أن السائل أراد الإساءة إليه، وحقيقة الأمر تختلف عما أورده السائل في سؤاله، وأنا أعذرك لأن الفتوى على قدر النص ولكن هل يجوز مثل هذا الفعل؟ فاعتذر إليه وبيّن له أن هذا لا يجوز أبداً.

(١) الإلماع ٤٨ والفقيه والمتفقه ٢/٩٩ وجامع بيان العلم ١/١٢٩ وإحياء علوم الدين ١/٥٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومن آدابه أن يستمع السائلُ الإجابة... ويستوضح عما لم يفهم من كلام الشيخ ثم يمضي لشأنه، إذ هناك ناس يسألون ليجيء الجواب على ما يحبون فإن جاء على خلاف ذلك جادلوا وأساءوا الأدب.

ومن آدابه أن لا يلقي سؤالاً سبق أن ألقاه على عالم يثق بدينه وعلمه لأنَّ ذلك لا ينبغي للإنسان أن يفعله... فالسؤال للوقوف على المعرفة لا لامتحان المسؤول ولا لتحديه... ولا للتشهير بعلماء آخرين.. ولا لإظهار علم السائل أمام الحاضرين.

ومن آدابه الإيجاز في السؤال وأن لا يذكر تفصيلات لا علاقة لها بالسؤال؛ لأن ذلك يأخذ وقت العالم ويضيق صدره. وأن لا يخفي شيئاً مما يتصل بالأمر الذي يسأل عنه.

اسألوا ما بدا لكم... وتأدبوا بآداب السؤال ولا يمنعنكم الحياء عن معرفة دين الله... فهذا من الحياء المذموم، ولا يمنعنَّكم الكبرُ أن تسألوا فقد قيل:

العلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

علماء السوء

يقول الله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ [التوبة: ٣٤].

هذه الآية تتحدث عن الأحبار (وهم العلماء)[١] والرهبان (وهم العبّاد)[٢]. والعلماء والعباد عند الناس يمثلون الدين، فهم متبعون، وغلا الناس في هذه النظرة التقديرية لهؤلاء فدعوهم في الأديان الأخرى رجال الدين. وليس مثل هذا موجوداً في الإسلام. ولله الحمد والمنّة. لقد كان في تاريخ الأديان السابقة رجال دين يحللون ويحرمون، ويبيعون قطعاً من الجنة، ويصدرون قرارات الحرمان منها... وكان لهم تاريخ حافل بالمآسي والمخازي، وليس هذا موضع التفصيل فيه.

لقد ذكرت الآية السابقة أنَّ في كثير من الأحبار والرهبان صفتين تنفّران الناس من الدين وهما:

- أكل أموال الناس بالباطل.
- والصد عن سبيل الله.

والذي أودّ أن ألفت النظر إليه قوله سبحانه في الآية: **﴿يا أيها الذين**

(١) قال الراغب: والحبر العالم وجمعه أحبار.

(٢) قال الراغب: والترهب التعبد. [وجاء في تفسير ابن كثير: قال السدي: الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، وهو كما قال فإن الأحبار هم علماء اليهود.. والرهبان عباد النصارى والقسيسون علماؤهم].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

آمنوا﴾. الآية تتحدث عن الأقوام السابقين والله تبارك وتعالى يخبرنا بخبرهم فينادي الذين آمنوا.

إنَّ في هذا تنبيهاً لهذه الأمة وتحذيراً من أن تتبع الانحراف الذي كان فيمن سبقنا، وقد ساق القرآن الكريم قصص الأمم الماضية ليكون لنا من ذلك عظة وعبرة.

إن تأثير الدين في النفوس تأثير عميق، كان ذلك في الماضي وهو ماثل أمام أعيننا اليوم وسيبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وللمتدبر المتأمل في أحوال الأمم المحكومة اليوم بالشيوعية أمثلة ناطقة. فعلى الرغم من محاربتها للدين بالحديد والنار ما تزال العاطفة الدينية قائمة في نفوس كثير من الناس.

إن تأثير الدين الكبير في النفوس يجعل الناطق باسمه، والمعبر عنه ذا شأن كبير عند الناس جميعاً، فإذا استغلّ أحدٌ هذا الوضع لمصلحته الشخصية، وجعل حبَّ المال مسيطراً عليه حرّف دين الله وصدّ الناس عنه. وعندئذٍ يكون الوضع شاذاً غريباً: كيف يصدّ عن سبيل الله من يزعم أنه يدعو إلى الله؟ إنَّ هذا لشيء عجيب!!

ولكنها هي الحقيقة التي لا مفرَّ من التسليم بها عندما يكون المتظاهر بالدعوة إلى الله كاذباً لا يريد إلا الدنيا وزينتها. أما إذا كان الداعية إلى الله مخلصاً يريد رضوان الله وثوابه فلن يتكالب على الدنيا وملاذتها وحكامها، ولن تكون تحركاته مرتبطة بالدنيا وعرضها، ويومئذ يكون تأثيره في الناس كبيراً، ويكون علمه نافعاً وتكون دعوته مباركة، يدل الناس على طريق الخير ويأخذ بأيديهم إلى سبيل الرشاد الذي ينتهي بهم إلى الجنة.

إنَّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله فاحذروا يا أيها الذين آمنوا من ذاك الواقع السيء الذي انحدر إليه من كان قبلكم؛ ذلك لأنّ الله تبارك وتعالى قضى أن هذه الأمة ستبتلى بتقليد من سبقها كما قال ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وغيرهم عن أبي سعيد وأبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«لتتبعُنَّ سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضبّ لاتبعتموهم» قلنا: يا رسول الله آليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» وفي رواية ابن ماجه «فمن إذن؟»[1].

فإذا كان ذلك كذلك فاحذروا يا أيها المؤمنون ممن يتشبه بأولئك الأحبار والرهبان فيأكل أموال الناس بالباطل ويصد عن سبيل الله.

ألا نجد في واقع المسلمين نفراً من الدجالين الذين يحرفون دين الله، ويأكلون أموال الناس بالباطل، باسم الدين، ويصدون الناس بسلوكهم الشائن عن سبيل الحق وطريق الإسلام؟ وقد يكون لديهم شيء من العلم ويتظاهرون بمظاهر الصلاح والعبادة. وقد يجمعون بين الجهل والتقصير في العبادة وذلك المسلك المنحرف.

إنّ بعض الأحبار كانوا يقصرون في أداء مهمة العالم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿**وترى كثيراً منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون**﴾ [المائدة: ٦٢ - ٦٣]، قال العلماء في تفسير قوله سبحانه ﴿**لبئس ما كان يصنعون**﴾ أي تركُ نهيهم.

لقد اتخذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عندما اتبعوهم في التحليل والتحريم كما قال تعالى: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ [التوبة: ٣١].

دخل عديّ على رسول الله ﷺ وكان نصرانياً وكان ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ [قال فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال ﷺ: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم][2] لقد بلغ الأمر بهؤلاء الأحبار والرهبان أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴿**فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما**

(١) البخاري ٨٣/٩. مسلم: ٥٧/٨. ابن ماجه: ١٣٢٢/٢.
(٢) تفسير ابن كثير ٣٤٨/٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يكسبون﴾ [البقرة: ٧٩] وكانوا يعمدون أحياناً إلى ليّ ألسنتهم بالكلام متشدقين ليحسبه السامعون أنه من عند الله ﴿**وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب. ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**﴾ [آل عمران: ٧٨].

ومثلهم أولئك الذين يغيرون ويبدلون في أحكام الدين من أجل منافع يتطلعون إليها. هذا كان حال القوم... أما نحن فلقد عرف تاريخنا نماذج رائعة من العلماء الأمارين بالمعروف النهائين عن المنكر الذين يقولون كلمة الحق لا يخشون فيها لومة لائم، ولا يبالون بما يمكن أن يلقاهم. وما يزال هؤلاء العلماء موجودين، ولا يخلو منهم زمان. ولا يعني تقريرنا هذا انعدام وجود ناس منحرفين آخرين... لا.. بل وجد بعض الدجالين الكذابين الذين يتظاهرون بمظهر التدين ويرتدون زيّ العلماء، يريدون الدنيا، ويحلون الحرام ويحرمون الحلال ويشهدون الزور ويقرون الاثم ويكذبون على رسول الله ويصرفون النصوص عن دلالتها يفعلون ذلك ابتغاء أغراض خسيسة منها المال والمتعة والجاه والمنفعة. ولكنَّ الله الذي تكفل بحفظ هذا الدين هيّأ كشف باطل هؤلاء فقام علماء يفضحونهم ويبينون كذبهم وافتراءهم.

والتحذير موجه إلى المؤمنين أن يحذروهم وألا يخدعوا بمظهرهم ولا بأقوالهم. قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى).[1]

إنّ الوعي إذا انتشر في الأمة قلّ ضرر هؤلاء الانتهازيين.. بل إن هذا الوعي لكفيل بأن يستأصل شأفتهم ويضطرهم إلى الانزواء والاختباء. إننا بحاجة إلى دعاة يترفعون عن الدنيا وحكامها ويؤثرون ما عند الله، ويحببون الناس بالحق والدين بسلوكهم الكريم العفيف النظيف، وبكلامهم المعسول اللطيف وبحكمتهم البالغة.

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال الغزالي: [وليفرَّ من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد، فقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا، فيقطعك عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة المشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله][1].

وقال ابن القيم: علماء السوء جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة ادلاء، وفي الحقيقة قطاع الطرق[2].

وقال مصطفى صادق الرافعي: [علماء الحق في أخلاقهم كاللوح من البنلور: يظهر النورُ نفسه فيه، ويظهر حقيقته البللورية. وعلماء السوء بأخلاقهم كاللوح من الخشب: يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير].

وقال [فإذا رأيت لعلماء السوء وقارًا فهو البلادة، أو رقة فسمِّها الضعف، أو محاسنة فقل: إنها النفاق، أو سكوتاً عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها][3].

وقال: [ولو نافق العالم الديني لكان كل منافق أشرف منه، فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود][4].

---

(١) الاحياء ٤/٣٨٨.
(٢) الفوائد طبعة عرموش ص ٨٠.
(٣) وحي القلم ٣/٦٠.
(٤) وحي القلم ٣/٥٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِن صِفَات الدَّاعيَة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الصبر من أهم أخلاق الداعية

إنّ من أهم أخلاق الداعية الصبر الذي لا يزلزله تنكيل طاغية، ولا إعراض غافل أو مستهتر. وهناك أنواع من الصبر كثيرة، والذي يعنينا في الداعية نوعان يجب على الداعية أن يلزم نفسه بهما، ويعودها عليهما وهما:

- الصبر على إعراض المعرضين واستهزاء المستهزئين.
- الصبر على أذاهم وما يلحق به من البلاء بسبب دعوته.

ذلك لأنه لا بدّ للداعية من أن يعلم جيداً، ويتذكر دائماً أن طريق الدعوة ليس مفروشاً بالورود والرياحين.. وإنما هو طريق ممتلئ بالمصاعب والمتاعب... تلك سنة الله في الأنبياء والدعاة السابقين، ولا تزال هذه السنة ملموسة تجري على الدعاة المعاصرين، وستبقى ما بقيت دعوة ودعاة، ومهتدون وضالون.

قال تعالى: ﴿**ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين**﴾ [العنكبوت: ١ - ٣] قال ابن كثير: [ومعناه أنّ الله سبحانه وتعالى لا بُدَّ أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان، كما جاء في الحديث الصحيح: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل بالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في

www.alukah.net
شبكة الألوكة

البلاء»[1] وهذه الآية كقوله: ﴿أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾[التوبة: ١٦].. ثم قال: [.. ﴿فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة، وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله (إلا لنعلم) أي (إلا لنرى)، وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود، والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالموجود والمعدوم][2].

وقال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وَزُلْزِلُوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ [البقرة ٢١٤].

[... إن هذه هي سنة الله القديمة في تمحيص المؤمنين وإعدادهم ليدخلوا الجنة وليكونوا لها أهلاً: أن يدافع أصحاب العقيدة عن عقيدتهم، وأن يلقوا في سبيلها العنت والألم والشدة، وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة، حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم لم تزعزعهم شدة، ولم ترهبهم قوة، ولم يهنوا تحت مطارق المحنة والفتنة، استحقوا نصر الله لأنهم يومئذٍ أمناء على دين الله، مأمونون على ما ائتمنوا عليه، صالحون لصيانته والذود عنه، واستحقوا الجنة لأن أرواحهم قد تحررت من الخوف، وتحررت من الذل، وتحررت من الحرص على الحياة أو على الدعة والرخاء، فهي عندئذٍ أقرب ما تكون إلى عالم الجنة، وأرفع ما تكون عن عالم الطين... إنّ نصر الله مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية... الذين يثبتون على البأساء والضراء... الذين يصمدون للزلزلة. الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة. الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله، وحتى

(١) رواه الترمذي ٢٨٦/٣ وابن ماجه برقم ٤٠٢٣ والدارمي ٣٢٠/٢ وابن حبان والحاكم ٣٤٣/٣ وأحمد وانظر «الأحاديث الصحيحة» رقم ١٤٣.
(٢) تفسير ابن كثير ٤٠٤/٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حين تبلغ المحنة ذروتها فهم يتطلعون فحسب إلى (نصر الله) لا إلى أي حل آخر، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله، ولا نصر إلا من عند الله... إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة، ويرفعها على ذواتها، ويطهرها في بوتقة الألم فيصفو عنصرها، ويضيء، ويهب العقيدة عمقاً وحيوية، فتتلألأ حتى في أعين أعدائها وخصومها. وعندئذٍ يدخلون في دين الله أفواجاً كما وقع وكما يقع في كل قضية حق، يلقى أصحابها ما يلقون في أول الطريق، حتى إذا ثبتوا للمحنة انحاز إليهم من كانوا يحاربونهم، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين.

على أنه - حتى إذا لم يقع هذا - يقع ما هو أعظم منه في حقيقته: يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنها، وأن تنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة والحرص على الحياة نفسها في النهاية.

وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها، وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء، كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون المؤتمنون على راية الله وأمانته ودينه وشريعته... هذا هو الطريق كما يصفه الله للجماعة المسلمة الأولى، وللجماعة المسلمة في كل جيل.

هذا هو الطريق: إيمان وجهاد، ومحنة وابتلاء، وصبر وثبات، وتوجه إلى الله وحده، ثم يجيء النصر، ثم يجيء النعيم].

وقال تعالى:

﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال تعالى: **﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾**. [الزمر: ١٠].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فالصبر على الفتنة علامة من علامات الإيمان.

والصبر على ما يلقى المسلم في سبيل دعوته سمة رجولة واستقامة وتحل بأمر من عزم الأمور، والصبر على ما يصيب الدعاة في سبيل الله سبب من أسباب النصر، والصبر على ما يصيب المرء مجلبة للرحمة والجنة والهداية كما قال تعالى: ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

فإلى الصبر يا أيها الدعاة، وإنكم إن تحليتم بهذا الخلق الكريم كسبتم شرف الدنيا بنصر الله القريب، وشرف الآخرة بالرحمة والمغفرة والجنة.

قررنا أن هناك نوعين من الصبر لا بدّ للداعية من أن يتحلى بهما وهما الصبر على الإعراض والصبر على الأذى.

وإننا لنجد مثالاً رائعاً للصبر بنوعيه هذين في كتاب الله، يبدو لنا هذا في عرض موجز سريع لقصة رسل كرام جاؤوا قومهم بالبينات، فقابلوهم بالإعراض والتكذيب... فناقشوهم بالحجة والبرهان ولم ييأسوا من متابعة الطريق: طريق الدعوة إلى الله مع شدة إعراض هؤلاء المكذبين. ثم قالوا لهم:

﴿**... وعلى الله فليتوكل المؤمنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون**﴾ [إبراهيم ١١ - ١٢].

والتوكل على الله المرحلة الأولى في الصبر وهكذا قالوا ﴿**ولنصبرنّ**﴾ بهذا التأكيد الجازم... لن نترك أمر الدعوة إلى الله، بالأسلوب الحسن والقول الليّن والموعظة الرفيقة، وسنتابع طريقنا وفق ما أمر الله.

لا يدفعهم إلى موقفهم إلا الرغبة في رضوان الله وإنقاذ قومهم وأهليهم من نار الله الموقدة.. لا يدفعهم إلى دعوتهم إلا أنهم يريدون لأنفسهم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأهليهم سعادة في الدنيا وارفة الظلال، وسعادة في الآخرة سعادة أبدية. وكأنهم يقولون لهم: فإن قابلتمونا وقابلتم دعوتنا بالإيذاء فلن نتوانى ولن نترك الدعوة.. لن نتخلى عن عملية الإنقاذ لكم ولكل من تبلغه دعوتنا... سنتوكل على الله وسنصبر على إيذائكم ﴿... **ولنصبرن على ما آذيتمونا**﴾ ودراسة خبر هؤلاء الأنبياء مع قومهم كما ورد في سورة إبراهيم[1] من خلال هذا الحوار الحيّ المعبّر لينتهي بالدارس إلى أن هذين النوعين من الصبر كانا واضحين عند هؤلاء الأنبياء الكرام: صبر على الإعراض وصبر على الإيذاء.

وإننا لنجد كذلك في قصة نوح عليه السلام دروساً في الصبر العظيم، فهذا نوحٌ يلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون**﴾ [العنكبوت: ١٤] لبث فيهم يدعوهم كما جاء في القرآن على لسانه يخاطب ربه ﴿**قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً، ثم إني دعوتهم جهاراً، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم أسراراً**﴾ [نوح: ٥ ـ ٩] فلم يستجب له من قومه إلا قليل. كما قال تعالى: ﴿**قال نوح: رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ومكروا مكراً كباراً**﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٢] وعلى الرغم من ذلك فقد تابع نوح تبليغ الدعوة في وسط مصرٍّ على الكفر، مغرق في الفساد والإعراض قرناً بعد قرن بصبر يفوق الخيال حتى أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿**وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون**﴾ [هود: ٣٦].

وهناك في القرآن مثال شامخ على الصبر قد يحتاج منا أن نقف أمامه وقفة تأمل عميق... هذا الموقف هو موقف السحرة، الذين كانوا قبل إيمانهم بقليل، أي قبل دخول مباراة التحدي مع موسى، يحلفون بعزة فرعون إنهم

(١) من الآية ٩ حتى الآية ١٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الغالبون، هؤلاء السحرة عندما رأوا الدليل الملزم، والحجة القاطعة مع نبي الله موسى عليه السلام آمنوا إيماناً جعلهم يقفون هذا الموقف الصامد الصابر أمام التهديد الطاغي الباغي الذي يطلقه فرعون **﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾** [طه: ٧١] فماذا كان موقفهم أمام هذا التهديد المخيف الشرس المبالغ في الطغيان؟ كان موقفهم كما يأتي:

﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض. إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾ [طه: ٧٢ - ٧٣].

ثم تابعوا كلامهم يقررون لفرعون الطاغية نتيجة الإجرام ونتيجة الايمان والعمل الصالح **﴿إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي. ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾** [طه: ٧٤ - ٧٦] كأنهم يقولون له: إذا كان هذا جزاء المؤمنين الصالحين، وذاك جزاء الكافرين المجرمين، وإذا كنا قد آمنّا بهذا إيماناً صادقاً جازماً، فهل لنا أن نتخلى عن طريق الإيمان والجنة... لا ليس لنا هذا.

وهكذا كان... لقد انطلقوا في طريق الإيمان والصبر، يستقبلون الشهادة بسرور... يستقبلون التنكيل والتعذيب، والتقطيع والتصليب، بنفس راضية مطمئنة تتطلع إلى جنات الخلد ورضوان الله ومغفرته، وهذا لا يمكن أن يقوَّم في نظرهم بثمن:

أين أجر فرعون من جنات عدن ومغفرة الله؟

أين تقريب فرعون من رضوان الله والدرجات العلى؟

﴿قالوا لفرعون: أئنّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم إذن لمن المقربين﴾ [الشعراء: ٤١ - ٤٢].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد تضاءلت كل مكافآت العبيد الضعفاء حتى ولو كانوا طغاة أغنياء وتعاظمت أمامهم المغفرة والجنة...

إن هذا التصور الذي كان قائماً في أذهان السحرة جعلهم لا يبالون بتهديد فرعون ووعيده... وجعلهم يقبلون على الشهادة والموت بنفوس راضية مستبشرة، صابرة مطمئنة.

وإنها لقصة تمثل لنا الذروة التي يبلغها الصبر على الايذاء وإيثار ما عند الله.

إنَّ الداعية مطالبٌ في هذه الأيام - أكثر من أي يوم مضى - أن يكون على مستوى دعوته فهماً وعملاً وصبراً، وأن يرتفع فوق كل الصعوبات والعقبات، وأن ينهض بالمسؤولية العظمى التي لا ينهض بها سواه، وأن يواجه الكيد المنظم، والتآمر المتلاحق والهدم المسلح بأضخم وسائل الحضارة الحديثة، أن يواجه ذلك كله بالوعي العميق، والعمل الدائم، والأمل الباسم، والصبر الحازم، حتى يفوز بإحدى الحسينين: النصر أو الجنة.

والصبر ضياء يُبَدِّدُ ظلمات المصاعب والمتاعب، ويضمن لصاحبه سلامة سلوك الطريق الوعر، وهذا جانب من الجوانب التي يدل عليها الحديث الصحيح الجامع الذي أخرجه مسلمٌ عن رسول الله ﷺ قال: «والصبر ضياء»[1].

وقد علمنا سيدنا رسول الله ﷺ أن الصبر شيء عظيم لا يفوقه أمر، وأنه يمكن أن يكتسب، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «ومن يتصبّر يُصبّره اللهُ، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع له من الصبر» متفق عليه[2].

إذن فلنعود أنفسنا وأبناءنا على الصبر، لأن الذي يتكلف الصبر في بادئ الأمر، ويحاول أن يكتسبه، يكرمه الله به ويهيء له وسائل الاتصاف به.

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٢٣

(٢) صحيح البخاري ٢/١٠٤ وصحيح مسلم برقم ١٠٥٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وليس من شك في أن الصبر صفة من صفات الرجولة التي هي من أهم صفات الداعية، والتي لا يمكنه أن يؤدي مهمته إلا بالتحلي بها.

والصبر لحظات ربما يكسب صاحبه النصر في معركة مصيرية، ويصدق هذا في حياة الفرد والأمة، وفي الأمور الخاصة والعامة. وإنّ من فضل الله علينا أنه لا يُضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، دقّ عمله أو جلّ، حتى إن الذرة من الخير والشر يراها المرء، نقرأ ذلك في كتاب الله قال تعالى: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾.

ولقد جاء عن رسول الله ﷺ أنّ البلاء مهما كان يسيراً فإنّ المسلم مثابٌ عليه. قال ﷺ: «ما يصيب المسلم مِنْ نَصَبٍ ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غمّ - حتى الشوكة يشاكها - إلاّ كفّر الله بها من خطاياه» متفق عليه(١).

وجاء في حديث آخر: «ما من مسلم يصيبه أذى: شوكةٌ فما فوقها إلا كفّر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها» متفق عليه(٢).

فما أعظمها من منة امتنّ الله بها علينا وعلى الدعاة إليه الذين يلقون من الأذى والاضطهاد صنوفاً كثيرة.

وإننا لنجد في عصرنا ناساً أصيبوا في الله وأوذوا أشدّ الإيذاء في أموالهم وأنفسهم وأهليهم... ومع ذلك فإنك تراهم مطمئنين راضين بقضاء الله وقدره، فرحين مستبشرين بما وعد الله عباده الصابرين، من أجل ذلك تراهم يتقلبون في مهاد الرضى ورياض الانشراح، فيتحول عذابهم إلى نعيم وشقاؤهم إلى سعادة... وإذا كنا نجد في عالم المحبين من يخاطب محبوبه بأن الجرح إذا أرضاه لم يعد مؤلماً فكيف ينبغي أن يكون حال الداعية المؤمن بصدق وعد الله مالك الملك جبار السموات والأرض... ما أجدره أن يتحقق بهذا.

---

(١) صحيح البخاري ٩٩/٧ وصحيح مسلم ٢٥٧٣

(٢) صحيح البخاري ١٠٠/٧ وصحيح مسلم ٢٥٧١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا رسول الله ﷺ يخاطب ربه بعد أن لقي ما لقي «اللهم إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي»(١).

ويقول ﷺ فيما رواه عنه أنس:

«.. إن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط» رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

ألا فلتطب نفوس المبتلين.. إن هذا الابتلاء علامة الحب... حب الله تبارك وتعالى، ومن أحب الله فلا يبالي بالدنيا كلها إذا وقفت في وجهه (وكل الذي فوق التراب تراب).

وإذا كان المرء صادقاً في دعواه الايمان بما جاء عن الله ورسوله فصبر الصبر الحقيقي فاز في الدنيا والآخرة، وإلا والعياذ بالله فإنه يكون قد خسر الدنيا والآخرة.

أيها الدعاة إلى الله

إن اليأس والجزع ليسا من صفات المؤمنين فضلاً عن الدعاة الصادقين.

وقد نقل عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أنه كان يقول: (ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى)(٢).

وسئل الفضيل عن الصبر فقال:

هو الرضا بقضاء الله، قيل: وكيف ذلك؟ قال: الراضي: لا يتمنى فوق منزلته(٣).

وأصيبت امرأة صالحة بانقطاع ظفرها فضحكت فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إنّ لذة ثوابه أزالت عن قلبي حرارة وجعه(٤).

ويروى عن داود قوله: يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات(٥).

---

(١) انظر نور اليقين ٦٦ ومجمع الزوائد ٦/٣٥

(٢ و٣ و٤ و٥) «الاحياء» ٤/٧١ - ٧٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إذا كان الصبر خلقاً ضرورياً وصفة لازمة للداعية، فإنّ مما يُزيّن للمرء التحلي بها والتعود عليها أن يعلم أنّ رسول الله ﷺ كان القمة الشامخة في هذا الموضوع.

إن في سيرة نبينا محمد ﷺ مثالاً حياً ومثلاً أعلى للصبر البنّاء المعلم.. الصبر الذي لا يبالي بالعقبات ولا بالصعوبات.

لقد لقي رسول الله ﷺ وأصحابه الذين آمنوا معه التعذيب والتكذيب والأذى، وقاطعه قومه مقاطعة اجتماعية واقتصادية، ومكروا في محاربته مكراً كباراً، وخططوا لقتله والوقوف في وجه دعوته في الليل والنهار، ولاحقوا أتباعه المهاجرين حتى الحبشة... ومع ذلك فقد كان يقابل ذلك بصبر مقترن بالرجاء. صبر على الإعراض وصبر على الإيذاء.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ :

ـ هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟

ـ قال: «لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدُّ ما لقيته منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إنّ الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلّم عليَّ ثم قال: يا محمد إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك فما شئت: إن شئت أطبقتُ عليهم الأخشبين؟».

فقال النبي ﷺ : «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً» متفق عليه[1].

والأخشبان الجبلان المحيطان بمكة.

---

(١) صحيح البخاري ٤/٩١ وصحيح مسلم برقم ١٧٩٥

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن المعروف في السيرة أنه صلوات الله عليه لما جهر بالدعوة سخرت منه قريش، واستهزؤوا به في مجالسهم، فكان إذا مرّ عليهم يقولون: هذا ابن أبي كبشة يُكلّم من السماء... هذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء... لا يزيدون على ذلك.

وكان أبو جهل من أشد المشركين إيذاءً لرسول الله ﷺ قال عبدالله بن مسعود: كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد وهو يصلي فقال أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بني فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد؟ فقام عقبة ابن أبي معيط وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبي ﷺ وهو ساجد، فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا في المسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم، ولم يزل عليه السلام جالساً حتى جاءت فاطمة بنته فأخذت القذر ورمته، فلما قام دعا على من صنع هذا الصنع القبيح وسمّى أقواماً، قال ابن مسعود: فرأيتهم قتلوا يوم بدر(١).

واستمر رسول الله في طريق الدعوة يخطو والأمل يملأ جوانب نفسه الكبيرة.. وقد حقق الله لنبيه ﷺ ما كان يرجو، فلم يمضِ وقت طويل حتى ولى صناديد الشرك.. وإذا أبناؤهم وأعقابهم يدخلون في دين الله أفواجاً، وإذا كلمة التوحيد تعم جزيرة العرب.. ويصبح هذا الرسول الكريم الذي كان قبل حين مطارداً مهاجراً مهدداً سيد الجزيرة جزيرة العرب... ويصبح خلفاؤه بعد زمن يسير سادة الكون كله.

عن خباب بن الأرتّ قال: شكونا إلى رسول الله وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(٢).

(١) رواه البخاري وانظر أخبار الإيذاء في السيرة.
(٢) صحيح البخاري ٤/١٦٠

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعن ابن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» متفق عليه[1]. وقد قصّ علينا رسول الله من أنباء الأمم والدعاة ما فيه تذكرة للدعاة اليوم وموعظة بالغة[2].

وهناك ملاحظة لا بدّ من تقريرها وهي أن الداعية مطالب بالصبر إن أصابه البلاء.. ولكن ليسأل الله العافية، ولا يَتَمَنَّيَنَّ الضرّ ولقاء العدو قال صلى الله عليه وسلم.

«يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا»[3] متفق عليه.

وبعد فإن الدعاة إلى الله اليوم مدعوون إلى أن يتخلقوا بهذا الخلق في زمن اشتد فيه الطواغيت على كل من يدعو إلى الله وكثر فيه دعاة الشيطان وتعددت أساليبهم المغرية الجذابة.

أيها الدعاة! لا تستعجلوا إحراز النصر، ولا الوصول إلى المبتغى، ولا تقعدن بكم أساليب الارهاب والاغواء، والتعذيب والإيذاء عن متابعة الطريق، فإن الله معكم إن صدقتم وصبرتم ويكفيكم أن الله مع الصابرين.

قال الله تعالى:

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ [البقرة: ١٥٥].

---

(١) البخاري ٤/١٤٠ مسلم ١٧٩٢

(٢) مثل قصة الغلام والملك والراهب.

(٣) صحيح البخاري ٤/٥٠ وصحيح مسلم ١٧٤٢

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن الحياة التي نحياها مليئة بالمصاعب، مترعة بالمتاعب، وقديماً قال الشاعر:

تعبٌ كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

ولا تصفو لحيّ أبداً. . بل إن المرء لا يخرج من مشكلة إلاّ ليدخل في مشكلة، وينتقل من ألم إلى ألم، وعمَّ ذلك الناس جميعاً، حتى قيل:

كل من تلقاه يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن؟

ذلك لأنّ أمانيّ الإنسان ورغباته غير محدودة، وإمكاناته محدودة، ولذلك فليس بمدرك كل ما يتمنى كما قيل:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

هذه هي الحياة بواقعها وطبيعتها، وإذا ما واجه الإنسان هذا الواقع تألم واشتكى، وحزن وشقي ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فيقولُ ربِّي أكرمَنِ وأمَّا إذا ما ابتلاهُ فقدر عليه رزقه فيقول ربِّي أهانن**﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦] إنّ النفس البعيدة عن الإيمان سرعان ما تتعرض للأزمة الخانقة أو التحطم المبيد أمام هذه العقبات التي لا بد من أن يواجهها كل إنسان في هذه الدنيا. وتبدأ هذه الآلام والمشكلات والمصاعب والعقبات، والمصائب والنكبات من أول يوم من أيام حياة الإنسان، وتلازمه إلى أن يموت، ويتفاوت الناس في إحساسهم بذلك كله، كما يتفاوتون في تبرمهم من ذلك أيضاً، ويبدو أن ارتفاع مستوى التمدن والوعي والعلم يزيد في الإحساس بالألم والتبرم من الواقع، كما قال الشاعر:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

أما المؤمن فإنه يستقبل أحداث الحياة وكوارثها بابتسامة الرضى، وبواقعية معتمدة على التفاؤل السمح، فيخفف هذا الموقف عنه كثيراً من العناء، ويمسح كثيراً من الألم.

إنّ المؤمن إذا أنعم النظر في واقعه بناء على أنه من تدبير الخالق

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العظيم، انتهى به هذا النظر إلى رضى وسرور بهذه العوائق والمعكرات، والكوارث والنكبات؛ ذلك لأنه عندما يقابلها بالصبر الجميل، تكون سبباً في أن يحوز ثواب الله الجليل، وفي أن يكون في جنة الطمأنينة النفسية في الدنيا... وسيكون في جنات النعيم الباقي في الآخرة.

إن رسول الله ﷺ ليتعجب من أمر المؤمن الذي يكون في حالي اليسر والعسر والنعمة والمصيبة، والعافية والابتلاء.. يكون في الحالين في خير عميم فيقول: «عجباً لأمر المؤمن، إنّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»(١).

يا لله!! تستوي السراء والضراء في كونهما مجلبتين للثواب، وفي كونهما خيراً يرضى به المؤمن وتستريح نفسه إليه وتستقر به.

يا لله!! ما أعظم نعمة الإيمان.. التي تحول المصيبة إلى نعمة.. فيخف تأثر المرء بألمها، ويكتب له الأجر ﴿**أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**﴾ وماذا يفيد الجزع والبكاء؟ وماذا يفيد التسخط والصراخ؟ وماذا يفيد الانفعال والهياج؟

إنّ ذلك كله لا يفيد، ولا يغير من الواقع شعرة واحدة. إن الميت لن يعود بالنياحة... وإن الخسارة لا تزول بالآهات.. وإن البلاء لا يرفع بالتسخط والشكوى..

إننا ونحن نعيش في ظلال هذه الآيات الكريمة لنحس بنداوة البشرى، تهدى لأولئك الصابرين الذين يقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون... البشرى بأنهم سينالون الصلوات والرحمات من الله.. والثناء عليهم بأنهم هم المهتدون.

الابتلاء أمر محتم لا يسلم منه مخلوق ﴿**ولنبلونكم بشيء من الخوف**

(١) صحيح مسلم ٤/برقم ٢٩٩٩

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ وهذا الابتلاء عام يشترك فيه الناس جميعاً.

وهناك ابتلاء خاصٌّ بالمؤمنين: **﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾** [العنكبوت: ١ - ٢] ومن ظنّ أنّ طريق الإسلام محفوف بالتبجيل والتكريم، والاحترام والتعظيم، والبحبوحة والعطاء، والراحة والثناء، والورود والرياحين؛ فهو إنسان مخطئ، يقول ربنا تبارك وتعالى **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب﴾** [البقرة: ٢١٤].

وهناك بعد الصبر والرضى عند الصدمة الأولى هناك أمران ينبغي أن يواجه المسلم بهما المصائب:

أما أولهما فهو الاتعاظ والاعتبار... عليه أن يتهم نفسه بالتقصير والتفريط وأن يقلع عن الذنوب، لأن الذي أصابه إنما كان بسبب ما كسب من سيئات **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾** [الشورى: ٣٠].

وأما ثانيهما فهو الدعاء... عليه أن يتوجه إلى الله بالدعاء فهو سبحانه سميع مجيب.

أيها المظلومون! توجهوا إلى الله بقلوب صادقة، واسألوه أن ينصفكم من ظالميكم، وأن يرفع عنكم ما أنتم فيه من الهم والغم... تضرعوا إلى الله في ثلث الليل الأخير عندما ينزل ربنا عز وجل إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله ويقول: هل من سائل فأعطيه.. اجتهدوا في الدعاء يوم الجمعة من أول اليوم إلى آخره.. ولا سيما من الأذان حتى تقضى الصلاة، فلقد ثبت في الصحيح أن في هذا اليوم ساعة إجابة لا يسأل عبد مسلم ربه شيئاً فيها إلا أجابه ما لم يكن إثماً أو قطيعة رحم ارفعوا أكفكم بالضراعة إليه فإنه سبحانه هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف الضر. استعينوا بالصبر والدعاء وحسن الصلة بالله.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أيها البائسون المنكوبون! إن الجزع والتذمر لا يفعل شيئاً، ولا ينفعكم إلا الصبر والدعاء وتغيير ما أنتم فيه من المخالفات.

وهناك فرق بين الصبر والانهيار... بين الصبر والتخاذل.

إن الصبر على ما أصابك لا يجعلك تنهار أمام الحوادث، ولا يجعلك تنقاد للباطل المستعلي، بل إن الصبر ليحملك على أن تتهم نفسك وتراجع أحوالك وتصلح الفاسد منها، ذلك لأن الله لا يظلم الناس شيئاً، فما يصيب العباد أمرٌ إلا بسبب ذنب اقترفوه.. وفي التاريخ عظة بالغة لمن أراد أن يذكر... فانظروا فيه تروا أنّ المسلمين ما أصابهم مكروهٌ يوماً من الأيام إلا بسبب ما فرطوا في جنب الله منذ أن أصيبوا يوم أحد حتى يومنا هذا.

إن الصبر ليجعلك أقوى من كل قوي؛ لأنك تعوذ بالله وتلوذ بجنابه العظيم، فلا يحملنّك المصاب على الشك أو الريب أو الركون إلى الشيطان وأعوانه.

إنّ الصبر يكسب الأجر، ويخفف الألم بالمصيبة، وإنّ الدعاء يرفع الله به عن الداعين ما أصابهم من البلاء، وإنّ محاسبة النفس تعمل على معالجة أسباب المصائب، وتحمل المسلم على سلوك الصراط المستقيم.

ألا فلنقابل هذه الكوارث العامة..، وتلك الكوارث الخاصة بالصبر والاحتمال والرضى عن الله، وبالاتعاظ ومحاسبة النفس وبالدعاء والتضرع عسى أن يصلح الله أحوالنا ويرفع عنا ما حل بنا... إنه أرحم الراحمين وخير المسؤولين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الورع

إن الورع في الأمور المادية والمعنوية يرفع من شأن صاحبه في الدنيا والآخرة.

أما في الآخرة فلأنّ ثواب الذي يتورع هو النعيم المقيم في الجنة، والحصول على رضوان الله، وما أعظمه من ثواب.. إن الورع يكف المسلم عن الوقوع في المحرمات، لأن الوقوع في المشتبهات يجر إلى الوقوع في الحرام... وهذا يقوده إلى النار.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الحلال بين، وإن الحرام بين. وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا وإنّ لكل ملك حمىً، ألا وإنّ حمى الله محارمه. ألا وإن في الجسد مُضْغَةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب»[1] متفق عليه.

ألا فلنجعل بيننا وبين الحرام ستراً من الحلال لنضمن لأنفسنا النجاة من الوقوع في الحرام، فإن حقيقة الإيمان تتجلى في الورع.

(١) انظر صحيح البخاري ١٦/١ وصحيح مسلم ١٥٩٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن الذي يسهل عليه ارتكاب الشبهات إنه لا بدَّ واقع في الحرام، وسنوضح ذلك بأمثلة عدة... ومن ذلك ما يأخذه كثير من الناس على أنه هدية وهو في الحقيقة سحت لا يحلّ أخذه.

إن إحساس المسلم المرهف ليجعله يدرك المواقف المريبة التي تكون نجاته بين يدي الله بالبعد عنها واجتنابها، وهذا هو ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ في حديث النواس وحديث وابصة.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك[1] في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس»[2] رواه مسلم.

وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «جئت تسأل عن البر؟».

قلت: نعم.

فقال: «استفت قلبك. البرّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[3] رواه أحمد والدارمي مسنديهما.

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت من رسول الله ﷺ:

«دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» رواه الترمذي[4] وقال: حديث حسن صحيح.

وقال النووي: (معناه: اترك ما تشكّ فيه، وخذ ما لا تشكّ فيه)[5].

---

(١) حاك: تردد فيه.

(٢) انظر صحيح مسلم ٧/٨ ومسند أحمد ١٨٢/٤ وسنن الترمذي ٢٨٢/٣ والمستدرك ١٤/٢.

(٣) انظر المسند ٢٧٧/٤ وسنن الدارمي ٢٤٦/٢. قال النووي في باب الورع من الرياض: حديث حسن.

(٤) انظر صحيح الترمذي للألباني برقم ٢٠٤٥.

(٥) رياض الصالحين (باب الورع) ٢٦٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن الذي يتورع عن الشبهات يكون قد ملك أمره، وانتهى عن المحارم، وقام بالواجبات، ويكون قد اتصف بالشخصية الإسلامية المتميزة الأصيلة، ولقد قضت سنة الله تبارك وتعالى في خلقه أنه ما ترك عبدٌ أمراً لله إلاّ عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه.

إن الورع يرفع من شأن صاحبه في الدنيا لأنّ الغنى عن الناس، والترفع عن قبول هباتهم والبعد عن مواطن الشبهات يورث المرء شرفاً وعزاً، ويبوئه مكانة عالية عند الناس، فلقد مضت سنة الله بين عباده أن من يزهد في أموال الناس يكون محبوباً، تلك سنة الله في الأقوام السالفة وهي الآن كذلك وهي ماضية إلى يوم القيامة.

ولقد قضى سبحانه أنّ الطمع في أموال الناس والتكالب على حُطَامِ الدنيا يجلب لصاحبه المهانة، ويسهّل عليه قبول الذلة والعبودية لمن يعطيه.

هذا وقد فطن إلى هذه الحقيقة الراغبون في شراء الأشخاص والضمائر قديماً وحديثاً.. إذ تراهم يجودون بالعطاء لمن يحتاجون إليهم، فيكسبون بذلك تأييدهم وموالاتهم، ومدحهم ونصرتهم، وقديماً قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسان

وليس هناك شيء بالمجان... لا بدّ لمن يأخذ أن يعطي. وقد قيل: «استغن عمّن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره».

[وقد جاء الترغيب في الاستغناء عن الناس والاعتماد على الله رب العالمين في نصوص كثيرة، فمن ذلك أنّ رسول الله ﷺ أوصى مجموعة من الصحابة بأن لا يسألوا الناس شيئاً، فالتزم هؤلاء الأصحاب بهذه الوصية، فكانوا لا يسألون شيئاً، حتى كان أحدهم إذا سقط سوطه من يده وهو على الدابة ينزل فيأخذه بنفسه ولا يطلب من أحد أن يأتيه به.

عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنّا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال:

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ـ «ألا تبايعون رسول الله؟» وكنّا حديثي عهدٍ ببيعة، فقلنا:

ـ قد بايعناك يا رسول الله.

ـ ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا:

ـ قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ (أي قد امتثلنا أمرك وها نحن أولاء باسطون أيدينا فعلى أي شيء تريد أن نبايعك؟)

ـ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا الله» وأسرّ كلمة خفيفة: «ولا تسألوا الناس شيئاً».

فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه. رواه مسلم[1].

ولكن الإسلام العظيم، دين الواقع والحياة لم يجعل ذلك واجباً على الجميع.. بل جعل الاستغناء عن الناس منزلة سامية يتصف بها أصحاب النفوس الكبيرة في المجتمع، الذين يباشرون أمورهم بأنفسهم دون الاستعانة بأحد، ولو كلفهم ذلك جهداً ضخماً ومالاً وفيراً، هذا كله إن كانوا قادرين على الاستغناء ولم يكونوا مضطرين إليه.

أما الناس العاديون فقد أباح لهم أن يستعين بعضهم ببعض في المباحات، ورغبهم في أن يتعاونوا على البر والتقوى فقال تعالى: ﴿**وتعاونوا على البرّ والتقوى**﴾ [المائدة: ٢].

وأباح لهم أن يقبل المرء مساعدة أخيه بشرطين اثنين:

١ ـ أن لا يكون آخذ المساعدة قاضياً أو والياً بأي نوع من أنواع الولاية.

٢ ـ أن يكون لديه الاستعداد لمكافئته إن استطاع وشكره. قال رسول

(١) انظر صحيح مسلم برقم ١٠٤٣ ورياض الصالحين (باب القناعة). هذا وحديث حكيم بن حزام المتفق عليه معروف وهو قوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله». وكان حكيم يأبى أن يقبل شيئاً من أحد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الله ﷺ : «من أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له»[1]وقال: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[2][3].

إن الورع يكون في اجتناب المشتبهات وفي أن يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ، ويكون الورع في الأمور المالية، كما يكون في استعمال الحواسّ والجوارح. وسأضرب بعض الأمثلة التي يتجلّى فيها الورع:

إنّ القاضي يتعرض إلى ألوان من الضغط المعنويّ والماديّ من قبل المتقاضين عنده ويتمثل هذا الضغط بالوساطة والهدية والدعوة إلى الطعام والمديح وإكرام أهله وذويه وقضاء دينه وما إلى ذلك.

فإذا تورع القاضي عن قبول هذا الضغط جلّ في أعين الناس، وكان من الناجين يوم القيامة... إنه بورعه يحافظ على إنسانيته وكرامته وحريته وسمعته.

أما إذا خضع لذاك الضغط فإنّه يفقد حريته، ويلوث سمعته، ويهين كرامته، ويضيّع إنسانيته.. وسيكون ذليلاً أمام أولئك المكرمين، وسيضطر إلى أن يجانب الحق، ويخرج من حدود العدالة، ويركب مركب الجور.

ذكر ابن قتيبة أنّ الحجّاج استعمل قاضياً على الكوفة، فكان يقضي بين الناس، فأهدى إليه رجلٌ سراجاً من شبه (أي نحاس أصفر) وبلغ ذلك خصمه فبعث إليه ببغلة، فلما اجتمعا عند القاضي جعل يحمل على صاحب السراج، وجعل صاحب السراج يقول: إن أمري أضوأ من السراج... فلمّا أكثر عليه قال: ويحك إنّ البغلة رمحت السراج فكسرته[4].

---

(١) صحيح الجامع برقم ٥٩٣٧.

(٢) وهو حديث صحيح انظره في مختصر المقاصد برقم ١٠٧٩.

(٣) ما بين القوسين استطراد مفيد يتصل بموضوع الورع وإن كان موضوعاً قائماً بذاته.

(٤) عيون الأخبار ١/٥٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ونقل ابن قتيبة رحمه الله أنّ بعض السلاطين قال لعامل له:

كل قليلاً تعمل طويلاً، والزم العفاف يلزمك العمل، وإياك والرُّشا يشتدّ ظهرك عند الخصام[1].

إنّ قبول الهدية وأمثالها مما نوهنا بذكره معصية وذلّ، وعبودية وبيع للنفس بثمن بخس، وردّ الهدية وأمثالها طاعة لله، وإيثارٌ لما عنده، وعزٌّ وحماية لحريته في أن يتصرف كما يملي عليه دينه.

وإنّ صاحب الولاية كالموظف الإداري الذي يرجع الناس إليه في الوصول إلى حقوقهم والانتصاف ممّن ظلمهم مطالبٌ أيضاً بأن لا يقبل هدية من مراجع من المراجعين. ويدخل في صاحب الولاية رجال الشرطة والبلدية والمهندسون والولاة الحاكمون وغيرهم كثير.

عن عبد الرحمن الساعديّ قال: استعمل النبيّ ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبيَّة على الصدقة. فلمّا قدم قال؛ هذا لكم وهذا أهدي إليّ.

فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد فإني أستعمل الرجل منكم على العمل ممّا ولاني الله فيأتي فيقول: هذا لكم، وهذا هدية أهديت إليّ. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً، والله لا يأخذ أحدٌ منكم شيئاً بغير حقه إلاّ لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً، له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر» ثم رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه فقال: «اللهم هل بلغت» متفق عليه[2].

وكذلك المدرس فإنه قد يتعرّض إلى محاولات من عدد من الطلاب لإكرامه بألوان من الإكرام: كتقديم بعض الهدايا له، أو قضاء مصالحه

---

(١) عيون الأخبار ١/٦٠.

(٢) صحيح البخاري فتح الباري ٥/٢٢٠ برقم ٢٥٩٧ باب من لم يقبل الهدية لعلة. وصحيح مسلم برقم ١٨٣٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بصورة غير نظامية، أو مساعدته في أمور تحتاج إلى جهد وعناء... إنه مطالب أيضاً بأن لا يقبل شيئاً من ذلك.

إنَّ هذا المدرس سيلقى حرجاً أمام هؤلاء الطلبة إن قبل هداياهم إذا لم تكن مستوياتهم العلمية تتيح لهم أن ينجحوا، وهو بين أمرين كلاهما مرٌّ وقبيح:

- فإما أن يكون منصفاً فيحول بينهم وبين النجاح، وعندئذ سيتعرّض إلى التهديد بالفضيحة وتعييره بقبول المنح والهبات.
- وإما أن يبيع دينه وضميره ووجدانه المسلكي، فينجّح الكسول، وهذا أدهى وأمرّ.

وهذا الأمر الثاني انحراف خطير، وأذى للمجتمع، لأنه يدفع بإنسان جاهل ليتولّى شأناً من شؤون الحياة الاجتماعية والصحية والعقلية في الأمة فيخرب هذه الشؤون ويفسدها أيما إفساد.

إنّ تدني مستوى المثقفين والمثقفات في كثير من البلاد الإسلامية يعود جزء كبير من أسبابه إلى هذه الأزمة الأخلاقية التي يئن منها مجتمعنا... إن هذا المدرس الذي ينجح الطالب الضعيف من أجل خدمات أو هدايا قليلة أو كثيرة رجل باع دينه وكرامته، ومجتمعه وأمته بثمن بخس، وكان خيراً له أن يترفع عن قبول هذه الهدية والخدمات... ومن يستغن يغنه الله ومن يستعفف يعفه الله.

وكذلك المفتش الذي يفتش على الأطباء والمهندسين، والعمال والمعلمين، والموظفين والعسكريين، يتعرض إلى إغراءات كثيرة... وهذا امتحان خطير.

وقد عرفت مفتشاً ورعاً يأبى أن يقبل دعوة من أي مدرس مهما كانت المادة التي يدرسها حتى ولو لم تكن له علاقة بها، لأنه يخشى أن ينتدب لأمر إداريّ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكذلك أولئك الذين تقبل شهاداتهم لدى بعض الجهات الرسمية أو العلمية يتعرّضون لمثل ذاك الضغط وهاتيك الإغراءات.

وإننا لنرى ـ مع الأسف الشديد ـ بعض الذين هانت عليهم كرامتهم يقولون ما لا يعتقدون خضوعاً لذاك الضغط الذي ربما كان هدية أو أمراً من الأمور التافهة السخيفة.

وهم مساكين لأنهم يظنون أنّ هذا ينطلي على الناس.. مع أنه لا بد من أن ينكشف، فيكون ذلك سبباً لاحتقارهم ولمضايقتهم في رزقهم.

أيها الدعاة

عليكم بالورع في أمور حياتكم كلها.. ففي ترك الورع قسوة للقلب، وكلّ ما أورث القلب قسوة فلا خير فيه، إن في أخذ المال من شبهة وقوعاً محققاً في الإثم، وربما لا ينفق من جمعه شيئاً منه، ويحظى به الورثة فينفقونه فيما يجوز وفيما لا يجوز، فتقع المحنة على آخذ المال، ويحرم من المتعة وتجب العقوبة.. ويندم ولات ساعة مندم.

وإذا استيقظ المرء من غفلته في الدنيا كدّر عليه تأنيب الضمير حياته، ووضعه في قلق دائم الخوف من العذاب يوم القيامة.. فاتقوا الله وحاذروا من الوقوع في الشبهات والمحرّمات...

ومن الورع وقاية اللسان والسمع والعين.. فلا يطلق المرء لها العنان دون مراقبة وخوف من الله.

فليحذر المرء من لسانه وعينه، وكذلك السمع، ذلك أن كثيراً من الناس يظنون أن امتناعهم عن الكلام ينجيهم من المسؤولية.. فهناك حالات يستطيع المرء إسكات المتكلم بالسوء.. فإذا كان يستطيع ذلك فلا بد من أن يسكته بالطريقة المناسبة التي لا تجر بلاء أكبر.

أما إذا كان لا يستطيع إسكاته وكان قادراً على مغادرة المكان فعليه أن لا يقعد في ذاك المجلس... إن خروجه هو أدنى مراحل الورع.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النصح... وتقبل النقد

يقول الله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تتعاونوا على الاثم والعدوان**﴾ [المائدة: ٢].

إنّ التعاون على البرّ والتقوى من السمات التي تميّز المجتمع الإسلامي عن سواه.. إنه تعاون صادق ينبعث عن أعماق القلب، خالص لا يقوم على ابتغاء المنفعة، هادف خير؛ ذلك لأن التعاون أمر طيب عندما يكون قائماً على الخير والبر والتقوى. ومن أبرز مظاهر التعاون المحمود التناصح والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر فقد ذكر ربُّنا تبارك وتعالى هذا الخلق الكريم من أوصاف المؤمنين فقال: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾ [التوبة: ٧١]. وذكر لَعْنَ الذين كفروا من بني إسرائيل لأنهم كانوا لا يتناهون عن المنكر فقال: ﴿**لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وإنّ رسول الله ﷺ جعل الدين هو النصيحة وذلك في قوله: «الدين النصيحة». قيل: لمن؟ قال: «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» رواه مسلم(١).

(١) انظر صحيح مسلم ١/٥٣ وانظر مختصر المقاصد برقم ٤٧٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فمن الواجب على المسلمين أن يتناصحوا فيما بينهم، وأن يتآمروا بالمعروف، ويتناهوا عن المنكر، ذلك لأنّ المسلم مرآة أخيه، يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة: «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه» رواه البخاري في الأدب المفرد وأبو داود[1] بإسناد حسن.

إنّ المسلم ربما لا يبصر عيب نفسه فيقوم أخوه بإهداء عيوبه إليه لينحّيها عن نفسه، وتشبيه المؤمن بالمرآة تشبيه يأخذ بمجامع القلوب، لأنه يطابق الواقع تمام المطابقة ويجلي الموضوع أوضح تجلية.

إن النصح حق المسلم على أخيه، كما جاء في الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ «حق المسلم على المسلم ست: إذا لقيته فسلّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمّته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» رواه مسلم والبخاري في الأدب المفرد[2].

وللنصيحة آداب، ومن أهمّها أن تكون بأسلوب مهذّب لا يجرح شعور المنصوح ولا ينفره، وأن تكون سرّاً، وأن يكون الناصح مخلصاً في نصحه لا يريد إلاّ الله والدار والآخرة، وأن ينأى بنفسه عن التعالي واحتقار الآخرين، والغرور والتكبّر، وأن يوطّن نفسه على احتمال ما يمكن أن يلقى من الأذى... إلى آخر هذه الآداب.

إنّ علينا أن نشكر من ينصحنا، وأن ننظر في كلامه بموضوعية تامّة، فإن كان الذي ذكره موجوداً فينا سارعنا إلى شكره أولاً، ثم عملنا بنصيحته ودعونا له دعوة صالحة أن ذكّرنا ونبّهنا، وإن لم يكن ذلك فينا شكرنا له غيرته ورغبته في الخير وبيّنا له الحقيقة.

---

(١) انظر «صحيح الجامع الصغير» برقم ٦٥٣٢ وانظر الحديث ٦٥٣١ أيضاً فقد أورد الشطر الأول. وانظر «الأدب المفرد» ٣٧ وأبو داود برقم ٤٩١٨ وانظر «مختصر المقاصد» بتحقيقنا برقم ١١٢٤.

(٢) انظر صحيح مسلم ٤/١٧٠٤ برقم ٢١٦٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبإمكاننا أن نعدّ النقد الشديد نصحاً لم يلتزم صاحبه بآداب النصح ولم يستعمل الأسلوب الليّن المهذّب.. ولكنه على أية حال نصحٌ يمكن أن نفيد منه أعظم الفائدة، ولا ينبغي أن يزهّدنا في قبوله أنه كان شديداً.

وتقبّل النقد فنّ، وكلّما اتسع صدر المرء لنقد الناقدين كان أقدر على الانتفاع من كلامهم الذي أرادوا به في ظنّه الإساءة إليه.. إنّه عندئذٍ يسخّر جهود الناقدين من أعداء وغيرهم للنهوض بنفسه، ويستبعد الألم ويحوّله إلى لذة.

لماذا نخاف من النقد؟ إنّ الناس العاديين التافهين لا ينتقدون.. ولا ينتقد إلاّ من كان كبيراً في نظر ناقده أو مرموقاً عند الناس.

ولننظر في نقد الناقدين: فإن كان حقاً فعلينا أن نتقبله مسرورين، وإن كان باطلاً فيكفينا شرفاً وسروراً أنّ الذي عَنَّى نفسه لينال منّا لم يستطع أن يجد فينا شيئاً يشنّع علينا به فلجأ إلى الكذب والافتراء ولم يقل إلاّ باطلاً... والحقيقة لا بدّ أن تنجلي ولو بعد حين.

وقد اعترف كثير من النابهين بأنّ سبب نجاحهم في الحياة يعود إلى أعدائهم لأنهم استفادوا من نقدهم وذكرهم لنقائص موجودة فيهم، ذلك لأنّ العدو الحاقد يحمله حقده وعداوته على اكتشاف عدد من العيوب في الذي يريد نقده ما كان له أن ينتبه إليها لولا هذه العداوة.

إنّ عيون المبغضين عيون حساسة دقيقة تستطيع معرفة نقاط الضعف، إنّ تضخيم النقص في الإنسان أعون على معرفته لتلافيه، كما هو الشأن في الجراثيم التي توضع تحت المكبّرات لتحديد حقيقتها.

أما محبّونا فإنّهم لا يرون عيوبنا ولا نقائصنا... فهم بعامل من المحبة يتحولون إلى معجبين، يرون في مساوئنا حسنات ومزايا... ولكنّ ذلك لا يغني من الحق شيئاً.

إنّ على المسلم الواعي أن يسمو فوق رتبة الإنسان العادي من الدهماء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الذي يوجعه النقد وينغّص عليه حياته، إنّ عليه أن يقطع على الكائدين والماكرين طريق الكيد والمكر، وليتذكر أنّ الله لا يغفل عن الظالمين المفترين.

إننا في الحقيقة نقع في أخطاء كثيرة:

- بعض هذه الأخطاء لا نعرفها ولا ننتبه إليها.
- وبعضها نعرفها ونظنّ أنّ الناس غافلون عنها.
- وبعضها لم نكن نحسب أنّ أحداً في الدنيا يعدّها من الأخطاء.

وفي كلّ هذه الأحوال فإنّ معرفتها تعود علينا بالخير. وغالباً ما يكون الخصوم والأعداء أقدر على معرفتها منا ومن أحبائنا. فلا يضقْ صدرُ المرء منّا عن تقبل النقد، ومحاولة التخلي عن العيوب التي يدرك أعداؤنا وجودها فينا.

إن الشيء الذي يقال عنّا لا يبلغنا دائماً ولا نسمعه.. إنَّ عدم سماعنا إياه لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً.. فلا يكن في صدورنا حرج أن نسمعه وأن نحاول التخلص منه.

إن المرء لا يستطيع أن يرى وجهه إلاّ في مرآة، فإذا واجهتك المرآة بقذىً في عينك أو نخامة انحدرت على أنفك، فلا تكسر المرآة ولا تشتمها، إنّها كشفت لك عيبك، بل عليك أن تشعر بعميق السرور والرضا أن عرفت ذلك لتزيله.. وعليك أن تسارع إلى تنحية الأذى عنك لتبدو أمام الناس على الوجه السويّ الحسن، وقد قيل: رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي.

وقال بعضهم:

صديقي مرآةٌ أميط بها الأذى ... وعضب حسام إن مُنعتُ حقوقي
وإن ضاق أمرٌ أو ألمت ملمةٌ ... لجأتُ إليه دون كل شقيق[1]

إذا كان هذا هو الوضع الذي يجب أن نسلكه إزاء أقوال أعدائنا فما القول في نصح المحبين من الأصدقاء والأقربين؟

(١) المقاصد الحسنة ٤٣٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإن لم يتوافر لنا من ينقدنا فعلينا أن نتهم أنفسنا، ونضعها موضع النقد حيناً بعد حين، والخلوة مع النفس للمحاسبة والمصارحة طريق لإصلاح الذات، إن الإنسان على نفسه بصيرة، وهو يعرف كثيراً من نقط الضعف.. وربما عرف من نفسه ما لا يعرف الآخرون... وهو مستعدّ للاعتراف بها بينه وبين نفسه وإن كان يعز عليه أن يقررها أمام الآخرين.

علينا ألاّ نخادع أنفسنا، وأن نعمل على تقويمها حتى تكون على الوجه الذي يريده الإسلام... إن الرجل ربما يطرب بصوته وغنائه، لكن ذلك يجب أن يبقى في حدود ذاته، ولا يجوز أن يحمله ذلك على أن يخرج على الناس في نواديهم ومجتمعاتهم يصدّع رؤوسهم بإسماعهم الصوت المنكر.. إن ذلك يجر عليه السخط والازدراء، والمهانة والإيذاء.

إننا لن نستفيد شيئاً إذا بقينا نحسب أننا موهوبون عباقرة ونحن مترعون بالعيوب والنقائص.. إن الذي يعيش في أمانيه سرعان ما يرتطم بصخرة الواقع فتتدمر نفسه وعقله.

لا يجوز أن نبقي على عيوبنا ونعدّ ذلك أمراً محتوماً لا يمكن الخلاص منه، فالعلم بالتعلم والحلم بالتحلم، واعلموا أن سماع النصح وقبول النقد ومحاسبة النفس هو الطريق الذي يقودنا إلى الاتصاف بمكارم الأخلاق ورسول الله ﷺ يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

(١) وهو حديث صحيح انظره في مختصر المقاصد الحسنة رقم ١٨٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا ييأس المؤمنون

إنّ الإنسان بطبيعته البشرية التي فطره الله عليها، لا يقوى على الاستمرار في وضع واحد مدة طويلة، إنه يملّ ويتعب،.. ويضعف ويعجز.. ويشتهي ويتطلع.. ويعزف ويتكاسل.. هذا هو الوضع السويّ للإنسان.. إنّه في تموّج ما عاش.. ولربما كانت هذه الفطرة هي التي تلوّن حياته بما يُبهجه وبما يمتعه؛ لأنّ المحافظة على نمط واحد وعدم الخروج عنه أقربُ إلى الموت، فالحياة حركة دائمة، ليل ونهار... برد وحرّ.. غنى وفقر.. صحة ومرض.. يقظة وغفلة.. طفولة وشيخوخة.. وهكذا.. ولما كان الإسلام دين الله الخالد، أنزله رب العالمين ليكون خاتمة رسالاته إلى أهل الأرض، وليطبق في عالم الواقع والحياة، فقد راعى هذه الفطرة مراعاة تأخذ بالألباب.

لن يستطيع الإنسان أن يبقى في مستوى مترفع عن الانحراف.. فإذا وقع في الغلط.. تقدم هذا الإسلام وأخذ بيده ليقرر له أنّ باب التوبة مفتوح ما دامت الشمس تطلع مِنْ مشرقها وما لم يغرغر العبد، وأن من طبيعة الإنسان الوقوع في الخطأ، فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون. وليقرر له أيضاً أنّ من صفات المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم أثابوا إلى ربهم ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين. والذي إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أمر العاملين﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

وحرم على المسلم اليأس من رحمة الله **﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** [يوسف ٨٧] ذلك لأن اليأس هو الموت.. وهو الإفلاس.. وهو الفساد.. وهذا نداء الله يلامس أسماعنا وقلوبنا ينادي العصاة الضالين ليعودوا إلى سبيل الطاعة والحق.. ينادي العباد المذنبين نداء ما أرقه من نداء، وما أرحمه وما أحلاه **﴿قلْ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾** [الزمر: ٥٣].

إنَّ الأمل الباسم بالمستقبل المشرق ليحمل صاحبه على أن ينهض بنفسه ليغسل عار الانحراف والضعف، حتى يصبح من الصالحين الأقوياء. ليس هناك ذنبٌ يجلّ عن التوبة والله عزّ وجلّ يدعو الناس جميعاً إلى دار السلام قال تعالى: **﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** [يونس: ٢٥] هذا في حدود ذات الإنسان وتصرفاته.. وكذلك فإنَّ على الذين يقومون بمهمة الدعوة إلى الله ألاّ ييأسوا مهما تكاثفت في وجوههم الظلمات والعقبات.. إنّ أمام أهل العلم والدعوة صعوبات كثيرة قائمة، وصعوبات أخرى متوقعة، وهي تختلف من بلد إلى بلد باختلاف الظروف التي يعيش فيها الناس. هذا أمر لا يشك فيه أحد من أهل البصر والوعي.

وليس في الحياة الدنيا مطلبٌ ينال بمجرد التمني... بل لا بدَّ من العمل الدائب، والصبر المستمر، والأمل المشرق الوهاج، إنّ أولى الخطوات التي ينبغي أن يخطوها الداعية في سبيل الدعوة إلى الله أن يطارد في نفسه أي شبح من أشباح اليأس، وأن يقتلع جذوره من نفسه وتفكيره.

إن النفس الكبيرة لا تعرف اليأس، ولا تدع له مجالاً ليتسرب إلى جوانحها... إنها لترى كل ما يستعظمه الناس هيناً صغيراً ممكن التنفيذ،

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذا وحده يعطي المرء قوةً لا حدّ لها تجعله قادراً على أن يحقق ما يعجز عنه الكثيرون.

وإذا استطاع المرء أن يتحرر من قيود اليأس وأن يطرده من داخل نفسه فليطمئنَّ عندئذ أنه سار إلى أمانيه بخطى واسعة وأنه مدرك قصده بمشيئة الله. ولماذا ييأس الداعية الصادق وهناك حقيقتان ثابتتان.

أما أولاهما فهي أنّ الله مع المخلصين الصادقين ﴿**إنَّ اللهَ مع الذينَ اتقوا والذينَ هُم مُحْسِنونَ**﴾ [النحل: ١٢٨]. ﴿**والعاقبة للمتقين**﴾ [القصص: ٨٣].

وأما الثانية فهي صلاحية مبادئ الإسلام وموافقتها للفطرة وقدرتها على تقديم الحلول الناجعة لكل ما يشكو منه الإنسان.

ومما يمكّن الداعية أن تمتلئ نفسه بالأمل وأن ينطلق في دعوته بهذه الروح المتفائلة أن يتذكر دائماً أن النجاح لا يقاس بالمظاهر التي قد يتوهمها بعض الناشئة السذج، وأن التحويل والتغيير لا يتم لسنوات معدودات، وانتقال المجتمع من عالم المعصية والانحراف إلى صراط الله السوي لا يتم بطرفة عين، ولا بالمدة التي يتصورها كثير من الناس. ولنا في قصص القرآن والسنة أمثلة حية ناطقة بهذه الحقيقة، فنوح عليه السلام لم يتحقق له ما يريد مع أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، والغلام الذي وقف أمام الطاغية مدعي الألوهية ـ كما أخبرنا عن قصته رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح[1] ـ قُتِل قبل أن يحقق ما كان يريد ولكنَّ هذا كان في ظاهر الأمر فقط، غير أنه في الحقيقة كان خلال هذه اللحظة الحاسمة هو المنتصر، فعندما قال الطاغية «باسم الله رب الغلام» أصاب منه مقتلاً بعد أن عجز عن إزهاق روحه قبل ذلك مرات ومرات. وعندئذ آمن الناس ودخلوا في دين الله أفواجاً. وما أكثر ما نقرأ من قصص كان أبطالها موضع السخرية، أو في أقبية السجون، أو

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم برقم ٣٠٠٥ وهو أيضاً في باب الصبر من رياض الصالحين.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على أعواد المشانق، ولكنَّ فكرهم كان هو الغالب ومبادئهم كانت هي المنتصرة.

أيها الدعاة، املؤوا أنفسكم بأشعة الأمل ونوره الوهاج، ليفيض كلمات طيبات وتصرفات بناءة. لا تيأسوا من إمكانية النصر مهما رأيتم من تكالب أعدائكم وتسلطهم عليكم، سواء كانوا شيوعيين أو مستعمرين أو يهوداً أو نصارى. فإن الله معكم إن صدقتم وصبرتم وأخلصتم **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾** [العنكبوت: ٦٩].

قال تعالى على لسان يعقوب: **﴿ولا تيأسوا من رَوْح الله، إنّه لا ييأس من رَوْح الله إلاّ القوم الكافرون﴾** [يوسف: ٨٧].

إنّ الذي يطّلع على ما يجري في حياة المسلمين اليوم يتألم أشدَّ الألم؛ لما يعانونه من كيد الأعداء، ومحاولتهم سحق قوتهم، والقضاء على يقظتهم ونهضتهم، وقتل علمائهم ومصلحيهم، ولم يقف الأمر عند هذا... بل إنَّه ليزيد في ألم المطلع على أحوال المسلمين إعراضُ هؤلاء المسلمين عن الأخذ بأسباب القوة والغلبة، والتمادي في المعصية، والبعد عن سبيل الهدى، ومخالفة نهج الإسلام في جوانب حياتهم المختلفة ولا حول ولا قوة إلا بالله. إنّ المسلمين يواجهون اليوم أزمة عنيفة تتهدّد وجودهم...

إنَّ قوى خفية وظاهرة تناهض دينهم...

إنّ معطيات العلم والحضارة المعاصرة تُسَخَّرُ لمحاربتهم.

وإنَّ أحوالنا... ومواقفنا.. وانحرافنا.. كل ذلك يعين العدوَّ على تحقيق الكثير ممّا يريد.

ينبغي أن نعترف بأننا نعاني أزمة خلقية... وأزمة روحية... وأزمة فكرية.. وأزمة سياسية.. وأزمة اجتماعية... وأزمة اقتصادية..

هذا حق وواقع، والاعتراف به مفيد لنعمل على تغييره وإصلاحه.. ولكنّه يتحول إلى خطر عظيم إذا انتهى اعترافنا به الى اليأس.. إننا نكون

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عندئذٍ قد حققنا لعدونا كل ما يريد. والقرآن الكريم يقرّر ﴿**إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون**﴾ وقال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿**قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون**﴾ [الحجر: ٥٦] إنّ اعتمادنا على الله تبارك وتعالى يعطينا قوة لا تقهر، وهذا هو الفرق بيننا وبين الكفّار، إذ نشترك معهم في الألم لما يصيب كلاً منا من الضر، ولكنّنا نرجو من الله النصرة إن نصرناه، وهم لا يرجون شيئاً، يقول تعالى: ﴿**ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً**﴾ [النساء: ١٠٤].

تذكر كتب السيرة أنّ أبا سفيان حين أراد الانصراف من غزوة أحد أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: أنعمت فعال، إنّ الحرب سجال، يومٌ بيوم بدر، أعلُ هُبَل - أي أظهر دينك - فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عمر فأجبه فقل: الله أعلى وأجلّ، لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار» وقال أبو سفيان: إنَّ لنا العزّى ولا عزّى لكم. قال رسول الله ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»(١). أجل الله مولى الذين آمنوا، والكافرون لا مولى لهم كما قال تعالى: ﴿**ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم**﴾ [محمد: ١١].

إن الإسلام العظيم الذي حرّم اليأس على أتباعه ينادينا في ساعة العسرة التي تمرّ بنا في هذه الآونة أن نأخذ أنفسنا بالعزيمة، ونواصل الجهد، ونسير في طريق الحق والخير، نرجو ما عند الله، فتهون في أعيننا العقبات والصعوبات، ونكون على المستوى الكريم الذي أراد الإسلام لنا أن نكون عليه: أعزةً أمام خصومنا، أذلة بين يدي ربنا، رحماء بيننا، متعاونين مع إخوتنا. إن علينا أن نضاعف من جهودنا الفكرية والروحية لنكون روّاداً للأجيال المقبلة، وطليعة مؤمنة تتقدم صفوف المجاهدين؛ ولا يجوز أن تقعد بنا تلك الأحوال عن متابعة العمل بسبب اليأس. إنَّ الزمن يمضي.. ونحن نتقدّم في السن.. ولن يحسَّ الواحد منّا بعد حين إلاّ وقد أشرف على نهاية

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ٢/١٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العمر.. قارب الستين أو جاوزها، فلا يجوز أن يبقى الواعون من الصالحين الروّاد على ما كانوا عليه عملاً وسلوكاً، وفهماً ووعياً، وإخلاصاً وإيثاراً لما عند الله.. بل لا بدَّ لهم من أن يتقدموا صعداً في ذلك كله، تمضي السَّنة بعد السَّنة ولا نشعر بأننا قد كبرنا سنة واقتربنا من نهاية حياتنا سنة. وإن لم يعمل الواعون المثقفون الدعاة على تقدم الركب منارات تحثّ على الاقتداء، فسيبقى الحال على ما هو عليه. وقد يزداد تأخراً وتراجعاً.

وفي الدعوة إلى الله طريقان متكاملان، يكمل أحدهما الآخر:

طريق سلبيّ يردّ على المعارضين، وينتقد المتقاعسين، **وطريق** إيجابي يقوم على بناء النفوس وتوضيح الدعوة.

والملاحظ أن الطريق السلبي هو الذي يستهلك جهود كثير من العاملين للإسلام، ولا يكادون يعطون الطريق الإيجابي حقه من الاهتمام، فيساعد ذلك على التمكين لليأس أن يسيطر.

إن الطريق الايجابي هو الطريق المجدي الذي يعود علينا وعلى مجتمعنا وعلى دعوتنا بالخير والتقدم والنماء، إنّ الاقتصاد في الأمور السلبية مطلوبٌ منا اليوم... ذلك لأن مناقشة المعوّقين، وانتقاد المتكاسلين، ينبغي أن يبقى في الحدود التي لا تستغرق جهودنا كلها، إنّ انشغالنا في ذلك يزيدنا ضعفاً وتقاعساً وتخلّفاً.. وقد يكسو قلوبنا ظلمة، وهو بكل تأكيد يصرفنا عن العمل الأهمّ.. إنّ انشغال إنسان في الجدل والكلام والنقد يمنعه من العمل. وانظروا إلى أكثر القوّالين تجدوهم من أقل الناس عملاً، والدعوات إنما تنجح بكثرة العاملين الصادقين.. أما المتفيهقون الثرثارون فهم من أبعد الناس عن الهدى والحق ورضوان الله.. هذا بالإضافة إلى أن الإكثار من الردّ والمناقشة ربما يدخل على المرء والسامعين اليأس... وهذا من أخطر ما يواجه الدعاة الى الله.

إنَّ الكلام الكثير المملوء بالنقد والقسوة مع قلة العمل قد زَهَّدَ الناس في المتكلمين. والناس يتأثرون بالعامل أكثر من تأثرهم بالقوال المهذار. ومن طبيعة البشر أنهم ينفرون من الذي يشتم ويذمّ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هذا وإنّ بروز العلماء والدعاة أمام العامة أنهم أرباب قول لا عمل يفقدهم القدرة على القيام بواجب القيادة الفكرية والتأثير على المدعوّين. وقد ضرب الله لنا مثل الذين يحملون الحق ولا يعملون به فقال سبحانه وتعالى: **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾** [الجمعة: ٥].

وقد قيل: تعلم العلم لتعمل به، ولا تتعلمه لتحدث به، فيكون عليك بوره، ولغيرك نوره.

والعمل يجعلك على صلة دائمة بما تعلمته، ومن هنا قيل: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

فعملنا الدائم، وسلوكنا الموافق لما ندعو الناس إليه عون لنا ولمن نلقى على أن يطردوا شبح اليأس من أمام أعينهم.

إن اليأس أعظم خدمة نقدمها لأعدائنا.

والإسلام عندما يحرم على أتباعه اليأس، إنما يريد استنهاضهم كلما ضعفت قواهم، ونزلت بساحتهم الكوارث والمصائب. فالمؤمن العامل الصادق لا ييأس مهما كانت الأحوال سيئة، ومهما كان من عدوان خارجي وتقصير من قبل المسلمين **﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾**.

ويقول تعالى: **﴿قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾** [الزمر: ٥٣].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المراقبة

يقول تعالى: ﴿**له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم. هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير**﴾ [الحديد: ٢ ـ ٤].

إنّ المسلم في هذه الحياة يختلف عن غيره من البشر، ذلك لأنه يؤمن بما دلت عليه آيات القرآن التي تثبت لله تبارك وتعالى، صفات الكمال من القدرة المطلقة، والعلم الواسع، والاطلاع الشامل، فالسموات وما فيهن والأرض وما عليها ملكه تبارك وتعالى، وهو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء عليم... يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها.. جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، إنّ الذي يؤمن بوجود هذا الإله القادر العليم لا يمكن أن يقع في معصية ولا أن يتخلف عن أداء واجب موقوت. ﴿**وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير**﴾.

ولقد سأل سائل رسول الله ﷺ أسئلة وأجابه عليها، وكان من جملتها سؤاله عن الإحسان فقال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

(١) انظر صحيح مسلم برقم ٨ وسنن أبي داود برقم ٤٦٩٥ وسنن النسائي ٩٧/٨ وسنن الترمذي.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن هذا المستوى الرفيع من مراقبة الله عز وجل هو الذي نحتاج إليه اليوم في حياتنا، إننا مفتقرون إلى أن نتصور دائماً هذا المعنى العظيم. **(إن لم نكن نرى الله فإنه تبارك وتعالى يرانا)**.

إنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إنه يعلم السر وأخفى.. **﴿إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾** [لقمان: ١٦].

إن تصور هذا المعنى وتذكره دائماً ليساعد المرء على القيام بالواجبات، واجتناب المحرمات.. إنه يعينه على استحضار عظمة الله وقدرته، فيحول ذلك بينه وبين التقصير.. إن ذلك يحقق مراقبة العبد لله في أفضل مستوياتها ومن مراقبة العبد لله أن يراقب نفسه ويتهمها حرصاً منه على سلامة العمل الذي يقوم به من الرياء أو الشرك.

أجل ينبغي أن يراقب نفسه قبل العمل، وأن يراقبها أيضاً في العمل، وأن يسأل نفسه هذا السؤال:

هل دفعه إلى عمله وحمله عليه وحركه نحوه هوى النفس أو الرغبة في الثناء أو ابتغاء المال أو الشهوة؟

أم دفعه إلى عمله وحمله عليه وحرّكه نحوه الانقياد لله ولشرعه وابتغاء مرضاته وامتثال أوامره تبارك وتعالى؟

إنّ عليه أن يراقب نفسه في هذا كله. وأن يطرح عليها هذه الأسئلة، وأن يكون في هذه اليقظة التامة.

والإنسان يعرف نفسه **﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾** [القيامة: ١٤]، وهو بينه وبين نفسه يعترف بالحقيقة ولا يجد غضاضة في الاعتراف بذلك.. فإذا وجد أنّ الذي دفعه لهذا العمل شيء من هذه العوامل الدنيوية المذمومة فليترك هذا العمل وليقلع عنه، وأما إن كان الذي يدفعه إلى عمله ابتغاء ما عند الله وكانت النية خالصة لله فليمض في عمله فإنه عمل مبارك ميمون.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند همه، فإنْ كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر.

وإن من أعظم ثمرات المراقبة لله عز وجل الإقلاع عن المعاصي والتوبة منها، ذلك لأن الذي يتصور هذا المعنى عند همّه بالمعصية... عندما يتصور أنّ الله ناظر إليه، لا يمكن أن يقدم على المعصية ويقع فيها.. وكذلك الذي يتصور هذا المعنى وهو في المعصية فإنّه يقلع عنها ويندم على فعله، ويؤوب إلى الله مستغفراً ويستحيي من الله الذي يعلم ما في الصدور ويعلم ما يعمل الناس، ولذلك ورد في الحديث:

«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر شاربها حين يشربها وهو مؤمن»[1] إن الإيمان في تلك اللحظة لا يكون مستيقظاً ولا كاملاً ولا نامياً.

إن الرجل لا يستطيع أن يخالف النظام إذا رأى الشرطي واقفاً أمامه، لأنه يعلم أن الشرطيّ يستطيع أن يسجنه وأن يحوله إلى المحكمة أو يعاقبه أو يوبخه.. لذلك تراه يمتنع من فعل المخالفة لأن الشرطي ناظر إليه، فما قولنا إذا كان جبار السموات والأرض الذي لا تأخذه سنة ولا نوم يطلع عليك وعلى أحوالك، ويعلم ما توسوس به نفسك، وهو أقرب إليك من حبل الوريد، وقد أعدّ للمطيع الجنة والثواب، وللعاصي النار والعقاب.

إن نعم الله التي منّ بها علينا كثيرة لا تحصى، ونحن مطالبون بأن نقوم بشكرها ﴿**واشكروا لي ولا تكفرون**﴾ [البقرة: ١٥٢] ووعد بالمزيد من هذه النعم إن نحن كنا من الشاكرين ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾ [إبراهيم: ٧].

إننا لو نظرنا في حياتنا وواقعنا لوجدنا أنفسنا مغمورين بهذه النعم الجليلة: من الطعام الشهي، إلى العيش الرخي، إلى الأمن في الحياة، إلى المتع التي لا تحصى.. إن كثيراً من الناس محرومون منها، بل إن كثيراً منّا عانى في سابق أيامه من الحرمان منها ومن أمثالها، أفلا يجدر بنا أن نتدبر في

(١) البخاري ٩١/٧، مسلم ٥٤/١، ابن ماجه برقم ٣٩٣٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

هذه النعم ونسأل أنفسنا من منحنا إياها؟ إن هذا يصل إلى مراقبة الله تبارك وتعالى في هذه المباحات من المنن، إن شكرها الحق لا يكون في اللسان فقط بل يكون بأن نستعملها فيما يرضيه تبارك وتعالى. وأن نتخذها عوناً لنا على طاعة الله.. وهو تبارك وتعالى يرانا ويعلم ما تكنه صدورنا ﴿**ألم يعلم بأن الله يرى**﴾ [سورة العلق: ١٤] ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾ [الرعد: ٣٣].

قال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى.

فقال الرجل: ما معنى مراقبة الله؟

فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل.

وذكر الغزالي قصة جميلة، تبرز هذا المعنى بوضوح فقال: يحكى أنه كان لبعض الأساتذة الذين يتولون التوجيه والتربية طائفة من الأتباع والتلامذة، وكان فيهم شاب يكرمه ويقدمه. فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ. فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه فيه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك، وقال له مثل ما قال لهم.

ورجع كل واحد بطائره مذبوحاً، ورجع الشاب والطائر حيٌّ في يده.

فقال: ما لك لم تذبح كما ذبح أصحابك. فقال: لم أجد موضعاً لا يراني فيه أحدٌ، إذ الله مطلع عليّ في كل مكان. فتبيّن لهم فضل هذا الشاب، واستحسنوا منه هذه المراقبة، وقالوا للأستاذ: حق لك أن تكرمه.

وقال بعض الصالحين:

لم يتزيّن القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأنّ الله شاهده حيث كان.

وقال آخر:

لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك لقد كفرت.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ذكروا أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بينما هو في طريقه إلى مكة، إذ انحدر عليه راعٍ من الجبل فقال له: يا راعي بعني شاة من هذا الغنم - يختبره - فقال: إني مملوك.

فقال: قل لسيدك أكلها الذئب. قال: فأين الله؟

فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من سيده وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

هنيئاً لأولئك الذين إذا قاموا بطاعة الله أدّوها كأنهم يرون ربهم... أدوها خالصة له لا تشوبها شائبة ما.

وهنيئاً لأولئك الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا علم الله واطلاعه وعظمته، فراقبوه وامتنعوا عن الوقوع في سخطه.

وهنيئاً لأولئك الذين يعترفون بنعم الله عليهم ويشعرون بأن الفضل لله عليهم في ذلك فيشكرونه باستعمالها فيما يرضيه.

إن هؤلاء جميعاً أهل لأن تنالهم رحمة الله ولأن يكونوا في جنة الله يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذٍ لله.

قال تعالى:

﴿ويوم يُحشرُ أعداء الله إلى النار فهم يوزَعون. حتى إذا ما جاؤها شَهِدَ عليهم سمعُهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرْجَعون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم، ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيراً مما تعملون. وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أَرْدَاكُمْ فأصبحتم من الخاسرين. فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وأن يَسْتَعْتِبوا فما هم من المُعْتَبين. وقيّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحقّ عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والأنس إنهم كانوا خاسرين﴾ [فصلت: ١٩ - ٢٥].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنّ مراقبة الله عصمة للمرء من السقوط والانحراف، وسبب الفوز والنجاة. وهي دليل الايمان الصادق، وبها يذوق المسلم طعم العبادة ويجد حلاوتها في قلبه. وإذا استطاع المسلم أن يحقق معنى المراقبة في حياته عظم شأن التجربة التي يمارسها، وأصبح للحياة شأن وأي شأن، وشعر بكرامته الإنسانية... وأحسَّ بارتفاعه وعلو مكانته.

يا أخي

إنّ الله ناظر إليك، ومطلع عليك. تدبّر هذا المعنى تمام التدبر. إن ذلك كاف ليغير كثيراً من أحوالك.. إنّ نظرة إنسان مرموق إليك يجعلك تتأنق في ملبسك، وتتأدب في كلامك، وترق في معاملتك، وترفق بمن يتصل بك، وتخشى أن يصدر منك ما يوجب لومه إياك وتغيره عليك وعقوبته إن كان من ذوي السلطان.

فكيف بك يا أخي عندما تستطيع أن تتصور أنّ الله خالق الخلق ومدبر الكون وملك الملوك ينظر إليك ويطلع عليك؟

إنك عندئذٍ سيتغير كل شيء عندك.. إنّ عبادتك لربك، وَمُعَامَلَتَكَ للناس ستكونان غير عبادة الغافلين ومعاملتهم.. ومن هنا جعل رسول الله ﷺ الاحسان من أسمى المنازل وعرفه بقوله:

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1] إن الإنسان عندما يكون بين الناس لا يأتي بما ينبو عن الذوق أو يجافي العرف، ولا يقدم على ما يستنكره الناس. فكيف بالعبد مع خالقه؟؟

إنّ مراقبة الله سبب الفلاح.. والغفلة عنها هي المردية.

والآيات الكريمة التي قدّمناها بين يدي هذه الكلمة تعيننا على الوصول إلى مراقبة الله عز وجل، وذلك عندما تعرض علينا مصيراً بائساً لقوم غافلين لم يراقبوا الله، ولم يعلموا أنه تبارك وتعالى مطلع عليهم وناظر إليهم.. إنهم

(١) انظر تخريجه صفحة ١٣٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كانوا مسرفين على أنفسهم يعصون الله، وقد ظنوا أنهم يستطيعون الإفلات من رقابة الله واطلاعه وعلمه، فكان ذلك سبب هلاكهم ﴿**أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون**﴾ [العنكبوت: ٤] وكانت المفاجأة المذهلة لهم تتمثل في أنّ سمعهم وأبصارهم وجلودهم شهدت عليهم. ولهول المفاجأة خاطبوا جلودهم قائلين: لم شهدتم علينا؟ وكأنهم كانوا يظنون أنهم سينجون لولا هذه الشهادة، وقد غفلوا عن أن الله الذي أنطق تلك الجلود عالم بخفاياهم، يعلم السرّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وهناك حوار رائع طريف، يجري بين العبد المسرف على نفسه وبين ربه سبحانه، ثم حوار يجري بين هذا العبد وجوارحه، ضحك له رسول الله ﷺ عن أنس قال:

كنّا عند رسول الله ﷺ فضحك. فقال: «هل تدرون مم أضحك؟».

- قلت: الله ورسوله أعلم.

- قال: «من مخاطبة العبد ربه»

- يقول العبد: يا ربّ! ألم تجرني من الظلم؟

- قال يقول الرب: بلى.

- قال فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني.

- قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً.

- قال: فيختم على فيه. فيقال لأركانه: انطقي.

- قال: فتنطق بأعماله.

ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بُعْداً لكنَّ وسحقاً فعنكنَّ كنت أناضل» رواه مسلم(١).

وذلك كما قال تعالى: ﴿**اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون**﴾ [سورة يس: ٦٥].

(١) انظر «شرح مسلم» للنووي ١٨/١٠٥ وكتابي «التصوير الفني في الحديث» ص ١٣٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكما قال تعالى: ﴿**يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذٍ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أنّ الله هو الحق المبين**﴾ [سورة النور: ٢٤ - ٢٥].

هذا كتاب الله يقرر أنّ الأسماع والأبصار والجلود والألسنة والأيدي والأرجل ستشهد على الناس يوم القيامة، وسينطقها الله الذي أنطق كل شيء وستتكلم بأوضح كلام مبين.

إن المؤمن لتهزه هذه الحقيقة من أعماقه هزاً عنيفاً... كيف يمكن أن نهرب من أبصارنا وأسماعنا وجلودنا وأيدينا وأرجلنا عندما نريد أن نعصي الله؟ إن هذا ليعين على تدبر معنى المراقبة.. ويقربه لنا تقريباً كبيراً.. وهناك حقيقة أخرى تتصل بعلم الله الذي أحاط بكل شيء.. فلتمتلئ قلوبنا بهذا المعنى ﴿**إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم**﴾ [آل عمران: ٥ - ٦] إن تصوير الله للخلق وهم في الأرحام مع ضيق المكان وصغر المصوَّر لدليل على إحكام صنع الله وعظيم علمه. ولنقرأ قوله سبحانه على لسان لقمان: ﴿**يا بنيَّ إنها إنْ تكُ مثقالَ حبةٍ من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير**﴾ [لقمان: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿**ألاّ يسجدوا لله الذي يخرج الخَبْء في السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما تعلنون**﴾ [النمل: ٢٥].

وقوله عزّ من قائل: ﴿**قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً**﴾ [الفرقان: ٦].

وقوله جل جلاله: ﴿**أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون. أم يحسبون أنا لا نسمع سرَّهم ونجواهم. بلى ورسلنا لديهم يكتبون**﴾ [الزخرف: ٧٩ - ٨٠]. إنَّ قدرة الله عظيمة، وحسابه شديد، وأخذه أليم، وعلمه واسع.

وهناك من الأدلة الدامغة على العصاة الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. قال تعالى: ﴿**ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن الأدلة أيضاً ما ذكرناه من إنطاق أعضاء العصاة أنفسهم، ولقد عرضت الآيات الكريمة المتقدمة موعظة الجلود لأصحابها في ذاك اليوم العصيب، وتقريعها لهم. وفي ذلك موعظة بالغة لنا ونحن ما زلنا في الدنيا، نستطيع أن نتدارك ما فاتنا، ونتلافى النقص، وندرأ عن أنفسنا الخطر سألوا جلودهم: **﴿لم شهدتم علينا؟﴾**.

فأجابت الجلود:

﴿أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء. وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنت تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم. ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾.

إن موقف كثير من الناس في هذه الحياة وسلوكهم ينطق بأنهم يظنون مثل هذا الظنّ المردي المهلك.

نسأل الله تعالى أن يجيرنا من الغفلة، وأن يبصرنا بحقائق الأمور حتى لا تزل أقدامنا ولا تزيغ قلوبنا، ولا تعمى أبصارنا.

إنّ الرجوع إلى الله كائن لا محالة.. والله عليم واسع العلم، قادر عظيم القدرة، سريع الحساب، شديد الأخذ فلنأخذْ حِذْرَنَا.... ولنحذر المعاصي والمخالفات... ولنحذر التقصير في أداء الواجبات.

قال ابن الجوزي:

(تعلم بالدليل أنك مخلوق مكلف، وأنَّ عليك فرائض أنت مطالب بها، وأنّ الملكين يحصيان ألفاظك ونظراتك، وأنَّ أنفاس الحيّ خطاه إلى أجله.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومقدار اللبث في الدنيا قليل، والحبس في القبور طويل، والعذاب على موافقة الهوى وبيل.

فأين لذة أمس؟ رحلت وأبقت ندماً
وأين شهوة النفس؟ كم نكست رأساً وأزلت قدماً
وما سعد من سعد إلا بخلاف هواه
ولا شقي من شقي إلا بإيثار دنياه)[1].

لنعوّد أنفسنا وأهلينا المحاسبة، ولنردد على أسماعنا وقلوبنا الآيات التي تدل على علم الله الواسع وعلى محاسبته إيانا في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم عسانا أن نبلغ منزلة مراقبة الله والحياء منه.

(١) لفتة الكبد ص ٤٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الإنفاق وكظم الغيظ

قال الله تعالى:

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنةٍ عرضها السموات والأرضُ أعدّت للمتقين الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء، والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحبّ المحسنين. والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾ [آل عمران ١٣٣ - ١٣٦].

١ - الانفاق في السراء والضراء

إنّ من صفات المتقين الإنفاق في أحوالهم المختلفة كلها، فالمتقي ينفق في العسر واليسر، في الشدّة والرخاء، في القلة والبحبوحة.. وهذه الصفة الكريمة مع الصفات الأخرى ترشحه لينال مغفرة الله وليدخل جنته.

إنّ المنفق الصادق حقاً هو الذي ينفق كيف كان وضعه، سواءٌ أكان في السراء أم كان في الضراء.. ومن تعوّد على الإنفاق في أيام العسرة والضيق يكون من الباذلين الأسخياء في أيام اليسر والرخاء.. بل إنه ليعطي العطاء

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الذي يفوق ما يتوقعه الناس عندما تغدق عليه موارد الرزق بالمال الوفير والدنيا الواسعة العريضة.

حدثني إنسان أحسبه من الصالحين فقال: كنت لا أملك إلاّ نحو خمسين ريالاً وهي في جيبي، فلقيت في الطريق صديقاً لم ألقه منذ عهد بعيد، فسألته عن حاله فأخبرني أنه معسر لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، وذكر أن زوجته ولدت اليوم وقد خرج هائماً على وجهه لأنه لا يجد في جيبه فلساً، وليس للوالدة ولا للوليد ما يقيم أودهما، ولا ما يقضي مصالحهما. قال: فما كان مني إلاّ أن أعطيته ما أملك، أي هذه الريالات الخمسين، وكنت مسروراً بهذا التصرف.

ثم حدثني بأنّ الله تبارك وتعالى أكرمه وكافأه على عمله رزقاً واسعاً وقال: والله ما حدثتك بهذا الحديث بعد زمن إلا لتعلم وتؤكد للناس أنّ شيئاً لا يضيع عند الله عز وجل.

إنّ إنفاق هذا الرجل للقليل يعدل الكثير مما ينفقه الموسرون.. لأن هذا القليل كان ماله كلّه، وإنه لجدير ـ عندما تتسع له جوانب الدنيا ونواحي الثراء ـ أن ينفق ما يتناسب وغناه وثراءه.

ولقد رأينا مصداق ذلك في حياتنا وفيما مر أمام أعيننا.. لقد عرفت بعض الفقراء ينفقون مما آتاهم الله على حسب وضعهم الماديّ المتواضع.. ثم أكرمهم الله بعد حين من الدهر بالغنى الواسع والمال الوفير، فكان عطاؤهم كثيراً متناسباً مع اليسر الذي هم فيه.. لقد أصبحوا يعطون عطاء من لا يخشى الفقر، ولا يرجون من الناس المكافأة. وعرفت فقراء آخرين كانوا لا ينفقون وكانوا معذورين لفقرهم، فلمّا تغيرت أحوالهم ورزقهم الله من فضله وازدادت أموالهم ازدادوا شحاً وبخلاً.

إن في طلب الإنفاق من المرء في حالة عسره تدريباً لنفسه على البذل وحب الآخرين، وتحريراً لها من سلطان الشح؛ لأن من يوقى شحّ نفسه كان من المفلحين كما يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿**ومن يوق شح نفسه فأولئك هم**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المفلحون﴾ [التغابن: ١٦]. فالإنفاق كما هو إنقاذ للمضطرين البائسين وإسعاف للمحتاجين المعوزين هو ترويض للنفس على البذل، وتدريب لها على العطاء، وتعويد عملي لها على حب الخير للآخرين.

* * *

٢ ـ كظم الغيظ

ومن الصفات الكريمة التي يتصف بها المتقون كظم الغيظ، وكظم الغيظ حَبْسه[١] وردُّه في الجوف، يقال: كظم غيظه أي سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه[٢]. والغيظ أصل الغضب. قال القرطبي: (وكثيراً ما يتلازمان، لكن فرقانُ ما بينهما أن الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعلٍ ما ولا بدّ.. وقد فسّر بعض الناس الغيظ بالغضب وليس بِجَيِّدٍ)[٣].

وقال الراغب: (الغيظ أشدّ غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه)[٤]، وقال: (وقد دعا الله الناس إلى إمساك النفس عند اعتراء الغيظ وقال والكاظمين الغيظ)[٥] وهذا شأن الإنسان القويّ.. إنه المرء الذي يسيطر على نفسه، ولا ينساق مع موجة الغضب العارمة، وهذا ما عبّر عنه سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[٦].

إنّ القوّة الحقيقية للإنسان تتجلّى في موقفه من الأزمات ساعة احتدام الانفعالات، فالذي ينجح في مواجهة هذه الأزمات هو الإنسان القوي.

(١) المفردات ٤٥١.
(٢) القرطبي ٤/٢٠٦.
(٣) القرطبي ٤/٢٠٧.
(٤) المفردات ٣٨٢.
(٥) المفردات ٣٨٢.
(٦) صحيح البخاري ٨/٢٤ وصحيح مسلم ٨/٣٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إنّ رسول الله ﷺ يقرر أن الإنسان إنما يكون إنساناً بإرادته لا بعضلاته فليس الشديد هو الذي يصرع الناس بقوته، لكن الشديد الذي يملك السيطرة على أعصابه، ويستطيع أن يتصرف التصرف الموزون اللبق في حالة الغضب والانفعال[1].

إنّ إنسانية الإنسان لتبدو في سيطرة المرء على انفعالاته وعواطفه، وهذا فرق واضح من الفروق التي تميز بين الإنسان والحيوان، فالحيوان إذا غضب وانفعل رفس أو عضّ، وإذا اشتهى وتحركت غريزته حاول أن يحقق لغريزته مرادها وأن يقضي وطره إن استطاع. أما الإنسان فإنه يسيطر على أحاسيسه وانفعالاته ويكبت شهوته، ويصعد غرائزه ما دام يرى مصلحته في ذلك... فالرغبة في الانتقام غريزة فطر عليها الإنسان، لكن السعي وراء تحقيق هذه الغريزة قد يورد صاحبه المهالك ويقضي على حياته.

وكظم الغيظ هو الحلم، وقد عرفوه بأنه ضبط النفس عند هَيَجان الغضب[2]، ولهذا روى الإمام أحمد وابن ماجه ـ واللفظ له ـ عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبدٌ ابتغاء وجه الله»[3] ويقول الله تعالى: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ [الأعراف ١٩٩].

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أنه قال:

قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان الحرّ من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً.

ـ فقال عيينة لابن أخيه: يا بن أخي. لك وجهٌ عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه.

ـ قال: سأستأذن لك عليه.

(١) الحديث النبوي ٨٧.

(٢) أدب الدنيا ٢٢٨.

(٣) ابن ماجه ٢/ رقم الحديث ٤١٨٩ وفي زوائد البوصيري: إسناده صحيح.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ابن عبّاس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال:

ـ هِيْ[1] يا بن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى همّ أن يوقع به. فقال الحر: يا أمير المؤمنين، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل[2].

روى ابن جرير وابن أبي حاتم أثراً مرسلاً أنه لما أنزل الله عز وجلّ على نبيه ﷺ الآية ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ قال رسول الله ﷺ:

ـ ما هذا يا جبريل؟

ـ قال: إنّ الله يأمرك أن تعفو عمَّن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك[3].

وقال ابن كثير: وهذا مرسل وقد روي له شاهد من وجوه أخر، وقد روي مرفوعاً عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة عن النبي ﷺ أسندهما ابن مردويه[4].

قال بعضهم: من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم.

وقيل: ما ذبَّ عن الأعراض كالصفح والإعراض. وقال بعض الشعراء:

أحب مكارم الأخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب وأنْ أعابا

(١) هي: جاء في «فتح الباري» ١٣/٢٥٨: [بكسر ثم سكون... كلمة تقال في الاستزادة.. وقال ابن الملقن: بمعنى التهديد له].

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأعراف وفي كتاب الاعتصام وانظره في فتح الباري ٨/٣٠٤ و١٣/٢٥٠.

(٣) انظر «تفسير الطبري» ١٣/٣٣٠ ط أحمد شاكر.

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» ٣/٥٣٦ ط عاشور.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأصفح عن سباب الناس حلماً ... وشرُّ الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من أشرف الأخلاق، وأحقها بذوي الألباب، لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد.

إنّ من رحمة الله بالناس أنّ الآلام التي نُحِسُّ بها من إساءة الآخرين تخف على مرور الأيام وتتضاءل حتى تذوب وتزول.. ثم تنسى الإساءة ذاتها. لكنّ الذي يفكر بالانتقام ممّن أساء إليه، ويفكر في الوسائل المؤدية إليه يحتفظ بآلام الإساءة عفنة طرية، فهي مهما تقدم الزمان على حالها لا تخف ولا تنقص ما دام يفكر في الانتقام... وكأنها حدثت الآن، وربما يعجز هذا المرء الراغب في الانتقام عن تحقيق رغبته، فلا يكسب إلا الإساءة إلى نفسه، ويحقق لعدوه ما يريد من إزعاجه والاساءة إليه.

ويروى عن عليّ رضي الله عنه أنه كان يقول: أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه لرجلٍ أسمعه كلاماً أساءه:

ـ يا هذا لا تغرقن في سبنا، ودَعْ للصلح موضعاً، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

وشتم رجلٌ الشعبيَّ فقال الشعبي:
إن كنتُ كما قلتَ فغفر الله لي، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك(*).

يا أخي ليحملك على الحلم وكظم الغيظ رحمة الجهال الذين أساءوا إليك فلو كانوا على علم وفهم ودراية لما أخطؤوا، وليحملك على كظم الغيظ الإحسان إلى نفسك فقد تكون أنت المخطئ ولا يستبين لك الحق على وجهه

(*) هذا في أدب الدنيا والدين وفي الاحياء ٣/١٧٤: [قال أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي له حميم﴾ هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إلا بعد حين، واعلم أن الغضب يقبح وجه صاحبه ويحرق أعصابه ويفسد كثيراً من أحوال نفسه، وهذه أمور تسيء إلى صاحبها أعظم الإساءة.

وليحملك على كظم الغيظ ابتغاؤك ما عند الله من الثواب الذي ذكرته الآية من المغفرة والجنة التي عرضها عرض السموات والأرض ﴿**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض**﴾ واعلم يا أخي أن الحلم يكون بالتحلّم وقديماً قال الشاعر:

إن التخلق يأتي دونه الخلق

وهناك حديث رواه أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ وهو:

«إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلّم»[1] رواه الطبراني والدارقطني في العلل.

قال الإمام الغزالي: [ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعوّد ذلك مدة صار ذلك اعتياداً، فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل][2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رجلاً قال: يا رسول الله إنّ لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، ويجهلون علي وأحلم عنهم. قال: «إن كان كما تقول: فكأنما تسفّهم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك»[3] رواه مسلم.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله، وإذا أسأت استغفرت الله.

---

(١) مختصر المقاصد الحسنة برقم ١٩٠.
(٢) الإحياء ٣/١٧٢.
(٣) صحيح مسلم برقم ٢٥٥٨.

وقال معاوية رضي الله عنه: لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم.

وقال معاوية لعرابة بن أوس: بم سُدتَ قومك يا عرابة؟

قال: يا أمير المؤمنين. كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل فعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصّر عني فأنا خير منه.

وما أحسن قول محمود الوراق رحمه الله:

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه عليَّ الجرائمُ
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاومُ
فأما الذي فوقي فأعرف قدره ... واتبع فيه الحق، والحق لازمُ
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... إجابته عرضي، وإن لامَ لائمُ
وأما الذي مثلي فإن زلّ أو هفا ... تفضلت، إن الفضل بالحلم حاكم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العفو عن الناس

العفو خلق كريم، وصفة فاضلة من صفات المتقين المؤمنين، وهو دليل على سمو نفس صاحبه ونبلها.

والعفو هو أن تسقط حقك الذي تستحقه، وتُبرئ من وجب عليه القصاص أو الغرامة.

وذلك كأن يشتمك شاتم وتستطيع أن ترفع أمرك إلى القاضي... ولكنك لا تفعل بل تصفح عنه وتسامحه، أو أن ترفع أمرك إلى القاضي ويحكم لك على هذا السفيه بالتعزير الذي يراه كافياً في تأديبه، وبالعقوبة التي يستحقها ولكنك مع ذلك تعفو عنه وتصفح.

إنّ هذا التصرف ليجعلك في راحة نفسية، وطمأنينة قلبية، فترتاح أعصابك، ويطمئن فؤادك.. وإن العفو ليخلصك من الإحساس بألم الإساءة، ويذيقك حلاوة الإحسان والمسامحة، ويذهب حقد عدوك، ويستل من صدره كل ضغينة وكراهية، ويحلّ المودة والمحبة بين أفراد المجتمع. ويعود العفو عليك بتقدير كرام الناس وتأييدهم. قال ﷺ:

«ثلاث والذي نفسي بيد لو كنت حالفاً لحلفت عليها:

- ما نقص مال من صدقة، فتصدقوا

- ولا عفا رجلٌ عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ـ ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر».[1]

وسئل أبو الدرداء عن أعزّ الناس فقال: الذي يعفو إذا قدر، فاعفوا يعزكم الله.

وإن من فضل الله علينا وعلى الناس أن الظالم يلقى نتيجة ظلمه، في الدنيا، فلا يحرص المظلوم على الانتقام أو الدعاء على الظالم...

قال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالم: كل الظالم إلى ظلمه؛ فإنّه أسرع إليه من دعائك عليه إلاّ أن يتداركه بعمل، وقمنٌ ألاّ يفعل.

وكم رأينا في حياتنا ناساً جنى عليهم ظلمهم، فساقهم إلى حتفهم، وكان قدر الله منصفاً لهؤلاء المظلومين. ويبدو أن الظالم يطغيه ظلمه، فلا يتيح له مجالاً يراجع نفسه ويفكر في حاله، ليكف عن ظلم الناس والاساءة إليهم، ولذلك توقع مسلم بن يسار رحمه الله ألاّ يتدارك الظالم نفسه بعمل.

وإنّ من أسباب المجد للأفراد، والغلبة والتمكين في الأرض للحكام والدول، العفو عن المسيء عند القدرة، فقد قال بعضهم: أعطي ذو القرنين ما أعطي بأربع خصال كنّ فيه:
كان إذا قدر عفا. وإذا وعد وفى. وإذا حدّث صدق. ولا يجمع شغل اليوم لغد.

ويذكرون أنّ ابن مسعود جلس في السوق يبتاعُ طعاماً، فابتاعه ثم طلب الدراهم وكانت في عمامته، فوجدها قد حُلّت، فقال: لقد جلستُ وإنها لمعي. فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون: اللهمّ اقطع يد السارق الذي أخذها، اللهم افعل به كذا. فقال عبدالله: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجةٌ فبارك له فيها، وإن كانت حملته جرأته على الذنب فاجعله آخر ذنوبه.

بهذا المستوى الرفيع كانت حياة أصحاب رسول الله ﷺ يعفون ويصفحون، ويدعون لمن أساء إليهم بالهداية.

---

(١) مسند أحمد ١/١٩٣، الترمذي ٣/٢٦٢.

والعفو عن المسيء من سمات الكرام الصالحين، والأنبياء والمرسلين وقصة سيدنا يوسف عليه السلام شاهد على ذلك، فلقد ضرب صلوات الله وسلامه عليه المثل الأعلى في العفو.

أجل إن قصة هذا النبي الكريم لتبلغ في ذلك مستوى القمة، ولتقع في موقع القدوة للمتقين والمؤمنين، ولننظر إلى ما صنع به إخوته من بيعهم إياه وكيدهم له وكراهيتهم إياه وطرحهم له في الجب، كما قال الحسن البصري رحمه الله: باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم. ولنذكر ما لقي عليه السلام من كيد النساء، وقسوة الحبس، ثم لننظر كيف أداله الله منهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته، وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع معهم حين أكمل الله له أمره؟ وجعلهم تحت رحمته وكان قادراً على أن ينتقم لنفسه لو أراد؟.. لقد قال لهم: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

وكذلك فإن سيدنا رسول الله ﷺ سيد العافين المحسنين، فإنه عندما انتصر على جموع الكفر يوم الفتح، دخل الكعبة وكبّر في نواحيها، ثم خرج إلى مقام إبراهيم، وصلّى فيه، ثم شرب من زمزم، وجلس في المسجد والناس حوله، والعيونُ شاخصةٌ إليه، ينتظرون ما هو فاعلٌ بمشركي قريش الذين آذوه وأخرجوه من بلده وقاتلوه.

فقال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟»

قالوا: خيراً. أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال عليه الصلاة والسلام: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[1].

وبالعفو تزول الضغائن ويصفو الودّ، وقد عرفنا كثيراً من الحكام يوطّدون حكمهم ويقيمونه معتمدين على العفو عن خصومهم والمسيئين.

أمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل فقال له رجاء بن حيوة: قد فعل الله ما تحب من الظفر، فافعل ما يحب الله من العفو، فعفا.

(١) فقه السيرة للغزالي ٤١٥ والإحياء ١٥٨/٣، ونور اليقين ٢٢٤.

وذكروا أنّ رجلاً قال للمنصور: الانتقام عدل، والتجاوز فضل، ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله من أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين، يشير هذا الرجل إلى أن الانتقام حق للمظلوم، كما قال الله عز وجل: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله**﴾ [البقرة: ١٩٤] ولكن العفو أعلى نصيباً وأرفع درجة كما قيل: إن عاقبت جازيت، وإن عفوت أحسنت، والعفو أقرب للتقوى.

وما أبلغ هذه الموعظة التي نقف عليها من قول رجل أمسك به بعض الحكام، وعزم على معاقبته فقال له:

أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ منّي بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، إلاّ نظرت في أمري نظر مَنْ بُرئي أحبُّ إليه من سُقمي، وبراءتي أحبُّ إليه من جرمي.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في مَضمُون الدّعوة
العنَاية بالأمور الروحيّة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الذكر

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً. هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً**﴾ [سورة الأحزاب: ٤١ - ٤٣].

إنّ ذكر الله يعمر القلب طمأنينة وأنساً بالله، واعتزازاً بقوة الله التي لا تغلب، وإنه سبب لاستقرار النفس وسعادتها ﴿**الذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بِذِكْرِ الله ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب**﴾ [الرعد: ٢٨] وها نحن أولاء في عصر القلق والحيرة نرى المؤمنين ينعمون بأسمى معاني الطمأنينة والهدوء والاستقرار النفسي... أجل.. إن ذكر الله واحة يجد فيها المؤمن كل ما يطلبه من الأمن والسعادة والهدوء والسرور.

إنّ الذكر والدعاء من العبادة، وذلك كما جاء في الحديث «الدعاء هو العبادة»[1] ولا بد من أن يكون الدعاء موجهاً إلى الله فحسب كما قال رسول الله ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»[2] والتوجه بالدعاء إلى غير الله مما أنكره القرآن على المشركين ﴿**قل إني نهيتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله. قل لا اتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من**

(١) رواه ابو داود برقم ١٩٧٤، وابن ماجه ٣٨٢٧ وصحيح الترمذي برقم ٢٦٨٥. وانظر تعليقنا على الحديث ٤٤ من أحاديث القصاص.
(٢) انظر الترمذي ٣/٣٢١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المهتدين﴾ [الأنعام ٥٦] والذكر غذاء الروح كما أن الطعام غذاء البدن، وذكر الله يذكّر المرء الناسي، ويؤكد ارتباط العبد بخالقه وبالدين الذي ينبغي أن ترعى أحكامه في شتى شؤون الحياة، إذا قام الإنسان المسلم من النوم جاءه الدين يذكره بارتباطه به ويقول له: اذكر الله واحمده أن أحياك بعدما أماتك وتذكر أن النشور إليه. ففي صحيح البخاري عن حذيفة وأبي ذر قالا: كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور». (١)

ويرافق الإسلام هذا الإنسان في مسيرة يومه كله بدءاً من الأمور الصغيرة حتى الكبيرة جداً، لا ينفكّ عن توجيهه وإرشاده وربط قلبه بالله. صيانة له عن أن تغتاله الغفلة، أو يجرفه تيار الحياة الصاخب فيبعده عن الحق والاستقامة.

والذكر يثقل الميزان يوم القيامة، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» متفق عليه. (٢)

وعن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله ﷺ: «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض» رواه مسلم. (٣)

ولقد كانت كلماتٌ من الذكر يرددها الرسول أحبَّ إليه من الدنيا كلها عن أبي هريرة قال قال ﷺ: «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبُّ إليّ مما طلت عليه الشمس» رواه مسلم(٤). لأن ثوابها يكون يوم القيامة مرشحاً صاحبه لدخول الجنة.

والذكر يكفر الخطايا ولو كانت مثل زبد البحر قال ﷺ: «من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»

(١) فتح الباري ١١/١٣٠.
(٢) فتح الباري ١١/٢٠٦، مسلم ٨/٧٠.
(٣) مسلم ١/١٤٠ ومسند أحمد ٣/٣٢١ و٥/٣٤٣ وابن ماجه ٢٨٠.
(٤) مسلم برقم ٢٦٩٥.

متفق عليه[1]. إن الخطايا التي ترهق كاهل صاحبها في ذاك اليوم العصيب تحط عنه بهذا الذكر. وإنها لنعمة جليلة.

والذكر يحط الخطايا ويزيد الحسنات ويكون حرزاً لصاحبه من الشيطان. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عَدْل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت منه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه» متفق عليه[2].

يقرر هذا الحديث الشريف أنّ من قال هذا الذكر في كل يوم مائة مرة تحققت له أمور أربعة: أما الأول فإنّ ثواب هذا الذكر يعادل ثواب من أعتق عشر رقاب، ومعلومٌ ما للعتق من الثواب العظيم. وأما الثاني فإن قائل هذا الذكر تكتب له مائة حسنة. وأما الثالث فإنّ الذكر يكفر الخطايا فتمحى عنه مائة سيئة، وأما الرابع فإن هذا الذكر يكون حرزاً لصاحبه من الشيطان يومه ذلك، وما أعزّ هذا المطلب وأعظمه. مَنْ منا لا يودّ أن يكون في حرز من الشيطان الذي يكيد للإنسان، ويوقع المرء في سخط الرحمن، والشيطان إذا استحوذ على المرء أنساه ذكر الله، وقد حدثنا كتاب الله عن قوم غضب الله عليهم من أصحاب النار فقال: ﴿**استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون**﴾ [المجادلة: ١٩] ومن يعرض عن ذكر الله سلط عليه شيطان يلازمه فيغويه قال تعالى: ﴿**ومَنْ يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين. وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون**﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٧].

وأحبُّ الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده؛ فعن أبي ذر قال قال لي رسول الله: «ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله تعالى؟ إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده» رواه مسلم[3].

---

(١) البخاري ٨/٧٣ ومسلم برقم ٢٦٩١.
(٢) البخاري ٨/٧٢ ومسلم برقم ٢٦٩١.
(٣) مسلم برقم ١٧٣١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والذكر صدقة كما جاء في حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ: «.. فكلّ تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة» رواه مسلم(١).

والذكر سبب لنزول الرحمة، وغشيان السكينة، وأن يذكر في الملأ الأعلى، كما جاء في حق الذين يتدارسون كتاب الله، قال تعالى: ﴿**فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون**﴾ [البقرة: ١٥٢].

والذكر صفة المسلمين والمسلمات قال تعالى: ﴿**إنَّ المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً**﴾ [الأحزاب ٣٥].

وذكر الله صفة أولي الألباب قال تعالى: ﴿**إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم**﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

والمؤمنون يخشعون لذكر الله خشوعاً صورته الآية الكريمة على النحو الآتي: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم**﴾ [الأنفال ٢ - ٤]. والآية الكريمة التي جاءت في سورة الحج: ﴿**وبشر المختبين، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾ [الحج ٣٤ - ٣٥].

والذين لا تلين قلوبهم إلى ذكر الله في ضلال مبين قال تعالى: ﴿**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين. الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم**

(١) مسلم برقم ٧٢٠.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ [الزمر ٢٢ - ٢٣].

إن من صفات المؤمنين الخشوع لذكر الله، أمّا الذين أوتوا الكتاب من قبل فهم قساة القلوب، فمن لم يخشع لذكر الله فقد تجرد عن صفات المؤمنين واتصف بصفات غيرهم. وقال تعالى: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾** [الحديد ١٦].

إنَّ الذكر والدعاء يجعلان اللسان رطباً بذكر الله. عن عبدالله بن بُسْرٍ رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبّث به (أي أتعلق به وأستمسك) فقال ﷺ:

«لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى» رواه الترمذي[1] وقال: حديث حسن. وهذا الحديث يبيّن عظيم شأن الذكر إذ أوصاه رسول الله أن يستمسك بذكر الله وأن يحافظ على أن يبقي لسانه رطباً بذكره سبحانه.

وإن الذكر والدعاء ليجعلان القلب عامراً بمراقبة الله، ويصبغان الحياة بصبغة الإسلام العظيم. ومتى عمرت مراقبه الله قلب إنسان وجدته مستقيماً على الجادّة، آخذاً بما أمر الله به، منتهياً عما نهى الله عنه؛ لأن هذه المراقبة تحول بينه وبين الوقوع في المعصية والخطيئة. إذ كيف يقدم على المعصية من كان مراقباً لله؟ ولذلك كان الذين لا يذكرون الله معرضين إلى المعيشة الضنك، والعذاب الأشدّ. قال تعالى: **﴿ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضَنْكاً﴾** [طه ١٢٤] وقال تعالى: **﴿ومن يعرض عن ذكر ربه يَسْلُكْهُ عذاباً صَعَداً﴾** [الجن ١٧]. وذكر الله هنا أعمُّ من الأدعية، ولكن الإعراض عن ذكر الله بالمأثور داخل في المعنى الأعم للذكر.

ولذلك كان الذين لا يذكرون الله في حال من أحوالهم واقعين في الانحراف والفتنة، منجرفين في تيار الخطيئة والإثم.

(١) انظر ابن ماجه برقم ٣٧٩٣ و «صحيح الترمذي» للألباني برقم ٢٦٨٧.

ومن هنا كانت وظيفة الذكر متعددة الجوانب فهي فضلاً عن أنها تؤدي دوراً مهماً في إضفاء الطمأنينة على القلب والسكينة في النفس تربط صاحبها بالله والتزام شرعه والوقوف عند حدوده وتباعد بينه وبين الزلل.

والإنسان لا بد أن يشغل نفسه بشيء، فإن لم تشغل نفسك بالخير شغلك الشيطان والهوى بما يهمهما وبما يقربك منهما فلنعود أنفسنا، ولنعود أبناءنا وأزواجنا وتلامذتنا على أن تكون ألسنتهم رطبة بذكر الله وعلى أن يؤدوا الأوراد التي جاءت في صحيح السنة كل يوم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، إن ذلك سينعكس علينا في حياتنا ومجتمعاتنا... إنّ الكلمة الخبيثة تصعب على اللسان الذي تعوّد على ذكر الله، وبذلك تحسن أخلاقنا وتحلو ألسنتنا، وتلين معاملتنا للآخرين.

هذا ومن فضل الله على عباده أن الذكر يستلزم سمتاً وسلوكاً معينين، فنادراً ما ترى العصاة يذكرون الله ويرددون الأذكار المأثورة، إنهم في غفلة عن هذا السبيل كله.

إذا سلك المرء سبيل الذكر والتزم بالخشوع فيه، فليطمئنّ إلى أنه سلك طريق الجنة، لأنّ هذا الذكر يتنافى مع الانحراف، حتى إن العامة إذا رأوا من هذا الذاكر إقدامه على معصية أنكروا عليه فعله، وسخروا من ذكره، وشتموه ونعتوه بأنه محتال كذاب أشر، إذ لو كان صادقاً في ذكره لامتنع من الإقدام على هذه المعصية التي يجاهر بها.

إنّ حاجتنا إلى زيادة الحسنات وإلى تكفير السيئات حاجة كبيرة متعاظمة، والذكر يحقق لنا ذلك كله.

فلماذا لا نملأ أوقات فراغنا التي نقتلها باللهو واللعب، أو بالإطراق والنظر في الأرض، أو بالاستغراق في أحلام اليقظة، أو بالكلام الفارغ من غيبة وهذر؟ لماذا لا نملؤها بالذكر؟

لماذا لا نردّد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير) وقد مرّ بنا ما أعدّ الله من الثواب لمن قالها مائة مرة؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لماذا لا نكثر من قول (سبحان الله وبحمده) و(الحمد لله) وهُما من الذكر الذي يملأ الميزان؟

لماذا لا نقول (لا حول ولا قوة إلا بالله) وقد قال رسول الله ﷺ لأبي موسى الأشعري: «ألا أدلك على كنزٍ من كنوز الجنة» فقال: بلى يا رسول الله. قال ﷺ: «قل لا حول ولا قوة إلا بالله» رواه البخاري ومسلم(١).

لماذا لا نعمر أوقاتنا بتلاوة القرآن ولقارئه من الثواب بكل حرف عشر حسنات؟.

لماذا لا نكثر من الصلاة على النبي وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من صلى عليّ واحدة صلى الله عليه عشراً»(٢).

إنّ الذي يملأ أوقاته بهذا هو السعيد حقاً.

إن كثرة الذكر تدل على حب الذاكر لمن يذكره، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره، إنه يتلذذ بذاك الذكر ويشعر بسرور بذكر محبوبه. فذكر الله علامة دالة على حبه، ولكن أدب الذكر أن لا تذكره إلا على الوجه الذي يحب، وقد بيّن ذلك بياناً شافياً. فهناك أنواع مشروعة من الذكر، فمنها ما هو واجب في الصلاة كالتكبير في بداية الصلاة ومنها ما هو مستحبّ فيها.

ومنها ما هو مطلوب خارج الصلاة كالاستغفار والتسبيح والتهليل والتكبير والحمد والثناء على الله والصلاة على النبي ﷺ وقراءة القرآن والدعاء.

ومنها ما يكون مقيداً بأزمنة كالتسبيح والتكبير والحمد عقب الصلوات المكتوبات وقبل النوم، ومنها ما يكون مقيداً بأمكنه كالذكر المندوب قوله عند دخول المسجد.

ومنها ما يكون مقيداً بعمل كالذكر المندوب قوله عند الطعام والشراب.

(١) البخاري ٨/٧٤ ومسلم برقم ٢٧٠٤ وأبو داود برقم ١٥٢٦.
(٢) الأذكار طبعة الارناؤوط ص ٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومنها ما يكون مقيداً بحادثة طبيعية كالذكر المندوب قوله عند الرعد أو هبوب الريح أو ظهور الهلال.

[والذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعاً، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل][1].

[واعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر لله تعالى، كما قاله سعيد بن جبير وغيره من العلماء][2].

والذكر مطلوب على أية حال كان الذاكر، سواء كان قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً، على وضوء كان أم لم يكن على وضوء، جنباً كان أو غير جنب، وكذلك يمكن للحائض والنفساء أن تذكر الله تعالى. [فإن كان جالساً في موضع استقبل القبلة وجلس متذللاً متخشعاً بسكينة ووقار... ولو ذكر على غير هذه الأحوال جاز ولا كراهة في حقه][3] وكذلك فله أن يذكر الله خالياً منفرداً، وأن يذكره في جماعة، ولكل من الحالين محاسن والذكر محبوب مطلوب، [والمراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة لاشتراكهما في المعنى المقصود][4].

ومن آداب الذكر المشروع الالتزام بالمأثور، وألا يستعجل الإجابة، وألا يعلّق الدعاء بالمشيئة ولكن ليجزم المسألة.

(وينبغي لمن كان له وظيفة من الذكر في وقت من ليل أو نهار أو عقب صلاة ففاتته أن يتداركها ويأتي بها إذا تمكن منها ولا يهملها، فإنه إذا اعتاد الملازمة عليها لم يعرضها للتفويت، وإذا تساهل في قضائها سهل عليه تضييعها في وقتها، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله

(١) الأذكار طبعة الأرناؤوط ص ٦.
(٢) الأذكار طبعة الأرناؤوط ص ٧.
(٣) الأذكار طبعة الأرناؤوط ص ٨.
(٤) الأذكار طبعة الأرناؤوط ص ٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عنه قال قال رسول الله ﷺ : «من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل»[1].

والدعاء ذكر فتوجهوا إلى الله بجوامع الدعاء وبما تودون يقول تعالى **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾** [البقرة ١٨٦].

ويقول تعالى: **﴿اتل ما أوحِيَ إليك من الكتاب، وأقم الصلاة إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾** [العنكبوت: ٤٥].

ومن آداب الدعاء أن يتوسل إلى الله باسمه الأعظم وبما عمل من الأعمال الصالحة كما في حديث أصحاب الغار[2].

وإذا كان الذكر ثناء على الله وتنزيهاً قاد صاحبه الذي يتدبر ما يقول إلى معرفة الله، ومن عرف الله عبده والتزم شرعه.

ويقول سبحانه: **﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين. إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾** [آخر سورة الأعراف].

---

(١) صحيح مسلم برقم ٧٤٧ وانظر الأذكار ص ٩.

(٢) رواه البخاري ٣/٨٠ ومسلم ٤/٢٧٤٣ وانظره في رياض الصالحين في باب الإخلاص ص ١٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العناية بالقلب والتحذير من الغفلة والشيطان

إنّ الناس إذا أصاب أحداً من أقربائهم مرضٌ في جسده، سارعوا في عرضه على الطبيب، وربما لم يقتصروا على طبيب واحد، بل يذهبون إلى عدة أطباء وينقبون عن الطبيب النطاسي الماهر المختصّ المشهود له بالتفوّق وجودة التشخيص وقد يسافرون إلى جهات بعيدة، وينفقون نفقة كثيرة.. وإنك لترى كثيراً منهم يلتزمون بما يشير عليهم هذا الطبيب لا يخالفونه في توصية ولا في رغبة.

وقد بالغ الناس في زماننا هذا مبالغة أفسدت على فريق منهم حياتهم وصحتهم أيضاً. وشاع أخيراً الاهتمام بالأمراض النفسية التي تزداد انتشاراً في ديار الغرب، ولذلك يبدو الاهتمام بها هناك أكثر منه في بلاد المسلمين.

أمّا مرض القلوب فقلّ من يتنبّه له من الناس مع الأسف الشديد، مع أنّ القرآن الكريم ذكر مرض القلوب، في عدد من آياته، وذكر خطر هذا المرض، ونتائجه الوخيمة على الفرد والجماعة، في الدنيا والآخرة، وها هي ذي آية تقرر بصريح العبارة أن يوم القيامة يومٌ لا ينفع فيه مال ولا بنون.

إنما الذي ينفع المرء في ذلك اليوم أن يأتي بقلب سليم قال تعالى: ﴿**ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾ [**الشعراء ٨٧ - ٨٩**] أفليس من العجب العجاب أن يكون شأن سلامة القلب وصحته من الأمراض الفتاكة ويكون مع ذلك هذا الإعراض عن

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المداواة والمعالجة ممن تتعرض قلوبهم إلى مقدمات المرض. لقد ورد ذكر القلب في القرآن أكثر من مائة وثلاثين مرة.

وأما في الحديث فما أكثر الأحاديث التي تعرضت للقلب وذكرت أنواعه وأمراضه وأدويته.

وقد أفاض علماء الاسلام في بحث هذا الموضوع إفاضة تستحوذ على إعجاب كل من يطلع عليها من العلماء والباحثين، ومن هؤلاء الأئمة الفضلاء: الغزالي وابن تيمية وابن القيم.

وأود أن أقرر أن كثيراً من رجال الفكر والدعاة وأهل العلم وحملة الأقلام في عصرنا هذا يعرضون عن بحث هذا الموضوع الجليل المهمّ.

لقد شغلتهم الردودُ على أعداء الاسلام، واستجلاءُ نواحي العظمة التي في دين الاسلام والتي يفاخرنا فيها عبيد الغرب وسادته.

والانشغال بهذه الردود وذاك الاستجلاء أمرٌ ربما دعت إليه ظروف موقتة صارمة، ولكن هذا لا يجوز أن يستمرّ..

إن بيان خطر مرض القلوب، وضرورة علاجها أمرٌ جدير بالدعاة أن يهتموا به ويوضحوه. لنحرر أمرين اثنين:

أولهما العرض المتكامل لرأي الاسلام في جوانب الحياة كلها.

وثانيهما: معالجة قسوة القلوب وأمراضها التي تتفاقم بين كثير من الناس في الأيام الأخيرة.

لقد نعى الله على اليهود قسوة قلوبهم فقال: ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة وإنَّ مِن الحجارةِ لما يتفجر منه الأنهارُ وإنَّ منها لما يشقق فيخرجُ منه الماء وإنَّ منها لما يهبطُ من خشيةِ اللهِ وما الله بغافل عما تعملون**﴾ [البقرة: ٧٤].

فهل يجوز أن نتعامى نحن المسلمين عن حقيقة قلوبنا، ولا نتعظ بما قصّ الله علينا من أنباء من تقدمنا من الأمم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب»[1] كما يقول سيدنا رسول الله ﷺ فالقلب هو المهم [والجوارح أتباع وخدم، وآلات يستخدمها القلب، ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، والصانع للآلة. فالقلب هو المقبول عند الله، إذا سلم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا صار مستغرقاً بغير الله وهو المطالب وهو المخاطب وهو المعاتب. وهو الذي يسعد بالقرب من الله، فيفلح إذا زكّاه، وهو الذي يخيب ويشقى إذا دنّسه ودسّاه، وهو المطيع بالحقيقة لله تعالى، وإنما الذي ينتشر على الجوارح من العبادات أنواره، وهو العاصي المتمرد على الله، وإنما الساري إلى الأعضاء من الفواحش آثاره، وبإظلامه واستنارته تظهر محاسن الظاهر ومساويه، إذ كل إناء ينضح بما فيه. وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه وهو الذي إذا جهله الإنسان فقد جهل نفسه، وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل].[2]

وإن مما يؤسف له أن معظم الناس جاهلون لقلوبهم، ومن ثم نراهم وقد سُدّت أبواب معرفة حقائق الوجود أمام أعينهم فهم يعيشون في تيه وضياع.. لهم قلوب لا يفقهون بها.. فانحطوا بذلك إلى دركة دون الانعام.

أيها الدعاة

تعهدوا قلوبكم.. وداووها وأصلحوها.. وصلوها بالله ورققوها واحرصوا على أن تأتوا ربكم يوم القيامة بقلوب سليمة، لتفوزوا بالجنة ورضوان الله، ولعلكم تكونون قدوة لمن تدعونهم.

إنّ القلب دعامة الحياة.. وحياتُه حياة لصاحبه وموته موت له.. ولئن كان ذلك صحيحاً من الناحية الطبيّة، إنه لكذلك من الناحية المعنوية والدينية.

---

(١) صحيح البخاري ١/١٦، وصحيح مسلم ٥/٥٠

(٢) الاحياء ٣/٢

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فعندما يكون القلب قلقاً قاسياً يعمّ الشقاء جوانب حياة الانسان النفسية والمعنوية.

وعندما يكون القلب مطمئناً ليناً يعم السرور والأنس جوانب الحياة المختلفة في الانسان.

فكيف لنا أن نصل إلى هذا المستوى الكريم المُسْعِد؟

إنّ كتاب الله عزّ وجلّ يبيّن لنا الطريق.. فيقرر أنه ذكر الله. قال تعالى: ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب**﴾ [الرعد ٢٨].

أجل إنّ ذكر الله تبارك وتعالى هو الذي يجعل القلوب آمنة مطمئنة سعيدة فرحة.. إنها بذكر الله تجد راحتها وهناءتها، ولا يمكن لها أن تحقق السعادة التامّة إلاّ بأن تتصل بالله وتذكره:

تذكرَه وتتصورَ عظمته وقدرته، وفضله ومننه، وتستحضرَ ما أعدَّ من الثواب للمحسنين ومن العقاب للمسيئين، تذكر شرعه وضرورة التزامه وواجب الدعوة إليه.. تذكر الله فتبدو لها الدنيا على حقيقتها.. تبدو لها أنها أهون من أن يعمل المرء لها وحدها ومن أجلها.. تذكر الله وتتبيّن القصد من الخلق، وأنه عبادة الله تبارك وتعالى. تذكر الله بالوعي والفقه وباللسان والقول.

والطمأنينة راحةٌ تامةٌ وهدوءُ أعصابٍ واستقرارُ نفسٍ، وتهيئةٌ للانتاج الفكريّ والماديّ.

وإذا ذُكر الله جل جلاله على نحو ما أشرنا واطمأن القلب فاضت أنوار الحق على الوجه تلألؤاً وبشراً، وابتسامة وبشاشة، وعلى الجوارح خيراً ونفعاً وفضلاً، فلا ترى عينه إلا ما يرضي الله، ولا يمكن أذنه إلاّ من سماع ما يحبّ الله. ولا ينطلق لسانه إلاّ بما شرع الله، ولا تمشي رجلاه إلا في مرضاة الله، ولا تمتدّ يداه بحركة إلا في طاعة الله.

إنّ القلب آمر مطاع.. والأعضاءُ والجوارحُ مجبولةٌ على الانصياع له،

لا تستطيع مخالفته ولا التمرد عليه. كما جاء عن رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير (رضي الله عنه) قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ الحلال بيّن، وإنّ الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنّ كثير من الناس، فمن اتّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإنّ لكل ملك حِمىً، ألا وإنّ حمى الله محارمه.

ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(١).

وإنّ للقلب مع ذكر الله وصفاً جاء في كتاب الله عز وجل في أكثر من سورة.

ففي سورة الأنفال يقول ربنا عز وجل: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾ [الأنفال: ٢].

وفي سورة الحج يقول تعالى: ﴿**وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥].

قال العلماء في تفسير آية الأنفال: (وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي خاف منه ففعل أوامره وترك زواجره)(٢).

(إنها الارتعاشة الوجدانية التي تنتاب القلب المؤمن حين يذكر بالله في أمر أو نهي، فيغشاه جلاله، وتنتفض فيه مخافته، ويتمثل عظمة الله ومهابته، إلى جانب تقصيره هو وذنبه، فينبعث إلى العمل والطاعة).

(١) صحيح البخاري ١/١٦ وصحيح مسلم ٥/٥٠
(٢) ابن كثير ٢/٢٨٥

أو هي كما قالت أم الدرداء (رضي الله عنها): الوجل في القلب كاحتراق السعفة. أما تجد له قشعريرة؟

قال: بلى.

قالت: إذا وجدت ذلك فادع عند ذلك، فإنّ الدعاء يذهب ذلك.

إنها حال ينال القلبَ منها أمرٌ يحتاج إلى الدعاء ليستريح منها ويقرّ. وهي الحال التي يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في صدد أمر أو نهي، فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله وَجَلاً وتقوى لله.

والقلبُ المؤمن يجد في آيات هذا القرآن ما يزيده إيماناً، وما ينتهي به إلى الاطمئنان. إنّ هذا القرآن يتعامل مع القلب البشريّ بلا وساطة، ولا يحول بينه وبينه شيء إلا الكفر، الذي يحجبه عن القلب، ويحجب القلب عنه، فإذا رفع هذا الحجاب بالإيمان وجد القلب حلاوة هذا القرآن، ووجد في إيقاعاته المتكررة زيادة في الإيمان، تبلغ إلى الاطمئنان.. وكما أن إيقاعات القرآن على القلب المؤمن تزيده إيماناً، فإن القلب المؤمن هو الذي يدرك هذه الإيقاعات، التي تزيده إيماناً، لذلك يتكرر في القرآن تقرير هذه الحقيقة في أمثال قوله تعالى: ﴿**إن في ذلك لآية للمؤمنين**﴾ ﴿**إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون**﴾ [الأنعام: ٩٩].

ويقول تعالى في سورة الزمر: ﴿**أفمن شَرَحَ اللهُ صدره للإسلام فهو على نور من ربه. فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين. الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانيَ تقشعرُّ منه جلودُ الذين يخشون ربهم ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾ [الزمر: ٢٢ ـ ٢٣].

إنّ المؤمنين الذين يخشون ربهم إذا قرأوا آيات الله أو سمعوها اقشعرت جلودهم ثم لانت جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.. أمّا أولئك الضالون

القاسية قلوبهم فهم أولئك الذين لا تتحرك قلوبهم ولا تهتز مشاعرهم عند ذكر الله وتلاوة آيات كتابه بل تشمئز وتنفر كما قال تعالى:

﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ [الزمر: ٤٥].

ألا فلتعمروا يا أيها الدعاة قلوبكم بذكر الله حتى تطمئنّ؛ لأنه ليس هناك شيء يدخل عليها هذه الطمأنينة إلا ذكر الله، وقد دلّ على هذا تقديم الجار والمجرور على الفعل، وهي إحدى طرق القصر المعروفة عند العلماء.. اذكروا الله ذكراً كثيراً وتدبروا قول الله العلي القدير: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾** [الحديد: ١٦].

إنّ أمراض القلوب كثيرة متنوعة، وإنّ إهمالها وعدم تعهدها بالرعاية واتِّخاذِ أسباب الوقاية يعرضها إلى التفاقم والهلاك، وبهلاكها يهلك أصحابها. وقد جاء الشرع بأحكام تربوية وتوجيهات اجتماعية تجعل قلب المسلم فيما لو عمل بمقتضاها سليماً من الخلل مُعَافىً من الأدواء.

ومن أعظم أبواب الشر ووسائل الفتنة التي تفسد القلب وتجعله معرضاً للمرض ثم الموت شيئان هما:

الشيطان ووسواسه.

والنفس وشهواتها.

والمسلم مطالب بأن يكون واعياً لادعاءات النفس وحظوظها. فالشهوة، والغضب، والأثرة، والطمع.. كل ذلك وغيره من حظوظ النفس التي ينبغي على المسلم أن يحذر من استيلائها على قلبه؛ لأنها تقطعه عن الله عزّ وجلّ وتكون سبباً في هلاكه.

وكذلك فإن عليه أن يكون واعياً لمداخل الشيطان يحذر من وسوسته. فالوسواس خاطرٌ مذموم يدعو إلى الشر، ومن الخذلان أن يكون القلب متهيئاً لقبول هذا الوسواس والشيطان سببه. **﴿قل أعوذ برب الناس. ملك الناس.**

إله الناس. من شرّ الوسواس الخناس. الذي يوسوس في صدور الناس. من الجنة والناس﴾.

ولقد حذرنا ربنا تبارك وتعالى من الشيطان فقال عزّ من قائل:

﴿يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ [الأعراف: ٢٧]. إنه تحذير بصريح العبارة، وتذكير لنا بتاريخ أبينا آدم مع الشيطان الذي كان سبباً في خروجه من الجنة.

ولقد ذكر ربنا تبارك وتعالى أن الشيطان يأمر بالفحشاء ويخوّف المؤمنين من الفقر فقال سبحانه: **﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أنّ الله غني حميد. الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً. والله واسع عليم﴾** [البقرة: ٢٦٧ - ٢٦٨].

فالشيطان يخوف من الفقر إن أنفق المرء شيئاً في سبيل الله، ويأمره بالفحشاء وهو عدو لدود له. ومن أجل ذلك فقد دعانا الله إلى ألا نخاف من الشيطان فقال سبحانه: **﴿إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين﴾** [آل عمران ١٧٥].

وإن الشيطان يزيّن - لمن قستْ قلوبُهم - أعمالهم المشينة المخزية، وينسيهم ذكر الله كما قال تعالى: **﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾** [الانعام ٤٢ - ٤٣] وكما قال: **﴿.. ألا إنهم همُ الكاذبون. استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله. أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾** [المجادلة: ١٩].

إنّ هذه الآيات الكريمة، وغيرها كثير، لتبيّن لنا أنّ المؤمن الذي يحرص

على نقاء قلبه وصفائه يحذر من الشيطان ووساوسه، ويضع أمام وسائله الخطيرة الخبيثة حواجز متعددة:

من أهمها ذكر الله. فذكر الله يطرد الشيطان ويحبط مخططاته وتدبيراته. قال تعالى: ﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. إن الذين اتقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ [الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١].

ومن أهم هذه الحواجز التي تحول بين الشيطان وبين قلب المؤمن تقرير العداوة المستحكمة القائمة بيننا وبين الشيطان والتي ذكرتها آيات كثيرة في كتاب الله منها قوله تبارك وتعالى: ﴿**إن الشيطان للإنسان عدوّ مبين**﴾ [يوسف: ٥].

ومنها قوله سبحانه: ﴿**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن. إن الشيطان يَنْزَغُ بينهم إنَّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً**﴾ [الاسراء: ٥٣].

ومنها قوله عز وجل: ﴿**وكان الشيطان للانسان خذولاً**﴾ [الفرقان: ٢٩].

ومنها قوله عزّ من قائل: ﴿**يا أيها الناس إنّ وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور. إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ [فاطر: ٥ ـ ٦].

إنّ تقرير هذه العداوة على هذا النحو يولّد لوناً من المناعة عن اتباع خطوات الشيطان لأنّ العاقل لا يستريح لعدوه، ولا ينصاع لأمره.

قال الحسن البصري: إنما هما همّان يجولان في القلب: همٌّ من الله تعالى، وهمٌّ من العدو. فرحم الله عبداً وقف عند همه، فما كان من الله أمضاه، وما كان من عدوه جاهده.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن. قالوا: وإياك يا رسول الله؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: وإياي إلا أنّ الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»[1]. وفي «مسند أحمد»: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الشياطين. وقالوا: وأنت يا رسول الله الخ[2].

قال الغزالي: ٣/٢٦ ـ ٢٧.

(وإنما كان هذا لأن الشيطان لا يتصرف إلا بواسطة الشهوة، فمن أعانه الله على شهوته حتى صارت لا تنبسط إلا حيث ينبغي وإلى الحد الذي ينبغي فشهوته لا تدعو إلى الشر... ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطان مجالاً فوسوس.

ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطان وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم، والتطارد بين جندي الملائكة والشياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما، فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثاني اختلاساً.

وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها، فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة، واطراح الآخرة، ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات، وعمارته بذكر الله تعالى).

وشكى رجل إلى أحد الصالحين ما يجد في صدره من الوسوسة فقال هذا الصالح: إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمرّ به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه، يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال تعالى: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى ولذلك سلّط الله عليه الشيطان قال تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**﴾ [الجاثية: ٢٣].

---

(١) مسلم برقم ٢٨١٤

(٢) مسند أحمد ١/٢٥٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

روى مسلم أن عثمان بن أبي العاص قال للنبي ﷺ:

يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ. فقال: «ذلك شيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذْ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا».

قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[1].

إنَّ من المهمات التي تواجه الدعاة اليوم أن يتسلحوا بسلاح التقوى الذي يقيهم من مكر الشيطان ومن سلطان الشهوات، وبذلك تصلح قلوبهم، ليكونوا قدوة في سلوكهم، وأن يُبَصِّرُوا من يدعونهم بأمراض القلوب وأسبابها وعلاجها بالأسلوب الحسن المقبول المعتمد على الكتاب والسنة.

إن القلب المريض ـ إن لم يتداركه صاحبه ـ ختم عليه وعندئذ يتسلط عليه الشيطان وتسيطر عليه الشهوات ويتصف بالقسوة.

نسأل الله العليّ القدير أن يحفظنا من وسوسة الشيطان وكيده، وأن يقي قلوبنا من مكره، وسلطان الشهوات، حتى لا يصيبها من الأمراض ما يصدّها عن سبيل الله.

(١) مسلم برقم ٢٢٠٣

التفكر في خلق الله

يقول الله تعالى:

﴿ولله ملكُ السموات والأرض والله على كل شيء قدير. إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض. ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب﴾ [آل عمران: ١٨٩ - ١٩٥].

إنّ الإسلام دين الفكر والتفكر، والتأمل والتدبر، والنظر والاعتبار، تدعو آياته في غير موضع الناس إلى أن يتفكروا ويتأملوا وينظروا في ملكوت السموات والأرض، وكيف أحكم صنعها، ويستدلوا بذلك على عظمة الله وقدرته، ويطلب منهم أن يكرروا التأمل مرات ومرات حتى يستقرّ في أعماق نفوسهم الإيمان التام بالله تبارك وتعالى وصفاته العظمى.

﴿الذي خلق سبع سموات طباقاً، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ [الملك ٣ - ٤].

إن في خلق السموات والأرض من العجائب والغرائب لآياتٍ دالةً على قدرة الله وحكيم صنعه. وكلما اتسع علم المرء بهذا الكون الفسيح أدرك من دقائق القدرة ما لم يكن يدرك... وتأتي بحوث الفضاء والفلك لتقدم لنا صورة مدهشة عن سعة ملكوت الله... فهناك نجوم تبعد عنا ملايين السنين الضوئية علماً بأنَّ سرعة الضوء ٣٠٠ ألف كم في الثانية.

وكذلك هذا الليل والنهار اللذان يتكرر حدوثهما كل يوم بانتظام ودقة، إن في ذلك لدليلاً على عظمة من يَقْدُرهما جل جلاله.

ولقد أثار القرآن مجال التفكر في جوانب متعددة من خلق الله... فالبحر والسموات والأرض مجال لو تأمل الإنسان صنع الله فيها لقاده هذا التأمل إلى تعظيم الله وتوحيده، ورأى من الآيات الدالة على الله الشيء الكثير.

﴿الله الذي سخّر لكم البحر لتجريَ الفلكُ فيه بأمره، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الجاثية: ١٢ - ١٣] وفي هذه الآية وصل لهذه المخلوقات العظيمة بالإنسان وانتفاعه منها بتسخيرها له.

والأنفس ووفاتها وآجالها التي أجلها لها ربنا تبارك وتعالى مجال للتفكر.

﴿اللهُ يتوفَّى الأنفُسَ حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموتَ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الزمر ٤٢].

وحقيقة الموت تهزُّ كيان النفس الإنسانية، فلنتفكر بهذه الآيات.

والنباتُ والأنعامُ والنخيلُ والأعنابُ والعسل... كل ذلك مجالات للتفكر:

﴿والله أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها. إن في ذلك لآية لقوم يسمعون.

وإن لكم في الأنعام لعبرة نُسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون.

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ [النحل: ٦٥ - ٦٩].

وهذه طريقة القرآن في إثارة الفكر... إنه يدعونا إلى أن نفكر في أشياء قريبة منا أشد القرب... فالليل والنهار، والموت والنوم، والمطر ينزل من السماء فيخرج العشب وتخضر الأرض، والأنعام تقدم لنا اللبن السائغ، والنخيل والأعناب ومنتوجاتها، والنحل هذه المملكة المنظمة المرتبة الدقيقة وإنتاجها العسل الذي جاء العلم ليؤكد هذه الحقيقة القرآنية من أنه شفاء للناس.

إنّ في هذا كله آيات تدل أصحاب العقول على الله... وهؤلاء هم أولو الألباب... إنهم يذكرون الله على كل حال.. يذكرونه قائمين ويذكرونه قاعدين ويذكرونه مضطجعين على جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض وينتهي بهم تفكيرهم إلى مناجاة ربهم قائلين: ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار يقول تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما

بينهما باطلاً. ذلك ظنّ الذي كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ [ص ٢٧].

إن أولي الألباب هؤلاء رأوا بعد تفكيرهم وتأملهم أن الله خلق هذا الكون على أحسن حال... لا عيب فيه ولا اختلال، فأثنوا على ربهم وتوجهوا إليه بالدعاء أن يقيهم عذاب النار إنه سبحانه قادر على أن يعذب العصاة أشدّ العذاب، فكان منهم هذه المناجاة:

﴿... فقنا عذاب النار. إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾ هل هناك خزي أعظم من دخول النار والتعرض للعذاب الأبدي الدائم؟

ويقول تعالى: ﴿كذلك يبيّن لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ [البقرة ٢١٩ - ٢٢٠].

ويقول: ﴿أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ [البقرة ٢٦٦].

ويقول: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون﴾ [الأنعام: ٥٠]. ويقول: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون﴾ [يونس ٢٤] وقال تعالى بعد أن ذكر نبأ الذي آتاه آياته فانسلخ منها: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [الأعراف: ١٧٦] ويقول تعالى: ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون

يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون. أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ [الروم ٦ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٩] ويقول تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ [الحشر ٢١].

تلاوة القرآن

في سورة الكهف قصص عدة، مترعة بالعظات، مفعمة بالدروس، ومن هذه القصص (قصة أصحاب الكهف) و(قصة الرجلين الغني والفقير) وبين هاتين القصتين توجيهات ثمينة تعطي للحياة قيمتها الحقيقية، وتصحح موازين البشر في النظر إلى بعض الأمور.

فلنعش لحظات في أجواء هذه الآيات متأملين ومتدبرين. يقول تعالى: **﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً. واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه، ولا تعْدُ عيناك عنهم، تريدُ زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً.**

وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً.

إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ [الكهف ٢٧ ـ ٣١].

في هذه الآيات الأمر بتلاوة القرآن ﴿**واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك**﴾ ولم تذكر الآيات الكريمات القرآن باسمه العَلَميّ، وإنما ذكرته بحقيقته ﴿**ما أوحي إليك من كتاب ربك**﴾ حفزاً للهمم لمتابعة تلاوته والحرص عليها فهو موحىً من الله... والأمور تعظم وتجل تبعاً للمصدر الذي تصدر عنه، فالرسائل التي تأتي إليك ليست في نظرك سواءً، فما يأتيك من سلطان أو وجيه أو حبيب أو قريب يختلف اهتمامك به بالنسبة إلى ما يأتيك من إنسان ثرثار غير موزون التصرفات... إنك تهتمّ ببعضها اهتماماً يملك عليك نفسك، وتقدم قراءتها وتدبرها على أي أمر آخر، يدفعك إلى ذلك الحبّ والخوف والرجاء وأما بعضها فقد تلقيه في سلة المهملات دون أن تتعب نفسك بِفَضِّ غلافه وقراءة مضمونه.

فالآية الكريمة التي تدعو إلى تلاوة القرآن تذكره مقروناً بمصدره ﴿**ما أوحي إليك من كتاب ربك**﴾.

ولا أقف مرة أمام هذا المعنى إلا ويتملكني شعور عجيب يبصرني بقيمة هذا الإنسان... هذا الإنسان الضعيف، الهيّن أمام المخلوقات العظمى في هذا الكون المليء بالعجائب والأمور الجليلة... هذا الإنسان يرسل إليه الله تبارك وتعالى مالك الملك جبار السموات والأرض العليم بكل شيء، القادر على كل شيء يرسل إليه الرسل، ويبعث إليه بالآيات منذرة ومبشرة... إنه لو تأمل هذا لعرف قدره ومكانته.

والتلاوة الكاملة ما كانت بتدبّرٍ واعٍ عميق، وإقبالٍ على كنوز هذا القرآن التي لا تنتهي (فلا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه) والقرآن ميسّر للذكر، ولا يحتاج الأمر إلاّ للإرادة والاستعداد... فأرد الفهم وخذ لذلك أسبابه من الاستعداد تفهم. وعندئذٍ ستكون في سعادة لا تعدلها سعادة، وتحسّ بلذة لا تفوقها لذة.

فحلاوة القرآن أمر لمسه الكافر، وشهد بها البرّ والفاجر، ألا تذكر قولة الوليد عندما ناقش قومه سرّاً فيما يواجهون به الناس لصدّهم عن السبيل

وصرفهم عن الإيمان بهذا الكتاب... لقد قال لهم: ماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجلٌ أعلم مني بالشعر، ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ. والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا. والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وبيّن لهم أنه ليس بالسجع المعروف، ولا هو بالشعر المألوف... ووضّح لهم أنّ اتهامهم محمداً بأنه كاهن أو شاعر ليس له أي قيمة.

ثم قال بعد أن فكّر وقدّر، وبعد أن نظر وعبس وبسر قال: (إن هذا إلا سحر يؤثر. أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله ومواليه؟) وفي ذلك يقول تعالى: ﴿**إنه فكّر وقدّر، فقتل كيف قدّر، ثم قتل كيف قدّر، ثم نظر ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر**﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥].

هذا الكتاب المعجز الجميل، ذو الحلاوة والطلاوة التي يدركها كل متذوق للعربية، هذا الكتاب أوحاه الله إلى محمد وأمره بتلاوته ﴿**واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك**﴾ والمسلمون مأمورون أيضاً بتلاوة هذا الكتاب وليس هناك مبدل لكلماته... إنَّ الحقائق التي يعرضها القرآن حقائق نهائية لا تقبل الجدل والمراء، أو التردد والنقض، وليس لك أيها العبد ملجأ من الله إلا إليه.

إنّ قدرة الله كبيرة، وسلطانه واسع، وكل ما في الأرض في يده وطوع أمره فأين المفرّ؟

إنّ إدراك هذا المعنى ليزجر النفس أيما زجر، ويحول بينها وبين المعصية، وهذا المعنى حقيقة لا يرتاب فيها مؤمن.

هل هناك في اعتقاد المؤمن ملجأ لا يخضع لسلطان الله حتى يحدّث العاصي نفسه بأنه يأوي إليه لينقذ نفسه من العقوبة؟ ﴿**ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن**

الكاذبين أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ [العنكبوت أولها].

لن تجد أيها العبد من دونه ملتحداً فارجع إليه، وأقبل عليه وأنت في سعة الدنيا، قبل أن ترجع إليه وقد كسبت من الذنوب الكثير، وأهلكت نفسك بالشك والارتياب.

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون ١١٥] ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يومٌ لا مردَّ له من الله ما لكم من ملجأ يومئذٍ وما لكم من نكير﴾ [الشورى ٤٧].

وقد جاء في القرآن على لسان الجن يخاطبون قومهم: ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم. ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ [الأحقاف: ٣١ - ٣٢].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحب في الله

قال الله تعالى:

﴿**والذين تبوؤوا الدار والإيمان يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ [الحشر ٩].

لقد كان السلف الصالح جيلاً مثالياً قائداً، يدعو بواقعه الرفيع الرائد، وبالحياة النظيفة الفاضلة التي كان يقيمها، يدعو معاصريه والأجيال المقبلة إلى الخير والاستقامة والصلاح والفلاح بالسير على ذاك النهج القويم لتصل إلى ذاك المستوى الكريم، الذي يسعى لتحقيقه المصلحون، ويبذلون في سبيل الوصول إليه قصارى جهودهم ولا يصلون.

والآية الكريمة المتقدمة تصوّر لنا الأنصار الكرام الذين كانوا يحبُّون إخوانهم المهاجرين حباً جماً، جعلهم يشاركون أولئك المهاجرين أموالهم ومتاعهم وكل ما يملكون، ولم يقتصروا على هذه المشاركة بل كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. لقد كان الحبّ في الله هو المنطلق الأول للناس في المجتمع الإسلامي أيام النبي ﷺ، وكان هو القاعدة الأساسية التي يقوم عليها بناء المجتمع. وعندما يستقر الحب الصادق في أعماق النفس تصدر عن الجوارح التصرفات الكريمة على النحو الذي كان عليه المسلمون في العصر الأول ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف**

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بينهم﴾ [الانفال: ٦٣]. إنَّ الحبّ في الله عندما يعمر النفوس تذوب المشكلات، وتتلاشى الأنانيات، ويزول شبح الحقد والكيد، وتتحرر الفضائل من كل قيد، وتعم السعادة والتعاون طبقات الناس، ولأقرّب هذا المعنى إلى الأذهان أضرب المثل بالعلاقة بين الوالد والولد، إذ نرى أن الحبَّ الأبويّ الصادق يهوّن من شأن المال وقيمته في عين الوالد، والإنسان مفطور على حبّ المال ﴿وإنَّه لحب الخير لشديد﴾ [العاديات: ٨] ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ [سورة الفجر: ٢٠]، فترى الوالد يبذل لابنه ما يشاء من المال، في علاجه ومداواته، وتعليمه وتربيته، وكسوته ومتعته، وطعامه وشرابه، ولا يحسُّ أبداً بحسرة على ما ينفق. وكذلك فإنَّ هذا الحبَّ الأبويّ لا يجعله يضيق بالتعب المضني ولا بالجهد المستمر ولا بالسهر والعناء... بل يستعذب العذاب، ويلتذ بما يلقي من التعب والجهد والشقاء، ولا يتبرم ولا يكل ولا يتضجر ولا يملّ... إذا كان الحبّ الأبوي ـ في دنيا الواقع ـ على هذه الدرجة من التأثير والحضّ على البذل والعطاء، فكيف ينبغي أن يكون الحب في الله؟

إن الحب في الله يجب أن يكون أكثر تأثيراً ودفعاً إلى العطاء وحضّاً على البذل والتعاون على البر والتقوى.

إنّ ربنا عز وجل يقول: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [التوبة ٢٤] وفي هذه الآية تهديد مخيف لمن يكون آباؤهم وأبناؤهم أحبّ إليهم من الله ورسوله والجهاد في سبيله، وهذا التهديد يخلع قلب الإنسان المرهف الحسّ العميق الإيمان، لأنه صادر عن الله، وقائله هو جبار السموات والأرض، وهو على كل شيء قدير، وبطشه شديد، وعذابه أليم شديد.

والمؤمن دائماً عظيم الحب لله كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا أشدُّ حباً لله﴾ [البقرة: ١٦٥] وحبنا لله يتمثل في التزام شرعه، ونصرة دينه، والنصح لعباده، وحبهم ونفعهم، وإنا لنقرأ في الحديث القدسي: «مرضت فلم تعدني.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟...»[1].

إنَّ الحب في الله ليس بالادّعاء اللساني... بل هو في أن يكون ظاهراً للعيان متمثلاً في السلوك.

من أجل هذا كان الحبّ في الله علامة من علامات الايمان، يجد بسببه من عَمَر قَلْبَهُ الحبُّ يجد حلاوة الايمان كما في قوله ﷺ الذي رواه أنس قال قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهنّ حلاوة الايمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ومن أحبَّ عبداً لا يحبه إلا لله، ومن كره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار» رواه البخاري ومسلم[2].

وحلاوة الايمان ـ كما هو واضح من الحديث ـ يتوقف وجودها على حب الله ورسوله حباً يفوق كل حب، وعلى حبّ عباده الصالحين حباً خالصاً لله لا تشوبه مصلحة ولا دنيا، وكراهة العودة إلى الكفر كما يكره الموت حرقاً.

وهذا الربط بين الايمان والحب في الله يغري المؤمنين الصادقين بحبّ إخوانهم الحب الصادق.

والحب في الله سبب لدخول الجنة والاستظلال بظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سبعة يظلهم الله تحت ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[3]. وكما جاء في الحديث القدسي: «يقول الله

(١) مسلم برقم ٢٥٦٩.
(٢) البخاري ٩/١ ومسلم برقم ٤٣.
(٣) البخاري ١١١/١ ومسلم برقم ١٠٣١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تعالى يوم القيامة: أين المتحابّون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظل» رواه مسلم(١).

وما أعظمها من مكافأة.. وما أجزله من ثواب.

ذلك أن الناس في ذاك اليوم العصيب يكون كل منهم مشغولاً بنفسه، يلجمهم العرق وتدنو الشمس من الرؤوس ﴿**يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً**﴾ [آل عمران: ٣٠] قال تعالى: ﴿**وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ [غافر: ١٨ و١٩] يوم قال فيه ربنا: ﴿**ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء**﴾ [إبراهيم: ٤٢ و٤٣] في هذا اليوم يكون المتحابون في الله في ظل العرش ينعمون برضا الله عنهم، وتلك سعادة تتقاصر عنها كل سعادة يعرفها البشر.

وللحبّ في الله مظاهر لا بدَّ أن تبدو للعيان، فلا يكفي أن يردد المرء كلاماً فيه ادعاء أنه يحب المسلمين... يحبهم لله وفي الله، فما أسهل الدعوى، ولكن التطبيق شيء آخر.

ونود أن نعرف بآثار الحبّ في الله: إن من أهم مظاهر الحب في الله التآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، ذلك لأنّ الذي يحبُّ ولده لا يمكن أن يتركه يمضي وهو يراه يهمّ بفعل مؤذ لصحته، أو مود بحياته. بل ينهاه عن ذلك بحماسة ورجاء وتصميم واندفاع.. نعم لا يتركه إلى الهلاك ولو كلفه ذلك الكثير من الجهد والوقت.

وكذلك فإنّ الأب الذي يحب ولده لا يدع النصح والإرشاد والدلالة والبيان والتصريح أو الإشارة إلى الفرصة التي تلوح أمامه ليغتنمها ذلك الولد فتتغير أحواله ويزداد تقدماً ونماءً وقوة وثراءً يقول تعالى: ﴿**والمؤمنون والمؤمنات**

(١) مسلم برقم ٢٥٦٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ [التوبة ٧١].

والمؤمنون بعضهم لبعض نصحة... بل إن الدين كله في النصح.. وما أروع هذه الصورة النبوية التي نجدها في الحديث الصحيح «المؤمن مرآة أخيه» فيرى المرء عيوبه من خلال نصح أخيه. والحبُّ الصادق يدفع المؤمن إلى أن لا يسكت عن خلل يراه أو نقص يلمسه، ومن هنا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صفة المؤمنين ومن مظاهر الحب في الله... مع الوسيلة الحسنة والأسلوب اللطيف.

ومن أهم هذه المظاهر دعاء المسلم لأخيه الذي يحبه كما نجد في آية سورة الحشر ﴿**والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم**﴾ إلى أن يقول سبحانه: ﴿**والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم**﴾ [الحشر ١٠] وقد ورد أن دعاء المؤمن لأخيه في ظهر الغيب من الدعاء الذي لا يردّ[١]. وهذا لعمري من أعظم العلامات على صدق المحبة، إذ يقول ما يقول في غيبة عن أخيه والناس أجمعين، وهذا أيضاً مما يزيد المحبة ويرسخها ويعمق أصولها.

ومن مظاهر الحب في الله التعاون على البر والتقوى، فترى هؤلاء المتحابين في الله إخوة متعاونين متآخين، يبدون صَفّاً واحداً يشعر كل واحد منهم بآلام إخوانه كأنها آلامه.. إنهم كما صورهم الحديث النبوي العظيم كالجسد الواحد يقول ﷺ: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[٢]» والنظر المتأني في هذا التشبيه يفتح مجالات من القول متعددة وعميقة الدلالة.

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٧٣٣.

(٢) صحيح البخاري ٩/٨ وصحيح مسلم برقم ٢٥٨٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومن مقتضيات التعاون نصرة بعضهم لبعض فالمسلم كما يقول رسول الله ﷺ :«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه[1] » فنصرة المسلم لأخيه واجب شرعي قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض. والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا. وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير**﴾ [الأنفال ٣٢] وقال تعالى: ﴿**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم**﴾ [الأنفال ٧٤].

ومن مظاهر الحب في الله في المجتمع الإسلامي التراحم الذي يسود هذا المجتمع قال تعالى في وصف المؤمنين الذين يحبهم الله ويحبونه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾ [المائدة ٥٤].

إن رحمة هؤلاء المؤمنين بإخوانهم رحمة بالغة حتى وصلت إلى درجة الذل والمسامحة... وإن كانوا على الكافرين أعزة.

إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين... فالمؤمن عزيز إلا أمام أخيه الذي يحبه في الله... فهو لا يشعر نحوه بأي استعلاء.. بل إنه لمبالغته في الرحمة يبدو كأنه ذليل. وقد فهمنا الآية على هذا النحو بإرشاد آية الاسراء في بر الوالدين ﴿**واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**﴾. [الاسراء: ٢٤].

ومن مظاهر الحب في الله المواصلة والمزاورة.

عن معاذ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ وللمتجالسين فيّ وللمتزاورين في» رواه مالك وابن حبان وأحمد بسند صحيح[2].

(١) صحيح مسلم برقم ٢٥٦٤ وبرقم ٢٥٨٠.
(٢) موطأ مالك ٢/٩٥٣، موارد الظمآن برقم ٢٥١٠.

وما أعظم هذه المكافأة التي يتضمنها هذا الحديث القدسي الذي يوجب الله تبارك وتعالى محبته للمتحابين فيه وللمتجالسين فيه والمتزاورين فيه.

ومن أحبَّه الله كان من السعداء الفائزين، تَصوَّرْ يا أخي أن الله خالق الخلق ومدبر الكون وجبار السموات والأرض وملك الملوك يحبّك... يا لها من سعادة... ويا له من فوز. يدرك ذلك من كان له قلب حاضر موصول بالله تبارك وتعالى.

والزيارة عندما تكون خالصة لله تعمّق جذور المحبة في النفس، وتربط بين أبناء الأمة الواحدة والعقيدة الواحدة.

ومما يتصل بموضوع الحبّ في الله البغض في الله، إن ذلك من أفضل الأعمال التي تحقق استكمال الإيمان.

عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ:

«من أحب لله وأبغض لله ومنع لله فقد استكمل الايمان»[1].

وإنهما متلازمان.. لا بد أن يكونا معاً، فإذا أحببت الصالح لصلاحه كان طبيعياً أن تبغض الطالح الفاسد لفساده، وإن ذلك مما يؤصل المحبة في الله وينميها، لأن الشعور بالكراهية للكافرين والفاسقين والفاسدين يربط المرء بأهل الدين والاستقامة والصلاح. ومن هنا كان الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان.

عن البراء بن عازب قال:

كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: «أيُّ عرى الإسلام أوثق؟».

قالوا: الصلاة.

قال: «حسنة. وما هي بها».

قالوا: صيام رمضان.

قال: «حسن. وما هو به».

---

(١) أبو داود برقم ٤٦٨١، وروى أحمد في المسند ٤٣٨/٣ عن معاذ بن أنس حديثاً آخر بنحوه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قالوا: الجهاد.

قال: «حسن. وما هو به».

قال: «إنَّ أوثق عرى الإيمان أن تحبَّ في الله وتبغض في الله». رواه أحمد والطبراني(١).

ومحبة الكافرين مهلكة، ومحبة المؤمنين منجاة وسعادة، ذلك لأن المرء يكون في الآخرة مع من أحب، فمن أحب أعداء الله من المشركين والكافرين والفاسقين والفاسدين كان معهم.

ومن أحب الأنبياء والأولياء والصالحين كان معهم.

عن ابن مسعود قال قال ﷺ: «المرء مع مَن أحبَّ» رواه البخاري ومسلم(٢).

ولذلك كان التحذير للمؤمن من مخالطة غير المؤمنين.

عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقيّ» رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه(٣).

إن أمتنا الإسلامية تتميز بالصفات الكريمة التي جعلتها خير أمة أخرجت للناس وأهّلتها لحمل رسالة الله الخالدة إلى الدنيا، ولكنَّ الماديَّة غزتنا عن طريق حضارة أوربا فأثرت فينا آثاراً عدة، وخطرها يتعاظم حيناً بعد حين. ولا بدّ من التنبيه والتحذير لهذا الخطر الماحق. إننا نحتاج إلى رواد يحيون بالحب لله، ويتقدمون إلى الناس بطراز من السلوك يصبغه الحب في الله، وينأى عن النفعية والأثرة، إنَّ هؤلاء الرواد لو وجدوا لكانوا أمل الأمة في أن تتغير كثير من أحوالنا المنكوسة المقلوبة.

إن الدعاة إلى الله مطالبون بأن يكونوا هم الرواد في هذا المجال. فهل هم فاعلون؟

---

(١) مسند أحمد ٤/٢٨٦.

(٢) البخاري ٨/٣٣، مسلم برقم ٢٦٤٠، الترمذي ٣/٢٨١ و٤/٢٦٩، مسند أحمد ٤/٣٩٢ و٣٩٥.

(٣) أبو داود برقم ٤٨٣٢، وصحيح الترمذي للألباني ١٩٥٢، وموارد الظمآن برقم ٢٠٤٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تحذير من الغافلين أتباع الهوى

قال تعالى: ﴿واتلُ ما أُوحيَ إليك من كتاب ربِّكَ لا مبدّل لكلماته ولنْ تجدَ من دونه مُلْتحداً واصبرْ نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بما كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً. أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحَلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾. [الكهف: ٢٧ ـ ٣١].

قرّر القرآن في أكثر من موضع حقيقة تساوي الناس في أصل الخلقة، وأنّ المال والمنصب والنسب واللون كل أولئك أمور لا يعتدّ بها في ميزان الشرع الدقيق العادل، ولا يتفاضل الناس بناءً عليها.

وقد أوصت الآيات المتقدمة بملازمة الأتقياء الأبرار ممّن اتصفوا بالإيمان الصادق بالله عز وجلّ واتصلوا به بالعبادة والدعاء، وتعلقت قلوبهم به آناء الليل وأطراف النهار، وأرادوا وجهه سبحانه وثوابه ورضوانه، ولم يريدوا شيئاً من أعراض الدنيا الفانية الزائلة... وقررت أن هذا النفر من الناس هم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الذي يجلس إليهم، وهم الذين يجب أن يكونوا موضع التقدير، والإيثار، ولا ينبغي أن تتجاوزهم العينُ إلى غيرهم من أصحاب الجاه واليسار... إنّ العاقبة للمتقين.. أمّا الغافلون عبيد الأهواء فأمرهم إلى زوال. إنّ الناس اليوم يعيشون في مجتمع اختلّت فيه المقاييس، وزيّفت فيه الحقائق.. فقيمة الإنسان لدى أكثر أبناء المجتمع اليوم ترتبط بغناه وكثرة أملاكه، ووفرة فلوسه وبألقابه الاجتماعية، وبلونه وبلده ونسبه، فمن جمع من هذه الأمور قدراً كافياً كان عند الناس وجيهاً يحرص على صحبته ومرافقته. لقد صحّحت الآية هنا هذه المقاييس، وأتت بالمقياس الصحيح الذي يرد للإنسان كرامته التي ميّزه الله بها عن غيره من المخلوقات.

إنّ الإسلام دين الله الحق، وما سواه باطل.. لقد تبيّن الرشدُ من الغيِّ.. وبعد هذا فما على الإنسان إلاّ أن يختار الايمان أو الكفر ﴿**إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإما كفوراً إنّا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالاً وسعيراً إنّ الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً**﴾ [الإنسان ٣ ـ ٥].

وليعلم أن عاقبة الكفر النار، وأن جزاء الايمان الجنة ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر**﴾ هكذا بكل وضوح.. إن العقيدة لا تعرف المساومة ولا أنصاف الحلول، فالعقيدة إما أن تكون إيماناً وإما ألا تكون كذلك. والتفريط بعنصر منها تفريط بها كلها، فمن شاء أن يؤمن بها كما أنزلها الله فليؤمن، ومن أبى وأراد الكفر فليكفر.. ولكن ليعلم منذ الآن أن الحساب عسير وأن العقاب أليم ﴿**إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً**﴾.

إنه لمشهد تنخلع القلوب من تصوره، هؤلاء الكافرون الظالمون أعدت لهم نار تحيط بهم أسوارها من كل جانب، تحرقهم بلهبها وحرارتها، وتلسعهم بسياط شررها، وليس لهم مفر منها ولا خروج، وإن طلبوا الغوث بماء يشربونه بسبب العطش الذي أصيبوا به يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه قبل أن يقترب من الشفاه، فكيف حال الفم والحلق والأمعاء؟ ﴿**وسُقوا ماءً حميماً**

فقطع أمعاءهم﴾ [محمد ١٥] ألا ما أسوأه من شراب!! وما أسوأها من مرتفق!! من منزل ومقيل وموضع للارتفاق!! **﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾** [الفرقان ٦٦].

قال ابن كثير: (يقول تعالى.. قل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شكّ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: إنا اعتدنا أي أرصدنا للظالمين ـ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ـ ناراً...) والسرادق السور.. وإنه لحائط من النار نسأل الله السلامة والنجاة.

والمهل: قال ابن عباس: المهل الماء الغليظ مثل دُرْدِيِّ الزيت[1]. وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره. وقال الضحاك: ماء جهنم أسود. وقال ابن كثير: (وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإنّ المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حارّ، ولهذا قال يشوي الوجوه...).

إنّ المؤمن ليروع من هذه الصورة، ويخشى أن يكون من الذين يتعرضون لها... ولقد عبّرت الآية عن الكافرين بالظالمين، وإن الكفر لظلم وأي ظلم **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾** [لقمان: ١٣].

ولتتوضح الصورة عرض القرآن لنا مشهد المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ليكون هذا التقابل معواناً على بروز معنى العقوبة والمثوبة، وظهوره أمام كل إنسان مكلف عاقل. وهذا نهج القرآن في ذكر الجنة والنار.

إنّهم هم السعداء لإيمانهم وعملهم الصالحات.. إنهم يلقون في ذاك اليوم ما قدموا لأنفسهم: لأنّ ربنا تبارك وتعالى لا يضيع أجر المحسنين وهو يقول: **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾**.

جزاؤهم جنات يقيمون فيها ولا يتحولون عنها أبداً، تجري من تحت غرفهم الأنهار، يرزقون فيها من الثمرات بكل ما لذ وطاب، ويحلون فيها

(١) جاء في القاموس: دُرْدِيُّ الزيت: ما يبقى أسفله.

أساور من ذهب، ويلبسون ثياباً خضراً من الحرير والديباج ما رقّ منه وما غلظ، متكئين فيها على الأرائك.

ما أحسنه من ثواب!! وما أحسنها من مقيل ومنزل!!

إن عرض هذين المشهدين ليدعونا إلى أن نزداد إيماناً... وأن نحرص على العمل الصالح لنخلص من تلك النار، ولنسعد بهذا النعيم المقيم.

ملازمة الصالحين ومجالستهم

قال تعالى: ﴿**واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه. ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا. ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً**﴾ [الكهف: ٢٨].

هذا أمرٌ من الله العلي الكبير لرسوله وخير خلقه سيّد الأنبياء أن يجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه، ويكبرونه ويسألونه، يدعونه تبارك وتعالى بكرة وعشياً.

هذا أمر من الله لأشرف المرسلين أن يجلس مع هؤلاء النفر من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، أو أقوياء أو ضعفاء.

وهذا الأمر الكريم يتوجه إلى المسلمين المتبعين لهذا النبي الكريم، فمجالسة الأبرار من عباد الله نور للقلب، ومتعة للروح، وعون على قطع الطريق، وسلوك السبيل الموصل إلى الجنة ورضوان الله. وتذكر أسباب النزول أن هذه الآية الكريمة نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه من أمثال بلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود وأن يفرد أولئك بمجلس على حدة، قالوا: يا محمد إنّ هؤلاء المستضعفين من أصحابك من طبقة حقيرة في المجتمع، نأنف أن نلقاهم أو أن نجلس معهم على صعيد واحد... إنّ رائحة عرقهم تزخم

الأنوف وتؤذينا[1]... فلا يليق بنا ونحن الأشراف الكبار أن نشاركهم في المجلس والكلام، والشراب والطعام.

إن هذا الطلب المرفوض إسلامياً ينبثق من تلك العقلية الطبقية المقيتة، التي تفرّق بين الناس تبعاً لاختلاف قدراتهم المالية، أو انتماءاتهم القبلية، أو لاختلاف ألوانهم وبلدانهم.. وهي عقلية مردودة في الإسلام..

إنّ التمايز بين الناس موجود، ولكنه ليس يتبع واحداً مما جاء في العقلية الطبقية المنتنة.

إن التفاضل بين الخلق قائم، ولكنه ليس على أساسٍ من الأسس المنحرفة الجاهلية.

ولقد قرر كتاب الله التمايز والتفاضل بين الناس في قوله تبارك وتعالى: ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾ [الحجرات: ١٣] والشيء الرائع في الآية أنها عندما قررت تفاوت الناس في المنزلة عند الله قدمت له بأن الأصل المساواة لأنهم مخلوقون من أصل واحد من ذكر وأنثى، وبأن الاختلاف في الشعوب والقبائل للتعارف لا للتقاتل ولا ليتفاخر بعضهم على بعض. فأفضل الناس أتقاهم ولو كان عبداً أسود كأن رأسه زبيبة.

ومن العجب أن هذه العقلية المنحرفة المنتنة كانت في أقدم العصور وما زلنا نراها حتى اليوم في أضخم البلاد حضارة وتقدماً في أمريكا وأوروبا، لقد كانت إلى عهد قريب ظاهرة في قوانينهم، ولئن أزيلت من القوانين أخيراً إنها قائمة في أعماق نفوسهم، وتطالعنا الأخبار عن حركات تتسم بالعنف تنادي بهذا التفريق الذي استقر في نفوس الناس... وتحاول التعبير عنه بالنسف والاغتيال وما إلى ذلك من مظاهر العنف، في إنكلترا وأمريكا.

وقد حكى لنا القرآن أن هذه الصيحة المنكرة انطلقت في قوم نوح عنيفة معاندة:

(١) الدر المنثور ٣/١٣ و٤/٢٢٠

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه: إني لكم نذير مبين، أن لا تعبدوا إلاّ الله إني أخافُ عليكم عذاب يوم أليم. فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما نراك إلا بشراً مثلنا، وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا باديَ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين﴾ [هود ٢٥ ـ ٢٧].

وكان ردّ سيدنا نوح العظيم تتمثل فيه الحكمة بأجلى مظاهرها وبالهدوء التام والحلم الكامل: ﴿قال: يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون، ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً، إن أجري إلا على الله، وما أنا بطارد الذين آمنوا، إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون.

ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون.

ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني مَلَكٌ ولا أقول للذين تزدري أعينكم: لن يؤتيهم الله خيراً. الله أعلم بما في أنفسهم. إني إذاً لمن الظالمين﴾ [هود: ٢٨ ـ ٣١].

إنه موقف من نوح يصحح لهم نظرتهم للأمور وللقيم، ويرفض هذه النظرة الطبقية المقيتة... كان ذلك في زمان نوح القديم، وفي هذه الأيام نرى التمييز العنصري الذي يقوم على الاعتقاد بتفوق العرق الأبيض واحتقار الملونين.

روى مسلم في «صحيحه»(١) عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا.

قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما. فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ [الأنعام: ٥٢].

(١) صحيح مسلم برقم ٢٤١٣

ألا فاحملوا أنفسكم على العيش مع هؤلاء المؤمنين الأبرار الأخيار واصبروها معهم... إنهم يدعون ربهم بالغداة والعشيّ لا يغفلون عن الله ولا يكلون عن دعائه ولا يريدون إلا وجهه، ثم يقول تعالى: ﴿**ولا تعد عيناك عنهم**﴾ لا تتحول عيناك عنهم إلى غيرهم... ففيهم الخير وفيهم البركة، ولئن كانت مقاييس البشر لا تعطي هؤلاء حقهم لفقرهم ولنسبهم ولونهم إن مقاييس الإسلام تجعلهم هم وحدهم الجديرين بالمجالسة والمؤانسة. فإذا خطر في بالك أيها الإنسان ما يخطر في بال الناس فاصبر نفسك معهم صبراً.

أما أولئك الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا فلم يستطيعوا أن يدركوا هذه المعاني وسموّها فلا تطعهم.. إنهم قوم اتبعوا أهواءهم، وليس هناك أضل ممن اتبع هواه وكان أمره فرطاً. في هذه الآية الكريمة تصحيح للنظرة الخاطئة، وتوجيه إلى مجالسة الصالحين الصادقين، وتحذير من طاعة الغافلين المعرضين عن الله الذين يؤول أمرهم إلى ضياع.

أساليب الدعوة وقواعد العمل فيها

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

هناك أخلاق لا بدَّ للداعية أن يتصف بها، وقد كتب الكتاب المهتمون بالدعوة في القديم والحديث البحوث العديدة والكتب النافعة.

وأريد ـ في هذه الكلمة ـ أن أتحدث عن خلق من أهم أخلاق الداعية التي ذكرها القرآن.

وكلما ذكرت قضية الدعوة ثار شجني وعظم حزني لحال المسلمين الذين يملكون بدينهم كل الحلول النافعة والأدوية الناجعة لأمراض الإنسانية ومشكلاتها، وعلى الرغم من ذلك فهم لا يدعون إلى دينهم بواقع عملي يحيونه، ولا بوسائل الإعلام والدعاية المعاصرة من خطابة وكتابة وإذاعة وما إلى ذلك. ذلك لأنهم عطلوا الحكم بما أنزل الله، واحتكموا إلى أنماط جاهلية استوردوها من أعدائهم... فتخلفوا ولا يزالون متخلفين إلاّ أن يعودوا إلى الله.

ولو عرف الناس الإسلام على حقيقته، ودوره في علاج أوضاعهم المختلّة لدخلوا في دين الله أفواجاً.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يردّ المسلمين إلى دينهم ليعرفوا مهمتهم في هذه الحياة. أوَلا يُؤلم هذا الواقع كل غيور؟ لا سيما عندما نفتح أبصارنا على جيوش جرارة من الدعاة لألوان من الباطل من مبشرين يدعون إلى دين

شبكة الألوكة - قسم الكتب

محرف باطل، ومن شيوعيين يدعون إلى فكرتهم الهدامة الخبيثة، ومن ملحدين مجرمين وإباحيين شريرين... وما إلى ذلك يدعون إلى هذه الألوان من الباطل بأحدث الوسائل وأعظم الإمكانيات:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمان

وإنني لأناشد كل من يبلغه هذا الكلام، من القادرين، أن يسهم بما يستطيع في الدعوة إلى الله من مال ولسان وقلم وجاه.. فالدعوة إلى الله اليوم في أزمة شديدة... إذ تواجه بأشرس عدوان من قبل أعداء الله جميعاً، سواء كانوا من بني جلدتنا أم من الأجانب عنا... إنني أناشدهم أن يعملوا قبل أن يحال بينهم وبين العمل، بسبب خارج عنهم كأن يمنعهم الطواغيت من أي عمل يتصل بالدعوة، أو بسبب عائد إليهم كالمرض والعجز والموت وما إلى ذلك... إنهم إن عملوا أعذروا إلى الله وضمنوا لأنفسهم النجاة يوم القيامة، وقد يبلغون كثيراً مما يريدون إن صدقت النيات، وتعاونت الكفاءات فيحققوا للمجتمع الذي يعيشون فيه سعادته التامّة في الدنيا والآخرة... وإلاّ فليحذروا البلاء وليتربصوا الفتنة والله تبارك وتعالى يقول: ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة**﴾ [الأنفال: ٢٥].

إنها تذكرة للمسلمين الواعين بحقائق يعرفونها، وإن الذكرى تنفع المؤمنين.

ومن أهم أخلاق الداعية الأسلوب الحسن والتودد إلى المدعوين. يقول الله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ [النحل: ١٢٥] وهذا الخلق أمر مهم يتوقف عليه نجاح الداعية إلى حد بعيد.

وكلما كان ظله خفيفاً، وكلامه حلواً، وطباعه لينة، كان نجاحه أكثر. إن على الدعاة إلى الله أن ينتبهوا إلى تعاملهم مع الناس، وإلى أسلوبهم في الدعوة، وأن ينتقدوا أنفسهم نقداً ذاتياً، ويقوّموا عملهم، إن عليهم أن يتلطفوا في مواجهة الناس، وليستشعروا مسؤوليتهم بين يدي الله إن هم أساؤوا في عملهم، ولم يلتزموا الأسلوب الحسن، فنفروا فريقاً من الناس من دين الله.

ويبدو أن هناك عدداً من أبناء المسلمين نفروا من الدين عامة بسبب تصرف تصرّفه رجل محسوب على الإسلام.

ولنتدبر هذه الآيات من قصة موسى عليه السلام ﴿**اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى. قالا: ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال: لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى. فأتياه فقولا: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى**﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٧].

وفرعون الطاغية مدعي الألوهية ﴿**وقال فرعون: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري**﴾ [القصص: ٣٨] ﴿**فقال أنا ربكم الأعلى**﴾ [النازعات: ٢٤] ذو الأوتاد الذي كان يذبح الأبناء ويستحيي النساء، والذي يقول فيه القرآن: ﴿**وإن فرعون لعالٍ في الأرض وإنه لمن المسرفين**﴾ ويقول فيه:﴿**وما أمر فرعون برشيد**﴾ ويقول فيه: ﴿**وأضلّ فرعون قومه وما هدى**﴾.

فرعون هذا يأمر الله نبييه موسى وهارون أن يقولا له ﴿**قولا ليناً**﴾ وذكر علة هذا فقال: ﴿**لعله يتذكر أو يخشى**﴾ إن القول اللين والكلمة الطيبة مظنة التأثير على السامع حتى يستجيب ويرق قلبه ويخشى الله.

ثم أمرهما أن يبلغاه دعوة الله ويختما كلامهما بالسلام على من آتبع الهدى... ويمتثل موسى أمر ربه فيعرض عقيدة التوحيد بكل رفق وتلطف دون أن يوجه إليه شيئاً يجرحه بشكل مباشر.

وفي هذه الآيات الكريمة بالإضافة إلى الحض على الأخذ بالأسلوب الحسن في الدعوة التنبيه على أن الداعية ينبغي أن يمتلئ صدره بالأمل المشرق، وأن يطارد فلول اليأس من نفسه، والحق أنّ بينهما ترابطاً فإنك عندما تكون يائساً من استجابة إنسان إليك تشتدّ وتقسو. أما إذا كان بريق من الأمل يتراءى لك فإنك تحاول أن تتلطف في دعوتك وكلامك.

فلنحذر اليأس حتى ولو كان المدعو مثل فرعون عناداً وكفراً. ولنتقدم للناس بدعوتنا بالقول اللين والأسلوب الجميل والحكمة والموعظة الحسنة.

ألا فليتَّهم الدعاة أنفسهم إن لم يروا الاستجابة، وليعيدوا النظر في أساليبهم وطرائق دعوتهم.

ذكروا أنّ واحداً من أولي السلطان قال لإنسان يعظه ويغلظ له القول: على رسلك يا هذا، فلقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فقال له: ﴿**فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى**﴾.

ولننظر إلى الأسلوب الرائع الرقيق المحكم الذي أخذ به الرجل المؤمن من آل فرعون كما تصوره هذه الآيات: ﴿**وقال فرعونُ: ذروني أقتل موسى ولْيَدْعُ ربَّه إني أخاف أن يُبدِّلَ دينكم أو أن يُظهر في الأرض الفساد، وقال موسى: إني عذتُ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربيَ الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وَإِنْ يَكُ كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يُصبْكم بعض الذي يعدكم إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذاب. يا قوم لكم الملك اليومَ ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا، قال فرعون: ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. وقال الذي آمن: يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد، ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد. يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾ [غافر: ٢٦- ٣٣] فهو يناديهم بـ(يا قومي) مؤكداً الصلة الوثيقة التي تربطه بهم، ويبلل دعوته بندى المحبة والاشفاق فيحذرهم مما حدث للأمم السابقة، ويدخل نفسه معهم في العقوبة المتوقعة إن لم يسمعوا للنصح ﴿**فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا**﴾ ويحذرهم من يوم القيامة ثم يقول:

﴿**وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد. يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار. من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يُرْزَقون فيها بغير حساب. ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار. تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى**

العزيز الغفار. لا جرم إنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار. فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إنَّ الله بصير بالعباد. فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ [غافر ٣٨ - ٤٦].

إن هذا درس عملي للدعاة في الأسلوب الجميل والموعظة الحسنة وانظروا إلى الموازنة التي عقدها بين دعوته ودعوتهم **﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾** وانظروا كيف ختم هذه الدعوة **﴿فستذكرون ما أقول لكم وأفوّض أمري إلى الله﴾**.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأسلوب الحسن في الدعوة

إن كتاب الله العظيم قد حوى كل ما نحتاج إليه في أمور حياتنا وآخرتنا، ومن أهم الأمور التي ذكرها القرآن الكريم موضوع الدعوة، وقد ذكر خلقاً مهماً من أخلاق الداعية وهو التلطف في الدعوة والرفق بالمدعوين واستخدام الأسلوب الحسن في الدعوة، ذكر ذلك صراحة في قوله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾[1] وذكره إشارة خلال عرضه لقصص الدعاة إلى الله.

ذلك أننا نقرأ في كتاب الله أمثلة حية للدعوة تتمثل في نموذج عالٍ جداً من الدعاة إلى الله وهم الرسل والأنبياء وأتباعهم.

ولا بدَّ للدعاة من أن يقفوا أمام قصص هذه الخيرة من خلق الله وأساتذة الدعاة موقف المتأمل الداعي المتدبر.

وقد مررنا بطرف من قصة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون، وكيف سلك معه كل سبل الاقناع والتبليغ بمنتهى التهذيب والتلطف بالقول اللين والموعظة الحسنة، وأودّ أن نتدبر بعض المواقف الأخرى التي ذكرها القرآن الكريم:

فمن ذلك موقف سيدنا إبراهيم عليه الصلاة وأزكى السلام من أبيه

(١) سورة النحل ١٢٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لنرى الأسلوب الحسن في الدعوة وهو يبلغ ذروة الكمال والتوفيق... لنرى التلطف في الوصول إلى قلوب المخاطبين مع ما يلقى الداعية منهم من صنوف الصلف والغلظة والقسوة والإعراض.

يقول تعالى: ﴿**واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً. إذ قال لأبيه: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً. يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً. يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً. يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً. قال: أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً. قال: سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً. واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألاّ أكون بدعاء ربي شقياً. فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً. ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً**﴾ [مريم من ٤١ - إلى ٥١].

لننظر إلى إبراهيم الداعية ينادي أباه بهذا النداء العذب الجميل: (يا أبت) يناديه به أربع مرات ليثير في أعماق والده مشاعر الحنان والعطف، ويذكره بأعظم صلة وألصق قرابة وهي (الأبوة).

إن من الطبيعي أن يكون الولد محباً لأبيه، حريصاً على مصلحته، يريد له الخير والمجد، ويسوؤه أن ينسب إليه ما لا يليق لأن ذلك سيعود عليه، فالولد ينسب إلى والده... فهو يشير إلى هذا بقوله (يا أبت) حتى يبعد كل شبهة من شبهات الانتقاص أو التشهير أو الإساءة أو ما إلى ذلك..

ثم يكلمه بأسلوب عقلي منطقي مقنع كل الاقناع.. يخاطب فطرته وعقله.. ويدعوه إلى التدبر والنظر والتأمل فيقول له: لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟

وهناك تجربة لسيدنا إبراهيم مع الأصنام عندما حطّمهم ﴿**فجعلهم جذاذاً إلاّ كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون**﴾ وعندما سألوه عن فعلته أحالهم

على هذا الكبير فاستنكروا ذلك منه، وقالوا كلاماً كان يريد هو أن يقرره لهم ﴿**قالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم. قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون. ثم نكسوا على رؤوسهم: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم؟ أفٍ لكم ولما تَعْبُدونَ من دون الله أفلا تعقلون**﴾ [الأنبياء من٦٢إلى ٦٧] وإنها لحجة مقنعة ملزمة.

ويخبر إبراهيم أباه بأنه قد جاءه من العلم ما لم يأته، ويدعوه إلى الهدى ويقول: ﴿**فاتبعني أهدك صراطاً سوياً**﴾ ويقرر أن عبادته لغير الله عبادة للشيطان، والشيطان ليس أهلاً للعبادة... إنه عاصٍ للرحمن.

وبعد هذا يبلغه في حنان وتخوّف وحرص عليه وتعلق به أنه يخشى عليه أن يمسه عذاب من الرحمن... وكيف لا يخشى عليه ذلك وهو أبوه؟؟

أيُّ صدق في المحبة والودّ أعظم من هذا الصدق؟

وأي بر للوالد أبرّ من هذا البر؟

وأي تأدب في كشف ضلال الأب أرق من هذا التأدب؟

إنه يقول الحق بكل وضوح وصراحة، ويصر عليه أشدّ الاصرار، ولكنه يسلك لذلك أرق الأساليب، ويثير في نفس أبيه أرق المشاعر والعواطف... إنه ابن ناصح ودود صادق غيور مشفق رؤوف رحيم.

فماذا كان موقف هذا الأب الضال المغرق في الضلال، القاسي أعظم القسوة؟ كان موقفه متمثلاً في هذا الردّ الشرس: ﴿**قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني ملياً**﴾... إنه قد ختم على قلبه فلا يعي الحق، وعلى سمعه فلا يسمع دعوة التوحيد، وعلى بصره فلا يرى الاستقامة، وتبلدت فيه العواطف فلا تتحرك فيه عاطفة ولا يلين له قلب... إنه في واد... وابنه في واد.. إنه يسأل ابنه: أما زلتَ مصراً على التنكر لآلهتي والرغبة عنهم؟ يقول هذا وكأنه لم يسمع الكلام الذي يقنع الجاحد ويلين الحجر.

ومرة أخرى نرى التلطف في ردّ الولد الناصح الودود الرؤوف الداعية ﴿**قال: سلام عليك. سأستغفر لك ربي إنه كان بين حفياً**﴾ وبالفعل، فقد استغفر له ربه... حتى إذا تبيّن له أنه عدوٌّ لله تبرأ منه، ذلك لأنه لا يجوز للمؤمن أن يستغفر للمشرك ولو كان أباه كما قال تعالى: ﴿**ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحاب الجحيم... وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه. فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم**﴾[1] واعتزلهم وما يدعون من دون الله وفاصلهم، وتابع طريقه في الدعوة إلى الله فأكرمه الله عز وجل بالذرية الصالحة التي جعل فيها النبوة والهداية. إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومن المواقف التي نقف عليها في كتاب الله عز وجلّ تأديب الله عبده ورسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه، وتوجيهه في كيفية مخاطبة قومه ودعوتهم إلى الرشد ومن ذلك قوله عزّ من قائل: ﴿**قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله. وإنا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين. قل لا تسألون عمّا أجرمنا ولا نسأل عما كنتم تعملون**﴾ [سبأ ٢٤ ـ ٢٥].

يبدأ بأمره أن يسألهم عمن يرزقهم من السموات والأرض. وهذا أمرٌ يلمسونه لمساً، ويأمره بأن يتولى هو الجواب ويقرر بأنه الله. ثم يأمره سبحانه بأن يقول لهم: نحن وأنتم بين أمرين، فإما أن نكون على هدى وإما أن نكون في ضلال مبين، ويُبهم الحال ولا يبيّن من هو الذي على الهدى، ولا من هو الذي في الضلال المبين.

إنّ في هذا الابهام تلطفاً بهم... إن في ذلك إفساح المجال أمام هؤلاء المنحرفين أن يراجعوا أنفسهم، وأن يتبينوا الأمر على وجهه وحقيقته... وإنهم إن فعلوا ذلك بإنصاف سيصلون إلى الحقيقة، وهي أنّ النبيّ والذين آمنوا على الهدى وأنهم هم في ضلال مبين. ويأمره سبحانه أن يقول لهم:

---

(١) التوبة ١١٣ ـ ١١٤.

﴿**لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما كنتم تعملون**﴾ فالإجرام لا ينسبه إلى المجرمين... وإنما يؤمر بأن يقول لهؤلاء الكافرين: إن جرائمنا ـ لو كانت ـ لا تسألون عنها أنتم، ولا نسأل عما كنتم تعملون... ولا يقول لهم: ﴿**عما تجرمون**﴾ وإنما يسند العمل إليهم مطلقاً.

وقد أدب الله رسوله محمداً صلوات الله عليه فأحسن تأديبه، حتى كان خلقه الكريم سبباً في أن يستجيب الناس لدعوته، ذلك لأن التلطف في دعوة الناس والرفق بهم يقودهم إلى التزام طريق الحق.. وما أبلغ هذا القول الكريم الذي يخاطب به ربّ العزة حبيبه محمداً ﷺ فيقول: ﴿**فبما رحمة من الله لنتَ لهم. ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم، واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إنّ الله يحب المتوكلين**﴾[آل عمران: ١٥٩].

إنّ في ذلك لدرساً للدعاة... إذا كان المؤيد بالعصمة، المبعوث بالرحمة، المكلف بالرسالة من الله، يقول له الله تعالى:﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ فما القول بالإنسان العادي إذا كان فظاً قاسياً غليظ القلب جافي القول؟!

لقد كان رسول الله ﷺ ليناً رفيقاً، يعفو عمّن أساء إليه، يصل من قطعه، ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر. وصفه معاوية بن الحكم السلمي عندما تكلم معاوية في الصلاة فأنكر الصحابة عليه ذلك أشدّ الانكار فقال: (بأبي هو وأمي.. ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»)[1] رواه مسلم.

ونطالع في كتب السنة الحادثة الآتية، كان أحدُ أئمة المساجد يطيل في

(١) صحيح مسلم برقم ٥٣٧ وابو داود ٩٣٠. انظره في «رياض الصالحين» ٣٠٩.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصلاة حتى جعل ذلك بعض الناس يتأخرون عن صلاة الصبح، فلما علم رسول الله ﷺ بفعل ذلك الإمام غضب غضباً شديداً.

عن عقبة بن عمرو قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا. فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشدّ مما غضب يومئذٍ فقال: «يا أيها الناس! إنّ منكم مُنَفِّرين، فأيكم أمَّ الناس فليوجز فإنَّ من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة» متفق عليه(١).

فليتق الله أولئك الذين يتشددون على الناس، ويحملونهم ما لا يطيقون من الكلمة القاسية، والشتيمة المنكرة، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً. وهذا رسول الله ﷺ يقول: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» متفق عليه(٢) ويقول ﷺ: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين» رواه البخاري(٣) ويقول: «سددوا وقاربوا»(٤).

أما أولئك القساة الأجلاف الذين لم يعرفوا الرفق فهم محرومون من الخير كما قال ذلك رسول الله ﷺ حيث يقول: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله» رواه مسلم(٥).

إننا مطالبون باستخدام الأسلوب الحسن في الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان... وإننا مطالبون بذلك في هذه الأيام أكثر من أي وقت مضى، ذلك لأنّ الشر ودعاته قد تسلحوا بالوسائل المحببة إلى النفس الممتعة، ولأن الدعاة إلى الله اليوم قد جردوا في أكثر بلاد المسلمين من عوامل القوة ومظاهر السلطان ومن الوسائل المادية والمعنوية المؤثرة المنتشرة.

---

(١) البخاري ٩/٥٤ ومسلم برقم ٤٦٦ انظره في رياض الصالحين ٢٨٨.
(٢) البخاري ١/٢٠ ومسلم برقم ١٧٣٤ انظره في رياض الصالحين ٢٨٣.
(٣) البخاري ١/٤٥ انظره في رياض الصالحين ٢٨٣.
(٤) البخاري ٨/٨٣ ومسلم ٨/١٤١.
(٥) مسلم برقم ٢٥٩٢ وابو داود برقم ٤٨٠٩ انظره في رياض الصالحين ٢٨٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إنّ علينا ألاّ نكون عوناً للشيطان على أبناء أمتنا وديننا، إن علينا أن نترفق وأن نلين القول وأن لا نتشدد ولا نعسر.

ملاحظة هامة:

وهناك أمر لا بدَّ من التنبيه إليه وهو في غاية الأهمية:

لا يعني الأسلوب الحسن في الدعوة والرفقُ بالمدعوين التنازلَ عن مبادئ الدعوة، ولا الرضى بأنصاف الحلول، ولا اتخاذ الموقف المائع من القضايا المطروحة.. إنّ هذا لو حصل فإنما هو تشويه لحقيقة الدعوة ومبادئها.

إن الثبات على الحق والاصرار عليه وعدم المداهنة فيه أساسٌ لا بد منه.

وإنني أذكر هذه الملاحظة البديهية لما أرى من بعض الناس الذين تختلط عليهم الأمور، فتراهم باسم اللطف في الدعوة يتنازلون عن كثير من مبادئ الدعوة.. ويسلكون بعض المسالك المنحرفة تألفاً لمن يريدون دعوتهم.. ويقولون أحياناً زوراً من القول وباطلاً، ويقرون المخالفات الشرعية، ويسكتون عن الضلال والانحراف إن الأسلوب الحسن لا يمكن أن يعني شيئاً من هذا أبداً. ومنشأ هذا هو الضعف في شخصية الداعية، وقصور في تصوره والانهزام الداخلي أمام الخصوم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دور السيرة في الدعوة إلى الله

يقول الله تعالى:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

إن سيرة النبي ﷺ كانت على مرّ العصور عند جماهير المسلمين منارة مضيئة، تدلهم على طريق الحق وتأخذ بأيديهم إلى المستوى الكريم الذي يمكن أن يبلغه إنسان.

ذلك لأن رسول الله ﷺ أنفس ما عرفته الإنسانية من زعماء، وأكرم ما ظهر منها من رجال عظماء، إنه ﷺ سيد المرسلين وأشرف النبيين، وأفضل المصلحين والدعاة، وخير المرشدين والهداة.

ولذا كانت الأسوة الحسنةُ لنا فيه، وكان نعم القدوة لمن يقتدي به ويسير على سنَنه، وكان اتباعه سبباً للفوز في الآخرة والسعادة في الدنيا.

ولا بدّ لمن يريد التأسّي والاتّباع من أن يعرف تلك السيرة العطرة التي تناقلتها الأجيال، معجبة بحياة صاحبها، وأن يُلم بجوانب السنة المطهرة التي جمعت أقواله وأخباره **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**[**﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾**]ومما يحق لنا أن نفخر به ونعتز أنّ هذه السيرة الكريمة قد

شبكة الألوكة - قسم الكتب

دونت كاملة ووصلت إلينا شاملة، لم تدع جانباً من جوانب حياة هذا الرسول الكريم دون أن تسجلها وتسلط عليها الأضواء... حتى إني لأحسب أن تاريخ البشرية لم يعرف رجلاً نقل أصحابه أخبار حياته في كل جوانبها بدقة وموضوعية وأمانة كما نقل أصحاب محمد وزوجاته تلك الأخبار الكريمة، نقلوها فدونها العلماء في كتب السنة وكتب السيرة، وأحيوها وأذاعوها بين الناس حتى أضحت جزءاً من كيانهم وفكرهم واهتمامهم، بل لقد سجّل كتاب الله العظيم جوانب متعددة من حياة هذا الرسول تتصل بجهاده وغزواته، وبدعوته وصحابته، وبعلاقته بأهله وزوجاته، وبعواطفه ومشاعره وانفعالاته، سجّل كتاب الله ذلك كله فكان قرآناً يتلى ويحفظ، ويقرأ ويتأمل، إلى يوم القيامة. فليس هناك مجال لأن يعتذر امرؤ عن عدم الاتباع والتأسي بأن سيرته ﷺ غير واضحة ولا معروفة... إن الوضوح والدقة المتناهية والاستقصاء الشامل صفات تجلت في سيرته ﷺ على أتم وجه وأكمله. فليسعد محبّو هذا النبي الكريم ﷺ بأخبار سيرته، وليعيشوا في أجوائها العطرة، فلئن فاتهم شرف الصحبة ورؤية العين إن صحبة أخبار حياته، ومدارسة روائع أقواله متاحة لهم لينعموا بتأملها ثم ليسعدوا بتطبيق ما ورد عنه. وهذا الحب الصادق ورحم الله ابن المبارك الذي يقول:

لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إنَّ المحبَّ لمن يحبّ مطيع

* * *

إنَّ سيرة هذا الرسول العظيم خير عزاءٍ لأصحاب المثل العليا والدعاة الصادقين الذين يصطدمون بنماذج رديئة تدّعي الاستقامة وهي منحرفة، وتتظاهر بمظهر التقوى وهي فاسقة فاسدة... إنّ عيش هؤلاء الدعاة في ظلال السيرة المطهرة ليعصمهم من اليأس من كل خير واستقامة... لأنَّ اليأس من وجود هذه الأمور في الناس يقعد بهم عن الاستمرار في الدعوة والإرشاد... وقد يقود بعضهم إلى التغيّر والضعف أمام الشرّ والباطل، أو السقوط في بؤرة الانحراف.

إنَّ يأس الصالحين معناه انتهاؤهم وبدء انحرافهم، وقد ينفي إنسان وجود اليأس في نفسه باللسان، ولكنّه يبقى في قرارة نفسه يائساً إنَّ ذلك النفي لا يغير من حقيقة الأمر شيئاً، إذ الأمور بحقائقها لا بدعاوى المدعين ولا بكلمات المتكلمين.

وسيرة رسول الله ﷺ درس كبير للدعاة ولأصحاب المثل العليا، من نظر فيها وتأمَّل مواقفه ﷺ في كلّ مراحل الدعوة لم يدع طريقاً لليأس إلى نفسه.

لقد كان رسول الله ﷺ عظيم الأمل، لعظم إيمانه، ولكمال ثقته بنصر الله له، وسأذكر القراء الكرام بحادثة يوم الهجرة.

لقد تألبت قوى الشرك على رسول الله، واجتمعت كلمتها على حربه، وسئمت من الاكتفاء بمقاطعته وإيذاء أصحابه والتعرض له ﷺ أحياناً بالأذى والسخرية، فأرادت أن تسلك مسلك العنف في معاملته، كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾ [الأنفال: ٣٠].

ويخرج رسول الله من مكة بعد أن أعدَّ العدّة، ورسم الخطة، ويأوى إلى الغار على نحو ما تذكر الآية الكريمة: ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا**﴾[لنتأمل قوله ﷺ لصاحبه (لا تحزن) ويعلل ذلك بتذكيره بحقيقة لا بدَّ أن يذكرها المؤمنون وهي أن الله مع المؤمنين الصادقين، ومن كان الله معه لا تقوى قوة في الأرض مهما عظمت على صدّه عن طريقه أو على هزيمته أو على النيل من كرامته... يقول ﷺ ذلك في وقت عصيب ومكان رهيب يعبر عن ذلك أبو بكر رضي الله عنه: (لو أنّ أحدهم نظر إلى موضع قدمه لأبصرنا)[1] فماذا كانت نتيجة هذا الأمل الواسع؟ وماذا كانت نتيجة هذه الثقة الكاملة بنصر الله؟ كانت النتيجة كما قال تعالى: ﴿**فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم**

(١) صحيح البخاري ٤/٥.

تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾ [التوبة: ٤٠] وهذا يمكن أن يتحقق لورثة الأنبياء من العلماء الدعاة إن هم صدقوا في التأسي به والوثوق بنصر الله لهم إن كانوا أخذوا أنفسهم ليكونوا أهلاً لنصرة الله **﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾**].

إن كثيراً من مظاهر الواقع المؤلم اليوم للمسلمين قد تدفع الإنسان إلى اليأس وتوقعه في إساره وقيده المهلك.

فجهل المسلمين بحقيقة دينهم، وسيطرة الدنيا على قلوبهم، وهزيمتهم الداخلية في أعماق نفوسهم أمام الكفّار، وتخلّفهم في مجالات الحياة المتعدّدة.. كلّ هذا وغيره من نحو سيطرة الكفار والطواغيت على بلادهم وفكرهم واقتصادهم. ربما يوقع المرء في اليأس.

ولكنّ المسلم الحق لا يعرف اليأس، ولا يدع له مجالاً ليتسلل إلى نفسه، فلا يجتمع اليأس مع الإيمان.

إنَّ سوء الأوضاع هي التي تستدعي العمل وسرعة المعالجة من قبل الواعين المصلحين، وإنَّ اشتداد الظلمة هي التي تستدعي أن يتقدم المصلح بمشعل الهداية إلى الناس، أما عندما تغمر الشمس بضيائها وشعاعها الوجود كله فما الداعي إلى حمل المشعل؟

إنَّ سيرة النبي في الدعوة درسٌ كبيرٌ للدعاة، فلقد بعثه الله على فترة من الرسل والدنيا تموج في ظلام وظلم، وفي ضلال وشرك، وفي فساد وزيغ.. فتقدّم ﷺ يواجه الدنيا كلها برسالة التوحيد، ومبادئ العدالة، ولم يزده إعراض المعرضين ولا إيذاء المؤذين ولا استهزاء المستهزئين إلا مضياً في طريق الدعوة والإرشاد والهداية والتبليغ.

يخرج رسول الله ﷺ من مكة مطارداً، فبثت قريش الأرصاد في طلبه، ونشرت العيون في تتبع أثره ومعرفة طريقه، وقد أحكم ﷺ الخطة أيما إحكام، وبقي في الغار المدة التي حسب أنها كافية ليخف الطلب عنه، ثم سار في طريقه نحو المدينة، العاصمة الأولى لدولة الإسلام، وبينا هو كذلك يدفعه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلى الأمام عزم ثابت، وتصميم أكيد، ورجاء يملأ قلبه بنصر الله، إذا هو يفاجأ برجل يتتبعه يريد إلقاء القبض عليه.. وكان هذا الرجل سراقة بن مالك، وأترك الكلام لسراقة يقصّ علينا ما حدث له، يقول سراقة[1]: ـ كما جاء في صحيح البخاري ـ:

جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة إني رأيت آنفاً أسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه. قال سراقة: فعرفت أنهم هم. فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت بيتي، وأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتجسها عليّ. وأخذت برمحي، فخرجت من ظهر البيت.. حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها.. حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي، فخررت عنها، وقمت فأهويت بيدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها.. فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، فجعل فرسي يقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله وهو لا يلتفت وأبو بكر كثير الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها.. ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها... فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت الأزلام فخرج الذي أكره. فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، فقالا: أخف عنا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي رقعة من أديم، وذكر أنه جاء بهذا الكتاب إلى

(١) انظر البخاري ٤/١٦١ و٥/٦ و٥٠ و٥١ «البداية والنهاية» ٣/١٨٤ ـ ١٨٥ وقال ابن حجر: روى البخاري قصته في إدراكه النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة ودعا النبي ﷺ عليه حتى ساقت رجلاً فرسه ثم إنه طلب منه الخلاص وأن لا يدل عليه ففعل وكتب له أماناً وأسلم يوم الفتح. ورواها أيضاً من طريق البراء بن عازب عن أبي بكر. (الاصابة ٢/١٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رسول الله وهو بالجعرانة مرجعه من الطائف فقال لي: «هذا يوم وفاء وبر. ادن». فدنوت منه وأسلمت.

ولما رجع سراقة جعل لا يلقى أحداً من الطلب إلا ردّه وقال: كفيتم هذا الوجه.

وذكر ابن حجر[1] أن رسول الله ﷺ قال لسراقة: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟ قال فلما أتي عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه، وكان رجلاً أزبّ كثير شعر الساعدين فقال له: ارفع يديك وقل: الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابي. الله أكبر!! ما أعظم هذا الأمل وهذه الثقة بنصر الله عز وجلّ.. رجل طريد مهاجر يترك بلده وأهله إلى بلد جديد وناس غرباء، في زمن كانت العصبية القبلية عماد حياة الناس... ولكنه ﷺ عندما كان يمتلئ قلبه بالثقة بنصر الله وبأن الله معه لم يشكَّ أبداً في أن تأييد الله له آت لا محالة.. فجعله ذلك يعد هذا الأعرابي بسواري كسرى.

ومن كسرى في ذاك اليوم؟ إنه الرجل الأول في الدنيا أو الثاني، فلقد كان العالم المعمور خاضعاً لنفوذ دولتين هما دولة الفرس ودولة الروم.

وتدور الأيام دورتها ويتحقق وعد رسول الله ويَلْبَسُ سراقة بن مالك الأعرابي المدلجي سواري كسرى.

إن هذه القصة عندما يتأملها من يدرس السيرة النبوية غنية بالدروس يأخذ المتأمل البصير منها العبرة البالغة، ويجد فيها له الأسوة الحسنة، وعندئذٍ لا يمكن أن ييأس بحال من الأحوال.. ويرى في تصرف النبي ﷺ درساً عظيم التأثير.

ومهما يكن من أمر الصعوبات والعقبات التي تقف في طريق الدعاة إلى الله، والمرشدين من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر اليوم، فإن بوارق

(١) الاصابة ٢/١٨ - ١٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الأمل تبدو من هنا ومن هناك، يُحِسُّ بها أنصار الحق وأعداؤه.

ألا فليتابع العلماء الدعاة والمحتسبون من المذكرين طريقهم بنفوس مترعة بالأمل والرجاء، وليكن لهم في رسول الله الأسوة الحسنة.

إنّ سيرة رسول الله ﷺ مصباح يبدد كل ظلمة تقوم في وجه الدعاة والموجهين. إنَّ تلك السيرة العطرة لترسم لنا المثل الأعلى للداعية، الذي لا يدع لليأس سبيلاً إلى نفسه. فرسول الله ﷺ كان عظيم الأمل بالمستقبل.. انظر إليه صلوات الله وسلامه عليه في يوم الخندق ذاك اليوم الذي ابتلي فيه المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً وبلغت القلوب الحناجر.. لقد كان ﷺ واسع الرجاء، عظيم الأمل.

يقول الله تعالى في ذلك اليوم يوم الأحزاب: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً**﴾ [الأحزاب الآيات ٩ - ١١]. لقد ورد بأحاديث متعددة، وإن كان في إسناد كل منها كلام[1]، أنَّ رسول الله ﷺ تقدّم إلى صخرة اعترضتهم، وعجزوا عن تحطيمها فضربها ضربات جعلتها كثيباً، وتذكر هذه الروايات أنه كان يبشر أصحابه بفتح الشام والمغرب واليمن والمدائن عند كل ضربة يضربها، ولنتحدث عن أثر السيرة في دعوة الناس.. إننا نقرر بكل جزم أنه ليس هناك شخص عظيم، ولا بطل كبير أقرب إلى نفوس المسلمين، ولا أشدّ تأثيراً عليهم من رسول الله ﷺ.

وما يزال المسلمون مهما تدّنت أحوالهم، وتخلّفوا عن ركب الحق، وقافلة النور، ما يزالون يحلون رسول الله ﷺ أسمى المنازل في أعماق نفوسهم، ويرون فيه المثل الأعلى للإنسانية، إذا كان ذلك كذلك أفليس من واجب الدعاة إلى الله أن يزيدوا من عنايتهم بسيرته العطرة، دراسة وتأملاً،

(١) انظر هذه الروايات الضعيفة ونقدها في «البداية والنهاية» ٤/٩٩ - ١٠٢.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعرضاً على الناس، كتابة وإذاعة شعراً ونثراً، وأن يعتمدوا عليها أداة فعالة في دعوة الناس، والتأثير عليهم وحملهم على الجادة، ودلالتهم على السبيل السويّ؟

ولذلك نقرأ أن الصحابة عندما كانوا يُبَلِّغُونَ دين الله ويعظون الناس ويذكرونهم، كانوا يعتمدون على السيرة اعتماداً كبيراً. روى البخاري رحمه الله في صحيحه أن الهيثم بن أبي سنان سمع أبا هريرة رضي الله عنه وهو يقصُّ في قصصه، يذكر رسول الله ﷺ ويستشهد بشعر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه في رسول الله.

إن أبا هريرة[1] عندما أراد أن يعظ الناس كان يذكر رسول الله، وهو بذلك يسلك أقوى مسلك للدعوة والإرشاد، إنه ﷺ كما وصفه ربه رؤوف بالمؤمنين رحيم بهم، يعزّ عليه أن يصيب أمته العنت والضنك والبلاء: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عَنِتُّمْ، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ [التوبة: ١٢٨] فأي ثناء بشري يمكن أن يسمو إلى هذا المستوى؟ لقد أثنى عليه ربه في أكثر من موضع في هذا الكتاب الكريم، وحسبنا في هذا قوله سبحانه: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [القلم: ٤]ولله در القائل يستصغر كل محاولة بشرية تروم الثناء عليه ﷺ بعد هذا الثناء الرباني يقول:

أيروم مخلوق ثناءك بعدما ... أثنى عليك الواحد الخلاق

إن الرأفة هذه التي يحدثنا عنها القرآن هنا واضحة في تصرفاته ﷺ أتم الوضوح، وهي مشمولة بالخلق العظيم الذي تقرره الآية الثانية.

لقد كان ﷺ رحيماً لطيفاً، حنوناً رؤوفاً، لا تعرف الشدة سبيلاً إلى أخلاقه، ولا يستطيع واصف أن يلحق به صفة العنف أبداً، وهذا قول ربنا يؤكد هذا في رسوله يقول تعالى: ﴿**ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) انظر «فتح الباري» ٣/٣٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولو نظرنا في كتاب الله نظرة تأمل وتبصّر لوجدنا أنَّ في هذا الكتاب العظيم جوانب متعددة من سيرة رسول الله ﷺ النبي الكريم.

هناك حديث عن عدد من غزواته، وعن جوانب من حياته الداخلية، وعن وقائع من علاقاته بالمناوئين المعارضين من مشركين ومنافقين، وعن طرف من أخلاقه السمحة الكريمة.

إن في اهتمام كتاب الله بالسيرة لدرساً لنا نحن المأمورين بالتأسي به ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

إن عرض سيرة هذا النبي الكريم بالشكل المشوّق المحبب يغري باتباعه والاقتداء به، فما أكثر ما يقلد المعجبون بالأبطال أولئك الأبطال، هذا ولقد بقيت هذه السيرة المطهرة طوال القرون الماضية حية في أذهان الناس وضمائرهم، يقصّها الوعاظ والمدرسون للناس في المساجد والمجتمعات، ويحكيها الآباء والأمهات لأولادهم من بنين وبنات، ويرددها الخاصة والعامة، ولا يكاد إنسان من هذا المجتمع يجهل المعالم الكبرى في حياة هذا الرسول.

وحرصاً من العلماء على أن يتناقل الناس أخبار السيرة النبوية، ليكون أثرها جلياً في حياتهم تساهلوا في أخبار المغازي، فلم يتشددوا فيها تشددهم بأحاديث الأحكام، ومن هنا كانت هناك أخبار فيها لا تصح في ميدان النقد الحديثي البحت.

وبقيت ملاحظة نقف عليها من حديث أبي هريرة الذي أوردناه آنفاً وهو في صحيح البخاري، والذي يذكر فيه أنّ أبا هريرة استشهد في وعظه بشعر عبدالله بن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أنّ ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

هذه الملاحظة استخدام الشعر الرصين في الدعوة.. إنَّ لذلك أثراً في الناس الذين يهزهم الشعر.

في سيرة نبينا العظيم دروسٌ كبيرة، وعظاتٌ بالغة. ولكنَّ كثيراً من الناس محجوبون عنها، جاهلون لها... ونمرُّ عليها - إن مررنا - مرور الكرام، لا نتأمل ولا نتدبر، ولا نفكر ولا نتبصّر.

ورسول الله ﷺ هو الأسوة الحسنة، والقدوة لنا. أوجب الله علينا اتباعه واقتفاء أثره، وجعل سبحانه طاعة الرسول طاعة له ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ [النساء: ٨٠] وجعل تبارك وتعالى محبته إيانا، ومغفرته ذنوبنا، متوقفة على اتباعنا لهذا الرسول ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فإن تَوَلَّوا فإنّ الله لا يحبّ الكافرين**﴾ [آل عمران: ٣١ - ٣٢].

تتعاظم حاجة الأمة إلى استنطاق تاريخها لتستلهم من أحداثه العبرة والحافز... أما العبر فما أكثرها، ويمكن للمرء أن يقف عليها إذا وازن بين ماض له مشرق متألق وحاضر مؤلم متخلّف، أو إذا تأمل عثراته وعثرات أسلافه التي جرّت عليهم وبالاً وضعفاً وهزيمة.

وأما الحوافز فهي كثيرة في تاريخ الأمم العظيمة، التي حملت في يوم رسالة إلى الإنسانية، وكانت فعالة في تاريخ هذه الإنسانية كلها. وأمة الإسلام أوضح مثال على ذلك.

والعبر والحوافز في تاريخ أمتنا كثيرة وفيرة. وهذه وتلك ضرورية للأمة التي تريد أن تستيقظ من سباتها، وتستأنف سيرها في طريق المجد والرفعة، وترسخ نهضتها على أسس متينة.

من هنا كانت عناية الأمم الناهضة - في إبان نهضتها - بتمجيد ذكرياتها كبيرةً جداً، وكانت في هذه المرحلة تسلط الأضواء على أبطالها العظماء في كل مجال وعلى كل صعيد. ذلك لأن تلك الصفحات المشرقة والأمجاد الضخمة تنهض في أوان اليقظة، وفي عهد الانتقال وسيلة من أهم وسائل دفع مسيرة الأمة إلى الأمام، وتقدمها في مجال النهضة، وبعثها من جديد لتنفض عن

نفسها غبار الكسل والتأخر والنوم، وتعمل على استعادة أمجادها وتأدية رسالتها.

وليست هناك أمة في الأرض ـ شرقيةٌ أو غربية ـ تملك من كبير الأمجاد، وخالد البطولات، ولا من رائع الفضائل وملهم الذكريات، مثل ما تملك أمتنا الإسلامية العظيمة. وإن تعجب فعجبٌ موقفنا العاق من هذه الصفحات الغرّاء المشرقة التي تتيه على بطولات الدنيا عندما تجاهلناها وأهملناها... ونزعم بعد ذلك أننا نبغي التقدم والاصلاح!!

والأمر المذهل أننا في معظم الأحيان لم نقتصر على ذاك التجاهل والاهمال فحسب، بل جاوزناه الى موقف غريب مريب.. إنّ عدداً من الأقلام المأجورة، والأدمغة المستعبدة، لتسخر من هذه الأمجاد والبطولات، والفضائل والمكرمات، وتهوّن من شأنها وتدّعي زوراً أنها حطامٌ من ركام الماضي لا يغنينا شيئاً، وأنّ استلهامها يضعنا في أقفاص من الرجعية المقيتة. وقد يتطاولون فيفترون قائلين: إنّ الخيال والمبالغة عملا في صياغتها... إلى آخر هذه الأكاذيب والأباطيل... كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً!!

يا سبحان الله!! ألم يأتهم نبأ أمم تطلعت إلى بناء أنفسها، والنهوض بأبنائها لتسلك بهم سبيل المجد، فلم تجد لها في سجل الشرف والمجد شيئاً مما تملكه أمم أخرى، فراحت تصطنع لأسلافها أمجاداً مزورة، ترددها بنشوة وافتخار، حتى استطاعت أن تسير بهم إلى ارتقاء العلياء.

نعم إنها أرادت أن تبث فيهم الاعتزاز بالذات، والمضيَّ في طريق البناء... إنني لا أشك في أنّ الذي يهوّن من شأن بطولاتنا، ويهجم على أمجادنا، لا أشك في أنه عميل لأعدائنا مأجور، أو أنه إنسان غسل دماغه حتى أضحى يردد ما يقوله أعداؤه، وإنه ليشبه من يمسك بيده سلاحاً ليقتل به نفسه. والمسلمون اليوم بحاجة إلى من يحررهم من المظالم والمآسي، وإلى من يضع عنهم الأغلال والقيود التي يرسفون بها. إنهم إذا تحرروا من ذلك

كله وتضامنوا وتعاونوا استطاعوا أن يتقدموا للدنيا المعذبة اليوم بالحل لمشكلاتها والدواء الشافي لأمراضها.

إنَّ السيرة النبوة بالنسبة لنا ليست أمجاداً نتغنى بروائعها فحسب.. ولكنّها قصة حياة الإنسان النبيّ الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور.. فدخلنا بسبب اتباعنا دينه، وتبنّينا كتابه، التاريخ من أوسع أبوابه، وكانت لنا قيادة الدنيا والسيادة على العالم المعمور.

إنها قصة حياة خاتم الرسل، وسيد الأنبياء، الذي أنقذنا الله به من ظلمات الشرك والعدوان، فأنقذنا الإنسانية من المهانة، ورددنا عليها كرامتها، وحررناها من قيود الهوى والإثم، والأثرة والطغيان. إنها قصة حياة سيدنا وحبيب قلوبنا، وقرة عيوننا، وقائدنا وزعيمنا وأسوتنا وقدوتنا.

من أجل ذلك فإنّ سيرة هذا الرسول الكريم ﷺ يجب أن تعمر أفئدتنا وقلوبنا، وأن تحيا في أذهاننا وعقولنا، وأن تكون حوادثها ديدننا وعلى ألسنتنا، لا نَمَلُّ من ذكرها وسماعها مهما تلاها التالون.

ويجب أن تصطبغ حياتنا بمُثُلها ومبادئها..

إن سيرة محمد ﷺ يجب أن نعلمها أولادنا ونساءنا ليحفظوها... وأن نقصها عليهم دائماً لترتفع نفوسهم إلى أفقها الأعلى، وليتأثروا بها في حياتهم وسلوكهم، ليكونوا قادرين على قيادة ركب أمتهم إلى المقدمة، لتمارس مهمتها العظمى في التوجيه والقيادة... تلك المهمة جعلها ربنا لأمة الإسلام.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إنّ من مهمات الدعاة إلى الله توضيح سيرة هذا الرسول الكريم ﷺ وربطها بالدروس والعبر؛ ذلك لأنه عندما تكون أحداث السيرة المطهرة واضحة في أذهاننا وأذهان ناشئتنا، مرتبطة بالدروس والعبر التي تنطوي عليها لا يستطيع محرّف محرّف أو دجال أفاك أو مجرم مغرض أن يلبس على أبنائنا وبناتنا الحق، ولا أن يشوّه جمال الصورة المشرقة لهذا الدين وتعاليمه السمحة، بالكذب والدرس، والمغالطة والافتراء.

ومن المفيد أيضاً أن تدرس أحداث السيرة متكاملة متناسقة، فيوضع كل حدث في موضعه مرتبطاً بما قبله وبما بعده؛ لأنَّ ذكر المناسبة بوضوح يعين على الفهم السليم للخبر. أما قطع الحادثة عن مناسبتها وعرضها مبتورة عن أسبابها ودوافعها وظروفها فهذا من المغالطة التي ينتهجها قوم في قلوبهم مرض.

قد تمر بالقارئ حادثة يراها بادئ الأمر حادثة غريبة لأنه لا يراها تتكرر في حياة النبي ﷺ. فلا يجوز أن يتسرّع المرء بالحكم بل عليه أن يتبيّن ويدرس... وإنه ـ عندئذٍ ـ سيجدها مرتبطة بظروف معينة اقتضت أن تكون على هذا الوجه.

ومن ذلك ما رُوي من تسابق الصحابة إلى بصاق النبيّ ﷺ ونخامته ووضوئه يمسحون بذلك وجوههم ورؤوسهم[1].

إنّ هذه الحادثة وردت في خبر صلح الحديبية، ولكنني لا أذكر روايات أخرى في أوقات أخرى قد وردت تدل على أن ذلك ديدنهم. إذن هي حادثة لم تتكرر. ولعلّ هذا السلوك كان مقصوداً.. كان رسول الله ﷺ يريد أن يري هؤلاء المفاوضون من الكفار أتباعه وكيف يعاملونه.. إنهم أتباع لم يعرف العرب نظيراً لهم، ولهذا أثره ودوره في إيقاع الفزع في قلوبهم، وهذا الذي وقع والله أعلم.

---

(١) صحيح البخاري ٣/١٧٠.

إنَّ علينا أن نشتقّ من سيرة رسول الله العطرة دروساً تضع لنا معالم الطريق في الحياة.. الطريق السويّ.. طريق الإسلام.

إنه سيكون الصراط المستقيم.. الحيّ.. الواقعي.. المتحرك. وكيف لا يكون كذلك وحياة رسول الله ﷺ مصدره؟

إننا إن اشتققنا هذا الطريق وسرنا فيه كنّا مؤمنين حقاً وكنّا على سبيل لا يضل سالكها **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾** [النساء: ٦٥].

إنّ دراسة السيرة النبوية ضرورة لا بدَّ منها للمسلم؛ لأنّ الرسول الكريم ﷺ أسوة وقدوة، أوجب الله على المسلم التأسي به ومحبته.

ولا يتم الاقتداء ما لم تتضح سيرة المقتدى به الوضوح التام، ولا يتحقق الحبّ إلا بمعرفة المحبوب. وإنَّه لشرف عظيم لهذه الأمة أن يكون سيد الخلق وأكمل البشر قدوتها. وإنها لسبيل ممهدة تنتهي بسالكها إلى السعادة في الدنيا، والنجاة والجنة يوم القيامة. ولا يستطيع أحد مهما بحث ونقّب، وقلّب في تراجم الرجال العظماء أن يجد مثل رسول الله ﷺ. ومن أين له أن يجد عظيماً ينأى بنفسه عن الإسفاف والزلل مهما كان يسيراً، ويتحدّى كل أسباب الفتنة ووسائل الإغراء، ويترفع عن الخضوع لضغط الضرورات والحاجات؟ ولله در القائل:

وأجمل منك لم ترقط عين ... وأكمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءاً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء

والقائل:

من ذا الذي ما ساء قط ... ومن له الحسنى فقط
محمد الهادي الذي ... عليه جبريل هبط

إننا نستطيع أن نحقق أمنية يعز وجودها، وهي أن نتيح لأنفسنا أن ترى الاستقامة والسمو، والارتفاع والإباء، والحق والقوة، والورع والعدالة،

والعقل والحكمة والخلق الحسن والزهد والعبادة، والايثار والشجاعة والبلاغة والبيان، والصبر والإحسان. . . أن ترى ذلك كله حياً متحركاً يتمثل في قصة حياة إنسان عظيم. . . وإن ذلك كله ليتحقق في سيرة هذا الرسول العظيم ومعاشرتها وترديدها.

ومن فضل الله علينا وعلى الناس أن هيّأ رواة نقلوا كل صغير وكبير في جوانب حياته كلها. . نقلوا ذلك بدقة وتفصيل.

وليس هناك إنسان على الإطلاق حظي بمثل هذا اللون من الاهتمام. . ولن يكون.

والأمر الرائع في السيرة النبوية أنها تمثل التطبيق العملي لمبادئ الإسلام على يد نبيّ الإسلام. إننا نجد مبادئ الإسلام حية متحركة في أحداثها المشرقة الكريمة.

إن الكلام النظريّ المجرّد قد يقنع الفكر عندما يكون حقاً، وعندما يكون عرضه موفقاً، ولكنّه لا يولد الحماسة، ولا يحدث التعاطف والاندفاع لمضمون هذا الكلام ولتحقيقه.

أما عندما يدعم هذا الكلام النظريّ واقعٌ حيّ تجسّدت فيه مبادئ هذا الكلام، وبرزت المثل بين ظهراني الناس يبصرونها ويعاشرونها فإنَّ ذلك يفعل في النفس فعل السحر، ويدفعها إلى تحقيق الخير وتنحية الشر وإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

نعم إن السيرة ربما سدّت في هذا المجال ثغرة لا يسدّها غيرها. إنَّ عرض مبادئ الإسلام العامة والاطلاع على النظرات الإسلامية في شتى جوانب الحياة بعيداً عن عالم الواقع يفوّت على الناس أن يدركوا سراً من أسرار هذه الشريعة وخاصة من خصائصها وهي أنها النظام الوحيد الذي جمع بين الواقعية والمثالية وأنها الحلّ الوحيد لعلاج مشكلات الإنسان المادية والمعنوية إن إدراك هذا السر ينتهي بالإنسان إلى الاعتقاد الجازم أن هذه

الشريعة من عند الله دون شك ويجعله يتذوق ذاك الإبداع السامي في مجال الفكر والخلق والاقتصاد والسياسة والتشريع والعبادة.

إن دراسة السيرة وتمثلها واستيعابها يكفل إيضاح الوسط الروحي الذي قامت فيه المبادئ الإسلامية حية متحركة، ونهضت اعتماداً عليها حضارة دولة وفي ذلك تقويم وتربية، وعون على التأسي والاقتداء.

ومما يدل على عظيم شأن السيرة وأهميتها أنَّ كتاب الله جلَّ جلاله تحدّث في مواضع عدّة منه عن سيرة هذا النبيّ الكريم حديثاً يتعرّض إلى جوانب متعدّدة من سيرته ﷺ.

فلقد قصّت آيات القرآن هجرته. قال تعالى:

﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثانيَ اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزنْ إنَّ الله معنا، فأنزل الله سكينتَه عليه وأيَّده بجنودٍ لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا. والله عزيز حكيم﴾ [التوبة: ٤٠].

وتحدثت آيات القرآن عن زوجاته. قال تعالى:

﴿فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقال تعالى:

﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينُك مما أفاء الله عليك، وبنات عمك وبناتِ عمّاتك، وبناتِ خالِك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك، وامرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصةً لك من دون المؤمنين، قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت إيمانهم لكيلا يكون عليك حرجٌ وكان الله غفوراً رحيماً، تُرجي من تشاء منهن وتُؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيتَ ممن عزلت فلا جناح عليك. ذلك أدنى أن تقرَّ أعينُهن ولا يحزنَّ ويرضَيْن بما آتيتهن

كُلِّهنَّ والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينُك وكان الله على كل شيء رقيباً﴾ [الأحزاب ٥٠ ـ ٥١].

وقال تعالى:

﴿يا أيها النبي لم تحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾ [التحريم: ١]. وقال: ﴿وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض. فلما نبّأها به قالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأني العليمُ الخبير إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير عسى ربه إن طلقكنَّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾ [التحريم ٣ ـ ٥].

وتحدثت آيات القرآن عن الرسول الداعية، فوصفت حرصه على أن يستجيب الناس له، وألمه من إعراضهم، ونحن نورد هنا نماذج من الآيات الكثيرة التي تدل على ذلك قال تعالى: ﴿فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ [الكهف: ٦] وقال: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ [الشعراء: ٣] وقال: ﴿فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ [يس: ٧٦] وقال ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون، فإنهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. ولقد كُذِّبت رسل من قبلك، فصبروا على ما كُذِّبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله. ولقد جاءك من نبأ المرسلين. وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية. ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين. إنما يستجيب الذين يسمعون. والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ [الأنعام: ٣٣ ـ ٣٦]. وقال: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ [فاطر: ٨] وقال: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال: ﴿وما أكثر الناس

ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: ١٠٣] ويعاتبه إذا أخطأ طريق الدعوة كما في حادثته مع الأعمى: **﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكّر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى كلا﴾** [عيسى: ١ - ١١].

ويتحدث القرآن عن جانب الجهاد في حياة الرسول ﷺ، وعن عدد من غزواته حديثاً فيه عظات بليغات، وإرشادات قيمة. لا يمكن للمجتمع الإسلامي الحيّ أن يتناساها بحال من الأحوال. فيقول في غزوة بدر:

﴿وإذ يَعِدُكُمُ الله إحدى الطائفتين أنَّها لكم. وتـودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم. ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾ [الأنفال: ٧ - ٨]. وكثير من آيات سورة الأنفال تتحدث عن هذه الغزوة الحاسمة. ويقول تعالى: **﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾** [آل عمران: ١٢٣]

ويقول عز من قائل في غزوة أحد:

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله. وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١].

ويقول في غزوة الأحزاب:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ [الأحزاب: ٩ - ١١].

ويقول في غزوة حنين:

﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم

تُغْنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦].

ونكاد نجد ذكراً في كتاب الله لأكثر الغزوات التي خاضها الرسول معروضة بالأسلوب القرآني المعجز.

ونحن هنا الآن في عرض خطرات عن أهمية السيرة وقيمتها ولعلنا نلم ببعض هذه الموضوعات في مقبل الأيام إن شاء الله.

نزلت هذه الآيات وغيرها في سيرة النبي قرآناً يتلى ويردده المسلمون آناء الليل وأطراف النهار، ليستنبطوا منها الحكم والعبر، وليشتقوا من دروسها أسلوباً في الحياة يربيهم وفق منهج الإسلام. أفليس هذا دليلاً ناطقاً على أهمية السيرة.

ليس هناك شك في أن واقع المسلمين بحاجة إلى إصلاح.. إصلاح مؤثر يتغلغل في أعماق نفوسهم ويتفاعل معها... فهم على ما نرى ونلمس من الجهل والتأخر، والضعف والتخلف... وقد قامت حركات إصلاحية عدة، ولكنَّها لم تتخذ من السيرة وسيلة لتحريك المشاعر وتبديل النفوس فكان ذلك سبباً ـ ولو بسيطاً ـ من أسباب عدم نجاحها. ونستطيع أن نقرر بكل تأكيد وجزم أنه ليس هناك دافع يدفع المسلمين إلى الامام، مثل الدين ومثل شخصية هذا النبي الكريم، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ألا وهو الدين، وليست هناك صفحة مشرقة تلامس قلوبهم، وتحفزهم إلى المثل العليا مثل صفحات سيرة الرسول الأعظم ﷺ.

لذا كان من الواجب على الدعاة إلى الله أن ينتبهوا إلى هذا الأمر أتم الانتباه وأن يولوه ما يستحق من الرعاية والاهتمام... إنَّ عليهم أن يلحوا على السيرة ويحيوها بين الناس بالخطب والمحاضرات، والدروس والمقالات، ووسائل النشر والإعلام المختلفة.

ولقد أتيح لنا في هذا الزمان من أدوات التوجيه ما لم يتح للمتقدمين،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فمن الواجب المحتم علينا الاستفادة من هذه الأدوات ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

إن تأثير الشخصية الفذّة، والزعامة الناجحة، تأثير كبير في انتشار الدعوات وسيطرتها على جوانب المجتمع المختلفة، وهذا أمر لا يماري فيه أحدٌ ذو بصر ومعرفة، ولا نستطيع أن نفصل بين عناصر القوة في الفكرة وبين حاجتها إلى الزعيم الكبير الذي يجمع القلوب عليها... إن الربط بين الأمرين هو الخطوة الأولى في نجاح الفكرة، بل إنّ الدعوات التي تقوم على إنكار خصائص الفرد، وتذيب كيانه في بوتقة المجتمع، لم يكن لها بدٌّ من اتخاذ شخصيات وزعماء، حتى تشق طريقها إلى النجاح. فلقد سلطت الأضواء على ناس بأعيانهم ومجدتهم تمجيداً يجاوز الحدّ المعقول.

بل لقد بلغ من عظم تأثير الشخصية الضخمة أنها ربما جمعت الجمَّ الغفير من الناس على فكرة مغلوطة، تجندهم لها وتضع طاقاتهم العقلية والمادية في تأييدها والدفاع عنها كما يحدثنا التاريخ عن الحركات الهدامة والفتن المخرّبة[1].

فما القول إذا اجتمعت لفكرة صواب النظرة، وصلاحيتها للحياة، وقدرتُها على معالجة مشكلات الإنسان المستعصية، وشخصية فذة تحتل من نفوس المؤمنين بها محل الزعامة.

إنها لا شك ستلقى التأييد والاستجابة، وسيمكن لها أعظم التمكين. ومن هنا كان لشخصية سيدنا رسول الله ﷺ الأثر الأكبر في الصحابة، وبقي أثره على مرّ الأجيال والعصور.

إنّ علينا أن نتخذ من هذا الرسول العظيم قائداً لنا وقدوة وأسوة، وسنته حية تنادي عقولنا، وتناجي أرواحنا، وترشدنا مع الكتاب الكريم إلى أن نؤدي الدور الذي تتطلع إليه الإنسانية.

(١) وذلك في القديم والحديث ومن أشهر الأمثلة الأخيرة النازية تلك الفكرة التي لا تصلح للحياة ولكن شخصية زعيمها استطاعت أن تجمع حولها إمكانات ألمانيا وأن تكتسح الدنيا، وكادت تنتصر على القوى المعادية لها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ليس هناك في دنيا البشر بطل يوازي رسول الله أو يقرب من الذروة السامقة التي تبوأها ﷺ وليس ذلك غريباً ولا عجيباً ما دام مؤيداً بقوة الله ورسالته... إنها النبوة والرسالة التقت بالصفات المثلى التي كانت في رسول الله من السمو والنبل، والرحمة والرأفة، وحسن الخلق والكمال والبيان، فكانت العظمة.

لقد علقت بعض الشوائب بالسيرة المطهّرة، بسبب الأحاديث الموضوعة التي افتراها الكذابون، فأضحت في أذهان بعض الجهلة قاصرة على خوارق العادات... لا تتصل بحياة الناس العادية بسبب... يؤمنون بها إيماناً أقرب إلى الإيمان بالغيب.

إن هذا يفقد السيرة القوة الفاعلة في تغيير أحوال الناس اليوم وإصلاحهم... فخوارق العادات تجري على أيدي الأنبياء، ولا نبيَّ بعد محمد ﷺ. بل حتى في حياة رسول الله محمد أراد الله لدعوة الإسلام أن تسير في طريق بشري، يكون الحرب سجالاً بينهم وبين أعدائهم، يوم لهم ويوم عليهم..

وما أحسن ما قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله:

(هناك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين، وطريقة عمله في حياة البشر... حقيقة أولية بسيطة... ولكنّها مع بساطتها كثيراً ما تنسى أو لا تدرك ابتداءً. فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين: حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي وحاضره ومستقبله كذلك.

إن البعض ينتظر من هذا الدين ـ ما دام منزلاً من عند الله ـ أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر ولطاقاتهم الفطرية ولواقعهم الماديّ في أية مرحلة من مراحل نموّهم وفي أية بيئة من بيئاتهم....)[1] إلى أن قال:

(إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر

(١) هذا الدين ص ٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية في كل بيئة، ويبدأ العمل من النقطة التي يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم ويسير بهم إلى نهاية الطريق، في حدود طاقتهم البشرية وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة..)[1] وقال:

(هذا المنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام في صورته النهائية كما جاء بها محمد ﷺ لا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس بمجرد تنزله من عند الله. لا يتحقق بكلمة (كن) الإلهية، مباشرة لحظة تنزله، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس وبيانه، ولا يتحقق بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب، إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر، تؤمن به إيماناً كاملاً، وتستقيم عليه - بقدر طاقتها - وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك)[2] وقال:

(ولقد تعلمت الجماعة المسلمة هذه الحقيقة في هذه الغزوة - يريد غزوة أحد - لا بالكلام ولا بالعتاب، ولكن تعلمتها مع هذا بالدماء والآلام. ودفعت ثمنها غالياً: هزيمة بعد نصر، وخسارة بعد غنم، وجراحاً لم تكد تدع أحداً معافى، وشهداء كراماً، منهم سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، وأغلى من ذلك كله وأشد وقعاً على الجماعة المسلمة كلها: جَرْحُ رسول الله ﷺ وشجُّ وجهه الكريم، وكسر رباعيته[3]...)[4].

وعلقت بالسيرة المطهرة أيضاً شوائب بسبب افتراء المفترين، فأضحت في أذهان ناس آخرين أساطير مخترعة لا يقبلها العقل، ولا يسيغها المنطق، تشبه ما عند الأمم الأخرى من أساطير، وهذا يفقد السيرة قيمتها، ويعرض كثيراً من معانيها الصحيحة إلى الاهتزاز، لأن الدسّ المركز قد يزين للعقل أن يعمم الحكم على السيرة كلها من النظر في أقاصيص باطلة اخترعها الوضاعون.

---

(١) هذا الدين ص ٤.
(٢) هذا الدين ص ٧.
(٣) الرباعية: بوزن الثمانية سنٌّ من الأسنان الأمامية.
(٤) هذا الدين ص ٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن السيرة عندما تدرس في إطارها الحقيقي تغدو ذات أثر فعال في إصلاح الفاسد، وتقويم المعوّج، واستئناف الحياة الفاضلة، واستعادة أمة الإسلام لمرتبة القيادة والتوجيه. وفي ذلك سعادة لأبناء الدنيا كلها في الحياة العاجلة وسعادتهم في الآخرة.

إنّ من تتمة حديثي عن السيرة النبوية أن أعرّف القراء الكرام بأهمّ ما كتب فيها، وأن أوصيهم بقراءة أحسن ما وقفت عليه من كتبها.

ويحسن بي أن أذكر في مطلع هذه الكلمة فكرتين هامتين:

أولاهما: أن لا يظنّ ظانٌّ أن الكتب المعروفة بـ(كتب السيرة) هي وحدها التي نقلت أخبار رسول الله ﷺ. فهذا ظن خاطئ... إن كتب الحديث والتفسير نقلت لنا الكثير مما يتصل بسيرته الشريفة.

وثانيتهما: أن أدعو أصحاب الطاقات من طلبة العلم والعلماء إلى تخريج أخبار السيرة على الطريقة التي انتهجها علماء الحديث. ذلك أن العلماء ـ سامحهم الله ورحمهم ـ تساهلوا في قبول أخبار السيرة [قال الإمام أحمد: ثلاثة كتب لا أصل لها، المغازي والملاحم والتفسير. قال المحققون: مراده أنّ الغالب ليس لها أسانيد صحاح متصلة. قال السيوطي: الذي صحّ من ذلك قليل جداً][1].

[قال الخطيب في «الجامع»: وهذا محمول على كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير معتمد عليها، لعدم عدالة ناقليها، وزيادة القصاص فيها][2].

وقد سرّني عزم عالم كبير من أكبر علماء السنة في عصرنا على تخريج أحاديث السيرة وإخراج كتاب في صحيح السيرة، ولكني أسفتُ عندما علمتُ أنه قد صَرَفت الشيخ صوارفُ علميةٌ أخرى عن هذا العمل الجليل، لا أراها أهمّ منه أبداً. ولكن الأمور مرهونة بمقاديرها.

(١) الفوائد الموضوعة للكرمي ص ٥٠.
(٢) الدرر المنتثرة ص ٢٢٥ رقم ٥٠٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إن أشهر كتاب من كتب السيرة المتداولة بين الناس سيرة ابن هشام، وتنسب هذه السيرة إلى ابن هشام ولم يكتبها هو، ولكنه هذبها واختصرها، وعلق عليها تعليقات موجزة نافعة.

وقيمة هذه السيرة كونُها من أقدم الكتب المدونة، إذ يذكر العلماء أنَّ أوّل من صنّف كتاباً في غزوات الرسول ﷺ هو إمام المغازي (موسى بن عقبة ابن أبي العباس الأسدي)[1] مولى بني الزبير بن العوّام بالمدينة، قضى معظم حياته زمن خلافة بني أمية وتوفي سنة ١٤١ هـ. وسلك طريقته محمد بن إسحاق المولود سنة ٨٥ هـ والمتوفى سنة ١٥٠ هـ، وهو من كبار المحدثين حتى دعوه أمير المؤمنين في الحديث. وقد ألف كتاب سيرة النبي في المدينة بعد أن أصبح فحلاً من فحول علم الحديث وروايته. وقد هاجر من بلدته (المدينة) إلى العراق سنة ١٣٢ هـ وقدَّم نسخة من كتابه إلى الخليفة المنصور في مدينة الهاشمية... ثم زار وليَّ عهده المهدي بالريّ، وأخيراً نزل في بغداد إلى أن توفي بها سنة ١٥٠ هـ.

وقد وثقه العلماء في روايته التي يصرّح فيها بالتحديث، أما إذا عَنْعَنَ فإنهم يضعفونه، ولم يعتدوا بكلام من وقع فيه من المعاصرين له.

أما سيرة ابن اسحاق فقد ذكر العلماء أنّ عليها انتقادات لأنه كان يروي عن أهل الكتاب[2]، ولم يصل إلينا كتاب ابن إسحاق كاملاً، وإن كان قد وصل منه قطع ما تزال مخطوطة في القرويين بفاس، وفي الرباط، وفي الظاهرية بدمشق، وفي فينا[3]، ومهما يكن من أمر فإن سيرة ابن هشام تهذيب لسيرة ابن إسحاق، وقد اقتصر على القسمين الأخيرين من كتاب ابن إسحاق وهما: كتاب سيرة رسول الله، وكتاب المغازي.

أما القسم الأول وهو كتاب المبتدأ وقصص الأنبياء فقد تركه ابن هشام

---

(١) انظر ترجمته في الجرح والتعديل ٤/٢/١٥٥ و«تذكرة الحفاظ» ١/١٤٨.
(٢) الأسرار المرفوعة ٤٠٠.
(٣) انظر تاريخ التراث العربي لزكي ط جامعة الامام ٢/٨٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وابتدأ من نسب النبي ﷺ وارتفع بهذا النسب إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وابن هشام هذا قريب العهد من ابن إسحاق، إذ المعروف أنه توفي سنة ٢١٨ هـ وهو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري، ولد بالبصرة وعاشر في ربوع العراق ثم رحل إلى مصر، ومات في الفسطاط. وقد كان مؤرخاً وعالماً بالأنساب ونحوياً، وحسّه النقدي مستيقظ واعٍ، فلقد ردّ كثيراً من الشعر المنحول الذي أورده ابن إسحاق، وحذف كثيراً منه.

وقد عني الناس بهذه السيرة عناية كبيرة، فشرحها قوم، واختصرها آخرون، ونظمها فريق ثالث، وما زالت هذه السيرة موضع اهتمام العلماء حتى عصرنا الحاضر.

فلقد شرحها عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي الأندلسي الشاعر النحوي المتوفى سنة ٥٨١ هـ. وسمّى شرحه: «الروض الأنف الباسم» ثم اختصر السهيليّ نفسه كتاب «الروض الأنف» بكتاب سمّاه «الإشارة إلى سيرة المصطفى، وآثار من بعده من الخلفا».

ونظمها كثيرون، من أشهرهم الفتح بن موسى المغربي المتوفى سنة ٦٦٣ هـ والحافظ العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ، واسم كتابه «الدرر السنية في نظم السيرة النبوية» أو «نظم الدرر السنية في السيرة الزكية» وشرح هذا النظم المناويّ في كتاب سمّاه «العجالة السنية على ألفية العراقي للسيرة النبوية»[١].

واختصرها كثيرون، من أشهرهم عماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسطي المتوفى سنة ٧١١ هـ. والشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ. والشيخ عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٤٢ هـ. ومن المعاصرين عبد السلام هارون المتوفى سنة ١٤٠٨ هـ ومحمد بن عبد العزيز الشبراوي[٢].

(١) انظر ص ١٠٣ من الباعث على الخلاص. هذا وقد حقق كتاب المناوي صديقنا العلامة الشيخ إسماعيل الأنصاري وطبعته رئاسة البحوث العلمية والدعوة والافتاء.

(٢) كتاب هارون اسمه: تهذيب سيرة ابن هشام. واسم كتاب الشبراوي «تقريب السيرة».

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقد ترجمت هذه السيرة إلى عدد من اللغات الأجنبية كالفارسية والانكليزية والفرنسية وغيرها.

إنّ هذا كله يدلّ على مدى اهتمام العلماء بهذه السيرة، ولكنها ليست الكتاب المفضل الذي ننصح به لأنه يورد أخباراً في صحتها نظر، وربما كان كتاب «نور اليقين» للشيخ محمد الخضري أفضل منه.

ومن أقدم كتب السيرة «مغازي عروة بن الزبير» المتوفى سنة ٩٣ أو ٩٤هـ ولم يصل إلينا هذا الكتاب، وان كان العلماء المؤلفون في التاريخ والسيرة يذكرونه كثيراً وينقلون عنه، وقد جمع الدكتور محمد مصطفى الأعظمي ما وقف عليه من النقول عنه في كتاب سمّاه «مغازي رسول الله» لعروة بن الزبير، وقد طبعه مكتب التربية العربي لدول الخليج في الرياض سنة ١٤٠١هـ.

ومن كتب السيرة المتقدمة كتاب «طبقات ابن سعد» المتوفى سنة ٢٣٠ هـ واسمه محمد بن سعد بن منيع الزهري أو الهاشمي بالولاء. أبو عبدالله البصري المعروف بكاتب الواقدي لأنه لازم شيخه الواقدي وكتب له، وقد وثقه غالبُ الحفّاظ. طبع كتابه «الطبقات الكبرى» في ليدن والقاهرة وبيروت وقد حقق زياد محمد منصور جزءاً لم يسبق أن طبع من هذا الكتاب ونال به شهادة الماجستر وطبعته الجامعة الإسلامية في المدينة.

ويحتوي هذا الكتاب على سيرة مطولة للرسول ﷺ وعلى تراجم مقسمة إلى طبقات مختلفة للصحابة والتابعين وتابعي التابعين حسب البلدان.

إن هذا الجهد غيض من فيض مما حظيت به السيرة من جهود علمائنا.

وسأذكر لك بعض الكتب التي عينت بالسيرة:

-من أهم هذه الكتب كتاب «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» للحافظ محمد بن اليعمري الشهير بابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤.

وقد نشره في القاهرة حسام الدين القدسي سنة ١٣٥٦هـ. قال ابن

كثير: [اشتغل بالعلم فبرع وساد أقرانه في علوم شتى من الحديث والفقه والنحو وعلم السير والتاريخ وغير ذلك، وقد جمع سيرة حسنة في مجلدين، وقد حرر وحبر، وأجاد وأفاد، ولم يسلم من بعض الانتقاد].

-ومن أهم هذه الكتب كتاب «إمتاع الأسماع للمقريزي».

وقد حقق الجزء الأول منه الأستاذ محمود محمد شاكر وصدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر.

-ومن هذه الكتب كتاب «الخصائص الكبرى» للسيوطي المتوفى ٩١١ وقد ذكر فيه الخصائص التي اختصّ بها رسول الله ﷺ ويقع في جزأين.

- ومن أهم هذه الكتب كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، فقد كتب أبواباً واسعة في سيرة النبي ﷺ، وهو كما هو معروف كتاب في التاريخ.

-ومنها السيرة الشامية.

واسمها الأصلي «سبل الهدى والارشاد، في سيرة خير العباد» وهي من الكتب المطوّلة في السيرة، وقد جمعها مؤلفها من أكثر من ٣٠٠ كتاب وهو شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الدمشقي الصالحي، وقد رحل من دمشق إلى مصر وتوفي سنة ٩٤٢ هـ.

وقد جاءت في نحو ٧٠٠ باب، ختم كل باب بإيضاح ما أشكل فيه وبيان غريب الألفاظ، وضبط المشكلات.

- ومنها السيرة الحلبية.

واسمها الأصلي «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» وهي أيضاً من الكتب المطولة، وقد رزقت هذه السيرة شيوعاً وانتشاراً، وفيها تفصيل سيرة الرسول ﷺ، ويتخلل ذلك كثيرٌ من الفوائد التاريخية والاجتماعية. وذكر حاجي خليفة أن هذا الكتاب تلخيص لكتاب ابن سيد الناس عيون الأثر والسيرة الشامية وضم إليهما أشياء وذكر شيئاً من أبيات الهمزية للبوصيري وتائية السبكي. ومؤلفها هو نور الدين علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي القاهري الشافعي المتوفى ١٠٤٤ هـ.

- ومنها الشفا في حقوق المصطفى.

للقاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي المالكي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ وهو صاحبه طريقة مبتكرة في السيرة، وقد رزق هذا الكتاب شهرة واسعة، وشرحه كثيرون، وخرج أحاديثه السيوطي.

- ومنها «زاد المعاد إلى هدي خير العباد» للإمام ابن القيم المتوفى ٧٥١هـ ومن أحسن طبعاته الطبعة التي حققها شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

- ومنها «جوامع السيرة» للإمام ابن حزم المتوفى ٤٥٦هـ

وقد حققها ناصر الدين الأسد وإحسان عباس.

- ومنها «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» لشهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني وقد طبع في جزأين في مصر سنة ١٢٨١ هـ.

وقد شرحه العلامة محمد بن عبد الباقي الزرقاني المتوفى سنة ١١٢٢ شرحاً كاملاً. وقد طبع هذا الشرح أيضاً في مصر في ٨ مجلدات في بولاق سنة ١٢٧٨ - ١٢٩١ وطبع في المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٢٥ - ١٣٢٩.

وقد جمع في هذا الشرح أكثر الأحاديث المروية في شمائل المصطفى وسيرته وصفاته الشريفة وهو من أنفع كتب السيرة.

- ومنها «حدائق الأنوار» لابن الديبع الشيباني الشافعي المتوفى سنة ٩٤٤.

- ومنها كتب الشمائل: فلقد ألف كثير من حفاظ الحديث في موضوع الشمائل كتباً كثيرة، ومن أشهرها كتاب الشمائل للترمذي.

- أما في العصر الحاضر فقد كثرت المؤلفات في السيرة وهي تتفاوت في الإجادة والاتقان وسأورد أسماءها فقط ولا يعني ذكري لها تزكية ولا توصية إلا أن أذكر ذلك صراحة:

١ - نور اليقين في سيرة سيد المرسلين لمحمد الخضري وهذا الكتاب أوصي به.

٢ - محمد بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام وهذا الكتاب لابأس به.

٣ ـ حياة محمد	لهيكل
٤ ـ عبقرية محمد	للعقاد
٥ ـ محمد	لتوفيق الحكيم
٦ ـ محمد المثل الكامل	لجاد المولى
٧ ـ الرسالة المحمدية	لسليمان الندوي وهذا كتاب نوصي به
٨ ـ فقه السيرة	لمحمد الغزالي
٩ ـ على هامش السيرة	لطه حسين
١٠ ـ السيرة النبوية	لأبي الحسن الندوي
١١ ـ سيرة الرسول	لمحمد عزة دروزة
١٢ ـ خاتم النبيين	لمحمد أبو زهرة
١٣ ـ السيرة النبوية	لمصطفى السباعي
١٤ ـ من معين السيرة	لصالح الشامي
١٥ ـ سيد قريش	لمعروف الأرناؤوط
١٦ ـ محمد رسول الله	لمحمد الخضر حسين
١٧ ـ فقه السيرة	لسعيد رمضان البوطي
١٨ ـ الرحيق المختوم	للمباركفوري
١٩ ـ هذا الحبيب	أبو بكر الجزائري
٢٠ ـ قبسات تربوية من السيرة	حسن أبو غدة
٢١ ـ محمد رسول الله	صادق عرجون
٢٢ ـ أشعة الأنوار	لمحمد بن سالم البيحاني
٢٣ ـ السيرة النبوية	عبد الحميد جودة السحار
٢٤ ـ الغزوات	أحمد باشميل
٢٥ ـ دراسة في السيرة	عماد الدين خليل
٢٦ ـ صور من حياة الرسول	أنيس دويدار
٢٧ ـ التاريخ الاسلامي (جزء خاص بالسيرة)	محمود شاكر الحرستاني
٢٨ ـ خيار المقول في سيرة الرسول	مصطفى الغلاييني

٢٩ ـ مع النبي عبد العزيز كامل

٣٠ ـ البحوث والدراسات المقدمة لمؤتمر السيرة والسنة المنعقد في قطر ٧ أجزاء

٣١ ـ السيرة النبوية محمد رسول الله والذين آمنوا معه لعبد الحميد جودة السحار في ٢٠ جزءاً.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التذكير بشيء من أهوال جهنم

يقول تعالى:

﴿**إنّ يوم الفصل كان ميقاتاً. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً. وفتحت السماء فكانت أبواباً وسيّرت الجبال فكانت سراباً. إن جهنم كانت مرصاداً. للطاغين مآباً. لابثين فيها أحقاباً. لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً. إلا حميماً وغساقاً. جزاء وفاقاً. إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً. وكل شيء أحصيناه كتاباً. فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً**﴾ [النبأ: ١٧ - ٣٠].

إنّ المؤمن أبداً بين خوف ورجاء، لا يستسلم لواحد منهما، لأنّ استسلامه لواحدٍ يقضي عليه بالتهاون في أداء الواجبات والامتناع عن المنهيات، أو باليأس من رحمة الله وكلا الأمرين مهلك. ويمثل لنا هذا الموقف أتمّ التمثيل قول الصحابي الجليل: عمر بن الخطاب: والله لو قيل يوم القيامة: يا أهل الموقف كلكم ناجٍ إلا واحداً لخفت أن أكون أنا المقصود، ولو قيل: يا أهل الموقف كلكم هالك إلا واحداً لرجوت أن أكون هو[1].

كما تدل عليه الآية القرآنية: ﴿**أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون. والذين لا يعلمون...**﴾ [الزمر: ٩]. ولكن كثيراً من المؤمنين غلب عليهم الرجاء مع

(١) «الحلية» ١/٥٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

تقصيرهم ومخالفاتهم وعصيانهم وخضوعهم في حياتهم لأنظمة بعيدة عن الإسلام ومُثله. فلا بدَّ للدعاة إلى الله من أن ينبهوا هؤلاء المؤمنين ويذكروهم حتى يكونوا من الذين يخشون ربهم ﴿**إنما تنذر من اتّبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم**﴾ [يس: ١١] ﴿**قل إني أمرت أن أعبد الله مُخْلِصاً له الدين. وأمرت لأن أكون أول المسلمين. قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبدُ مخلصاً له ديني. فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إنّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين. لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوّف الله به عباده يا عباد فاتقون**﴾ [الزمر: ١١ ـ ١٦]. ﴿**فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١] ﴿**ولمن خاف مقام ربه جنتان**﴾ [الرحمن: ٤٦].

إن الرهبة من النار والرغبة في الجنة تطرد الغفلة، وتزيد في الإيمان وتهوّن على المؤمن المصاعب والمصائب، وتحقق الأمور الجليلة.

إنّ الآيات المتقدمة تترك أثراً كبيراً في نفس المؤمن، وليس من شك في أنَّ شدة التأثر بهذا الوصف تتصل بقوة الإيمان، ورهافة الحسّ، وشفافية النفس، ورقة القلب. ولقد وصف ربنا المؤمنين بذلك فقال: ﴿**إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياتهم زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون**﴾ [الأنفال: ٢]. وقال: ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد**﴾ [الزمر: ٢٣].

ولنعش لحظات مع كلام للإمام الغزالي حذّر فيه من الغفلة، وذكّر بما جاء في الكتاب والسنة، ونبه المسلمين وجاء بوصف لما سيتعرض له المرء منذ أن يحشر للحساب إلى أن يقضى عليه بالنجاة أو الهلاك فقال:[1].

(١) الاحياء ٤/٥١٤.

[يا أيها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا، المشرفة على الانقضاء والزوال، دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه، واصرف الفكر إلى موردك، فإنك أخبرت بأنَّ النار مورد للجميع إذ قيل: ﴿**وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا**﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢] فأنت من الورود على يقين، ومن النجاة في شك، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد، فعساك تستعد للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها، وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلّت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان ابن فلان، المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل، المضيّع عمره في سوء العمل؟

فيبادرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم، ويقولون له: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرّهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيّهم فيها الهلاك، وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي، واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصي، يُنادون من أكنافها، ويصيحون في نواحيها وأطرافها، يا مالك قد حقّ علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود.

فتقول الزبانية: هيهات... لات حين أمان، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسؤوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون. فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرّطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف. بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار

من فوقهم، والنار من تحتهم، والنار عن أيمانهم، والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران، وسرابيل القطران، وضرب المقامع، وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها، ويتحطمون في دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صُبّ من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم، فيتفجر الصديد من أفواههم، وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من الوجنات لحومها، ويتمعّط من الأطراف شعورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بُدّلوا جلوداً غيرها... وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون، فكيف بك لو نظرت إليهم سوِّدَتْ وجوههم، وأعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، وكسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومزقت جلودهم، وغلت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم، وهم يمشون على النار بوجوههم، ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب النار سارٍ في بواطن أجزائهم، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم، هذا بعض جملة أحوالهم).

أعاذنا الله وإياكم من عذابها، وأعاذنا الله مما يقربنا إليها من قول أو عمل.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التذكير بطرف من نعيم الجنة

قال تعالى:

﴿**إنّ للمتقين مفازاً. حدائق وأعناباً، وكواعب أتراباً. وكأساً دهاقاً. لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً. جزاءً من ربِّك عطاءً حساباً. رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً**﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٧].

ذكر الله تبارك وتعالى الجنة والنار في كتابه كثيراً، وفصّل القول فيهما تفصيلاً يخوّف من المعاصي، ويُرغّب في الطاعات، على نحو ما رأينا في آيات سورة النبأ التي افتتحنا بها حديثنا. وقد تقدم الكلام عن شيء من أهوال جهنّم، ونودّ الآن أن نعرض طرفاً من نعيم الجنة، وهذا هو الأسلوب القرآني في عرض الجنة والنار، لا يقتصر على عرض واحد منهما، بل يضع وصف هذه إلى جانب وصف هذه. وبضدّها تتميز الأشياء.

والمؤمن - كما ذكرنا - ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء، ولا يجوز له أن يركن إلى واحد منهما، وأخطر الحالين أن يغلب عليه الرجاء، فيتكل وينغمس في المعاصي، وما يزال كذلك حتى يطبع على قلبه، والعياذ بالله تعالى.

والجنة أُمْنِيَّةُ المسلم وطلبته، يعمل لدخولها وسكناها، ويدعو ربه أن يمنَّ عليه بها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولقد كان أثر طلب الجنة في السلف الصالح كبيراً جداً... لقد كانوا يتطلعون إلى الجنة تطلعاً يهوّن عليهم لقاء الموت.

عن أنس بن مالك قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه، حتى سبقوا المشركين إلى بدر. وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحدٌ منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض».

فقال عمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله جنةٌ عرضها السموات والأرض؟

قال: «نعم».

قال: بخٍ بخٍ.

فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟».

قال عمير: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها.

قال ﷺ: «فإنّك من أهلها».

فأخرج عمير تمرات من قرنه فجعل يأكل منهنَّ. ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة. فرمى بما كان معه التمر، ثم قاتلهم حتى قتل. رواه مسلم(١). لقد استطال عمير المدة التي يستغرقها أكل تمرات بيده... لأنه يريد دخول الجنة.

وعن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال:

سمعت أبي يقول قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» فقام رجلٌ رثّ الهيئة فقال: يا أبا موسى آنت سمعتَ رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم. فرجع هذا الرجل إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدوّ فضرب به حتى قتل. رواه مسلم(٢).

---

(١) انظر صحيح مسلم ٦/٤٤.

(٢) انظر صحيح مسلم ٦/٤٥

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هكذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم يسعون إلى الجنة بالعمل الصالح والجهاد، وتطيب نفوسهم بالموت، لينعموا في جنة الخلد نعيماً أبدياً لا نهاية له.

يا أخي المسلم تدبر هذا، واستثر[1] الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم، واستثر الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان.

وسق نفسك بسوط الخوف، وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم، فبذلك تنال الأجر العظيم، وتسلم من العذاب الأليم.

تفكر يا أخي في أهل الجنة، وفي وجوههم نضرة النعيم، يُسْقَون من رحيق مختوم، جالسين على منابر الياقوت الأحمر، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان، كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، يمشين في درجات الجنان، آمناتٍ من الهرم والبؤس، مقصوراتٍ في الخيام، في قصور من الياقوت، قاصرات الطرف عين. ثم يطاف عليهم وعليهنّ بأكواب وأباريق وكأس من معين، بيضاء لذة للشاربين، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاء بما كانوا يعملون. في مقام أمين، في جنات وعيون، في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم جلّ جلاله، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، لا يرهقهم قتر ولا ذلة، بل عباد مكرمون، وبأنواع من التحف من ربهم يُتعاهدون، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخافون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمون، ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً. فيا عجباً لمن يؤمن بدارٍ هذه صفتها، ويوقن بأنه لا يموت أهلها، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها؟ وكيف يهنأ بعيش دونها؟

(١) كثير من الكلام الآتي مأخوذ بتصرف من كلام أبي حامد.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش، وسائر أصناف الحدثان، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها. ولكن فضل الله العظيم أنه أباح لعباده الطيبات من الطعام والشراب وأنواعٍ من اللذة الحلال. فلا ينبغي للعاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

إن عليك يا أخي أن تجعل همّك السعي للحصول على النجاة يوم القيامة، ولا تنس نصيبك من الدنيا.

وفقنا الله وإياك إلى أن نتزود في حياتنا الزاد الذي يبلغنا الجنة. ﴿**لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار**﴾ [آل عمران: ١٩٨].

إنَّ[١] الجنة كانت في قلوب السلف الصالح وأعصابهم شعلة تحركهم لضرب أعلى أمثلة البطولة في الجهاد وخدمة الأمة.

الجنة تلك الغاية الكريمة، التي ترنو إليها العيون الحالمة، وتهفو إليها الأرواح المشوقة في كل زمان ومكان.

ترى المؤمنين يستسهلون الصعب من أجلها، ويستعذبون العذاب للحصول عليها... إنها عندهم أعظم مرغوب، ودخولها والانتهاء إليها أمل يتراءى لهم في رحلة العمر التي تستغرق الحياة كلها، نعم لقد كانت الجنة عاملاً يثبت المؤمنين على الحق، ويخفف عنهم ما يعانون من ألم التعذيب ولسع الضرورة، وكانت تحملهم على الصبر راضية نفوسهم بما يلقون، كما كان حال آل ياسر في مكة يمرّ عليهم رسول الله ﷺ فيقول لهم:

«صبراً آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة»[٢] وكيف لا تكون الجنة كذلك وأهلها[٣] ملوك آمنون، وفي أنواع السرور ممتعون. لهم فيها كل ما يشتهون،

(١) انظر كتابي «التصوير الفني في الحديث»؛ وصف الجنة.

(٢) مجمع الزوائد ٢٩٣/٩ وقال رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير ابراهيم بن عبد العزيز المقوم وهو ثقة.

(٣) انظر آخر كتاب الاحياء.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وإلى وجه الله الكريم ينظرون. وينالون بالنظر إلى الله منه ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون. وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون، وهم من زوالها آمنون.

أخرج مسلمٌ في «صحيحه» عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ينادي منادٍ: يا أهل الجنة إنّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً»(١).

فذلك قوله عز وجل: ﴿**ونودوا أن تكلم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾[الأعراف: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿**والسابقون السابقون. أولئك المقربون. في جنات النعيم. ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين. على سرر موضونة... متكئين عليها متقابلين، يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحورٌ عينٌ. كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً سلاماً سلاماً.**

وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سِدْرٍ مخضود، وطلح منضود. وظل ممدود. وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة. إنا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكاراً. عرباً أتراباً. لأصحاب اليمين. ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين﴾ [الواقعة: ١٠ - ٤٠].

تأمل يا أخي في النصوص الثابتة من الكتاب والسنة التي تذكر غرف الجنة، واختلاف درجات العلو فيها. فإنّ الآخرة أكبر درجات من الدنيا. قال تعالى: ﴿**انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض. وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً**﴾ [الإسراء: ٢١].

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٨٣٧، وصحيح الترمذي للألباني برقم ٢٥٨٨، ومسند أحمد ٣/٩٥.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكما أنّ بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً فكذلك فيما يُجازَوْنَ به تفاوت ظاهر.

فإنْ كنت يا أخي تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحدٌ بطاعة الله، فقد أمرك عز وجل بالمسابقة والمنافسة فيها. فقال تعالى: ﴿**سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿**إنّ الأبرار لفي نعيم، على الأرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نَضرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون**﴾ [المطففون: ٢٢ ـ ٢٦].

والعجب أنه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم، أو بعلوّ بناء، أو بارتفاع في المنصب، ثقل ذلك عليك، وضاق به صدرك، وتنغّص بسبب الحسد عيشك. فلماذا لا تشعر بالضيق عندما يسبقك في مجال الخيرات سابقون؟ ولماذا لا تشد من عزيمتك وتشمر عن ساعديك حتى تنال الدرجات العليا التي أعدّها الله للصالحين؟.

قال تعالى: ﴿**فيها أنهار من ماءٍ غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم**﴾ [سورة محمد: ١٥].

خمرها لا تُسفّه الأحلام، ولا تُصدّع الرؤوس.

عن سهل بن سعد قال: شهدتُ من النبي مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى. ثم قال في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ثم قرأ: ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً وممّا رزقناهم ينفقون. فلا تعلم نفسٌ ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون**﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧] رواه مسلم [١] وهذه

(١) مسلم ١٤٣/٨

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الإشارة التي جاءت في آخر الآية تنبّه الراغبين في الجنة أن طريقها العمل الصالح.

وقال تعالى: ﴿**يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين. أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون. يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون، وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ [الزخرف: ٦٨].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الموت واعظ

إنَّ ضغط الحياة المادية ضغط شديد، وقد ضاعف من ضغطها سيطرة هذه الحضارة الأوربية القائمة على المادة بشكل رئيسي.

لقد كان من نتيجة هذا الضغط تعرّض كثير من القيم والمثل إلى الضعضعة والزعزعة لدى عدد كبير من سكان هذه الأرض.

والإنسان بطبيعته طويل الأمل، واسع الرجاء، شديد التعلق بالدنيا، يؤثرها في كثير من الأحيان على غيرها، عظيم الحب للمال يحبه حباً جماً. ومن هنا كان ذكر الموت والتذكير به ذا فائدة جليلة في التقويم، وذا أثر كبير في كسر حدّة هذه النزعة المادية والتخفيف من شرّها، وفي ترقيق القلوب القاسية التي فاقت في قسوتها الحجارة ﴿**ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة**﴾ [البقرة: ٧٤] ولذلك فقد جاء التذكير بالموت في الكتاب والسنة... جاء هذا التذكير موجهاً إلى الكفار حيناً، وموجهاً حيناً آخر إلى المؤمنين... وقد ورد التذكير بالموت في القرآن في مواضع ثلاثة بعبارة واحدة وذلك قوله ﴿**كل نفس ذائقة الموت**﴾.

ففي سورة آل عمران يقول تعالى: ﴿**كلُّ نفس ذائقة الموت وإنما تُوَفَّوْنَ أجوركم يوم القيامة. فمَنْ زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور**﴾ [الآية: ١٨٥].

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الموت أمر محتوم وكل نفس ذائقته، وليس الموت نهاية مطلقة للإنسان... بل هو نهاية وبداية، نهاية لحياته الدنيا وبداية لحياة أبدية برزخية وأخروية تكون فيها المجازاة على الأفعال التي سبقت منه في الحياة الدنيا... ويوفى أجره عليها. إن الحياة الدنيا لا تستحق أن يضحي الإنسان العاقل بالآخرة من أجلها؛ لأنها متاع الغرور، وليس الفوز كسباً للمال الوفير، ولا تحقيقاً للشهوات الكثيرة... بل الفوز الحقيقي هو في الزحزحة عن النار ودخول الجنة.

وفي سورة الأنبياء يقول تعالى:

﴿كل نفس ذائقة الموت. ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ [الآية ٣٥] الموت حقٌّ وكل نفس ذائقته، وما ترون أيها الناس من الخير والشر هو فتنة وابتلاء.. والمرجع بعد ذلك إلى الله الحكم العدل **﴿ليجزي الذي أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾** [النجم: ٣١] فخذوا حذركم أيها الناس.

ويتكرر المعنى نفسه في سورة العنكبوت. يقول تعالى: **﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾** [الآية ٥٧]. نعم إن كل نفس ذائقة الموت، ولا سبيل إلى الاختباء والهرب منه **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾** [النساء: ٧٨] إنها حقيقة مسلّمة لا ينكرها إلا مخبول.

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر فالأصاغر
أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر

إنّ هذه الحقيقة (وهي أنّ كل نفس ذائقة الموت) تهزّ أعماق النفس الإنسانية لو تأمل الإنسان الحياة الدنيا حق التأمل.

إن هذه الحقيقة (وهي أن كل نفس ذائقة الموت) تنادي المسرفين على أنفسهم المنغمسين في شهواتهم، السادرين في معاصيهم، الغافلين عن الله

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ربهم المستغرقين في المتعة واللهو والترف.. تناديهم: أنْ تذكروا الموت وتذكروا أنكم صائرون إليه، فارعووا وتوبوا إلى الله توبة نصوحاً، وعودوا إليه.. اذكروا هذا وأنيبوا إلى الله قبل أن يأتيكم الموت فتندموا ولات ساعة مندم، وقبل أن تتمنوا ولن ينفعكم التمني.

إن هذه الحقيقة (وهي أن كل نفس ذائقة الموت) تنادي المتقين الصالحين المقبلين على الله الذاكرين لله... تناديهم: أن تذكروا الموت، وتذكروا أنكم صائرون إلى ما قدمتم من صنوف الخير والصلاح والتقوى، لتلقوا المغفرة والجنة والرضوان، فاستزيدوا من ذلك واحرصوا عليه واستمروا في هذا الطريق المستقيم المأمون، واغنموا الحياة فإنها مجال العمل... فإذا جاء الموت انقطع عمل ابن آدم إلا من أمور ذكرها رسول الله ﷺ[1]. تذكروا الموت تذكراً يزيدكم تعلقاً بالله وعملاً للصالحات ونفعاً لعباد الله.

يقول أبو العتاهية:

المنايا تجوس كلَّ البلاد ... والمنايا تُفْني جميع العبادِ
لتنالنَّ من قرونٍ أراها ... مِثْل ما نِلْنَ من ثمودٍ وعادِ
أين أين داود؟ أين سليما ... نُ المنيعُ الأعراض والأجناد؟
راكبُ الريح قاهر الجنّ والإن ... س بسلطانه مُذِلُّ الأعادي؟
أين نمرودُ وابنه؟ أين قارو ... نُ وهامانُ ذو الأوتادِ؟
إنّ في ذكرنا لهم لاعتباراً ... ودليلاً على سبيل الرشاد
وردوا كُلُّهم حياضَ المنا ... يا ثم لم يَصدِروا عن الإيراد

* * *

أيها المزمع الرحيل عن الد ... نيا تزوّدْ لذاك من خير زاد
لتنالنَّك الليالي وشيكاً ... بالمنايا فكن على استعداد
أتناسيت أم نسيت المنايا؟ ... أنسيت الفراق للأولاد؟
أنسيت القبور إذْ أنت فيها ... بين ذُلٍ ووحشةٍ وانفراد؟

* * *

(١) صحيح مسلم برقم ١٦٣١

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أيُّ يـوم يـوم الـسـبـاق وإذْ ... أنـت تُنـادى فـما تجيـب المنـادي
أي يـوم يـوم الـفـراق وإذْ ... نفسـك تـرقى عن الحشـا والفـؤاد
أي يـوم يـوم الـفـراق وإذْ ... أنـت من الـنـزع في أشـدّ الجهـاد
أي يـوم نـسـيـت يـوم الـتـلاقي ... أي يـوم نـسـيـت يـوم الـتـنـادِ
أي يـوم يـوم الـوقـوف إلى الـ ... ـله ويـوم الحـسـاب والإشـهـادِ
أي يـوم يـوم المـمـر عـلى الـنـا ... ر وأهـوالهـا الـعـظام الـشـدادِ
أي يـوم يـوم الخـلاص مـن الـنـا ... ر وهـول الـعـذاب والأصـفـاد

* * *

كم وكم في القبـور مـن أهـل ملك ... كـم وكـم في الـقـبـور مـن قـوَّادِ
كم وكم في القبـور مـن أهـل دنيـا ... كـم وكـم في الـقـبـور مـن زهـاد
كـيف ألهـو وكـيـف أسـلو وأنسى الـ ... ـمـوت، والمـوت رائـح بي وغـاد
يـا طـويـل الـرقـاد لـو كنت تـدري ... كنت مَيْتَ الـرقـاد حيّ السهـاد[1]

* * *

الموت واعظ لكل من كان له قلب.. فلنذكر الموت والبلى.

إنَّ التكالب على الدنيا، والانهماك بشؤونها، والاشتغال بمكاسبها وشهواتها، قد يدلُّ على أنّ كثيراً من الناس كادوا ينسون أنهم سيموتون. وقد قال الله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون**﴾ [الزمر: ٣٠] وعندما ذكر ربنا تبارك وتعالى مراحل الخلق التي يمرّ بها ابن آدم ذكّر بالموت، وأكّد هذا الخبر لنعمل لما بعد الموت قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من سُلالة من طين. ثم جعلناهُ نطفةً في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر. فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون**﴾ [المؤمنون ١٢ - ١٥].

أكد الخبر بمؤكدات عدة - كما يقول علماء البلاغة - بإنّ واللام وإسمية

(١) الديوان ١١٢ - ١١٤

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الجملة. وقال هؤلاء العلماء: إن مثل هذه المؤكدات لا تساق إلاّ لمنكر الخبر، ولما كان كثير من الناس يعملون من الأعمال القبيحة الشيء الكثير، ويرتكبون المعاصي الوافرة نزلوا منزلة من ينكر أنه ميت. كأن الخطاب وجه إليهم على الوجه الآتي: لو كنتم معترفين بأنكم ستموتون لما أسرفتم على أنفسكم ولما وقعتم في المعاصي.

ولقد دعانا ربنا تبارك وتعالى دعوة صريحة إلى أن نعمل الصالحات قبل أن يداهمنا الموت فقال عزّ من قائل: **﴿وأنفقوا من قبل أن يأتي أحدكم الموتُ فيقول: ربِّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصَّدَّقَ وأكنْ من الصالحين. ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾** [المنافقون: ١٠ - ١١].

إنني لألمح في هذه الآية رعاية ورأفة وتحذيراً، ليس هناك أكرم من تلك الرعاية وهذه الرأفة وذلك التحذير، فسارعوا يا عباد الله إلى عمل الصالحات في وقت ينفعكم فيه العمل وتستطيعون أن تعملوا... فالموت قادم إليكم. وإذا جاءكم لم تعودوا تستطيعون العمل ولا يفيدكم لو كنتم تستطيعون. فقد يستطيع المحتضر أن يتوب، ولكن التوبة لا تفيده كما قال الله جل وعز: **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾** [النساء: ١٨].

إن الحياة لها مبدأ ولها نهاية، ولكنها ليست النهاية المطلقة: تبدأ الحياة الدنيا بالولادة، وتنتهي بحلول الأجل وحضور الموت، وينتقل الإنسان من حياة دنيوية موقوتة إلى حياة برزخية وأخروية أبدية لا نهاية لها. وقد جعل الله كلاً من الحياة والموت ابتلاء واختباراً **﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور﴾** [الملك: ١ - ٢].

عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه:

«استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: إنا نستحيي يا نبي الله والحمد لله

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: «ليس كذلك ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، ومن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء» قال الإمام النووي[1]: رواه الترمذي بإسناد حسن في كتاب الزهد من جامعه.

فالحياء من الله يقضي أن يذكر الموت والبلى... وإنه لحديث ينطق بالحكمة. إن الحياء من الله أن يحفظ المسلم رأسه وما وعى من فكر وسمع وبصر وشم، ونطق، فإذا حفظ ذلك من الانحراف ومخالفة أمر الله أقام دليلاً على أنه يستحيي من الله حق الحياء، ولم يبق كلامه مجرداً عن البرهان.

وإن الحياء من الله أن يحفظ المسلم بطنه وما حوى من قلب ومعدة وفرج، فإذا كان قلبه معلقاً بالله، ولم يدخل بطنه لقمة من حرام، وحفظ فرجه عما يحرم عليه كان ممن يستحيي من الله حق الحياء.

وإن الحياء من الله أن يذكر الموت والبلى، ومن ذكر الموت عمل لما بعده، وزهد في زينة الحياة الدنيا وكان ممن يستحيي من الله حق الحياء.

وعلى المرء أن يستعدَّ للموت في كل آن؛ لأنه لا يعلم متى تكون منيته، فالموت لا يعرف شاباً ولا طفلاً، ولا شيخاً ولا كهلاً.

الموت لا والداً يبقي ولا ولدا ... ولا صغيراً ولا شيخاً ولا أحدا
كان النبيُّ فلم يخلد لأمته ... لو خلّد الله حياً قبله خلدا
للموت فينا سهام غير مخطئة ... من فاته اليوم سهم لم يفته غدا
ما ضرَّ من عرف الدنيا وغرتها ... ألا ينافس فيها أهلها أبدا[2]

كم من الناس الذين هم في سنك قد أصبحوا تحت الثرى؟... إن جسم الإنسان ضعيف تقضي عليه جرثومة لا ترى بالعين المجرّدة، ورصاصة بقدر الأنملة، وصدمة من دراجة أو سيارة، وسكتة قلبية مفاجئة. فلا يغترَّ

(١) المجموع ٥/٩٤. وانظر «صحيح الترمذي» للألباني برقم ٢٠٠٠.
(٢) هذه الأبيات لأبي العتاهية من ديوانه ص ١١١ ورحم الله شاعر العقيدة الموهوب أبا العتاهية الذي رأى انكباب كثير من الناس في زمانه على المادة والشهوة فعالجهم بالتذكير بالموت.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أحدٌ بالشباب والقوة فإن المنايا لا تفرق بين قوي وضعيف... إن هناك أجلاً مسمى إذا جاء لا يؤخر ساعة ولا يتقدم ﴿**إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ [يونس: ٤٩].

إنّ ذكر الموت ليس للتخويف ولا للقطع عن العمل والإنتاج. بل إنَّ ذكر الموت هو الذي يطرد الخوف ويدعو إلى العمل، لأنه يكون وسيلة لتدارك النقص والتقصير، إن الذي يوقن بالرحيل عن بلد رحيلاً نهائياً لا يفكر في اقتناء القصور المنيفة، ولا شراء الأثاث الفاخر، ولكنه يستعد للمسير، ويعمل لزاد الطريق.

فكيف حال من يوقن أنه سيرحل إلى الدار الآخرة؟

إنه عندئذٍ يستعد بالاستكثار من الطاعات والقربات ويكون عمله متفقاً مع يقينه بالرحيل.

إنّ للموت حقيقة مخيفة مروعة، يُهدَّد بها المجرمون، وذلك كقوله تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾ [البقرة: ١٧٩]، ويخوِّف بها الطغاة الظالمون، كما حكى لنا القرآن عن فرعون الذي هدد المؤمنين من السحرة فقال: ﴿**فَلأُقَطِعَنَّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل**﴾

وحقيقة الموت لرهبتها ردّت كثيراً من الشاردين، وهدت كثيراً من الضالين، ولذلك كان التذكير به جلاءً للقلب من القسوة، وتنفيراً للمسلم من الإثم.

إن من أهم ثمرات ذكرِ الموت الاستعداد له، ويكون ذلك بأمور من أهمها ما يأتي:

- الإقلاع عن المعاصي التي تتعلق بحق الله والتوبة منها.
- الخروج من المظالم التي للعباد، وإعطاء كل ذي حق حقه.
- الإقبال على الطاعات الواجبة والمندوبة بقدر الاستطاعة.

يقول ﷺ: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه. وما أمرتكم فأتوا منه ما

استطعتم»[1]. إنّ المحظورات لا بدّ من تركها كلّها، لأنّ ذلك أمر في مقدور الناس، فهو امتناع عن إيذاء النفس والناس وامتناع عن العدوان عليهم، كترك الربا والغيبة والسرقة والقتل وما إلى ذلك.

وأما المأمورات فلا يُطالَبُ المرء إلا بما يستطيع، يقول تعالى: ﴿**لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها**﴾ [البقرة: ٢٨٦] وهذا المبدأ مطبّق في كلّ أحكام الشريعة الغراء، وهو من خصائصها التي تتميز بها.

روى البراء بن عازب أن النبي ﷺ أبصر جماعة يحفرون قبراً فبكى وقال لأصحابه: «إخواني لمثل هذا فأعدّوا» قال النووي[2]: رواه ابن ماجه في كتاب الزهد من سننه بإسناد حسن.

لقد كان من عادته ﷺ أن يستفيد من الظروف والمناسبات، ويربط بينها وبين ما يريد من توجيه وإرشاد، فقال لأصحابه عندما رأى جماعة يحفرون قبراً: «لمثل هذا فأعدوا».

إن ذكر الموت في الإسلام مدعاة إلى الإعداد والعمل وتلافي التقصير.

فلنذكر الموت الذي قهر الله عباده به، و[نقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود. . . . ومن التنعم بالطعام والشراب، إلى التمرغ بالتراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة. . . فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزّاً، واتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً؟ وانظر هل تُحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً][3].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا هاذم اللذات» ـ يعني الموت ـ قال النووي[4]: رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة كلها على شرطي البخاري ومسلم.

(١) صحيح مسلم برقم ١٣٣٧ والنسائي ٥/١١٠

(٢) انظر «المجموع» ٥/٩٤. وابن ماجه برقم ٤١٩٥

(٣) من كلام الغزالي ٤/٤٣٣.

(٤) انظر المجموع ٥/٩٤. صحيح الترمذي للألباني برقم ١٨٧٧ وابن ماجه برقم ٤٢٥٨ والنسائي ٤/٤.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وثبت في صحيح البخاري عن ابن عمر أنه قال:

أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل»[1] والغريب لا يستكثر من المتاع، ولا يطمئن إلى الاستقرار. وعابر السبيل تراه دائماً مستعداً للسير والرحيل آخذاً بالأسباب التي تيسر له عبوره السبيل.

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

إن المسلم الواعي يدرك أنه في سباق مع الزمن؛ لأنّ كل ساعة تمرّ من هذا الزمن تنقص من عمره، ويعلم أن الصحة ليست دائمة. كما قال ذاك القائل:

وحسبك داءً أن تصح وتسلما.
والموت يترصد أبناء آدم فإذا حان الأجل وافاهم.

فعليك يا أخي أن لا تكون الخاسر في هذا السباق... إملأ وقتك بما يسرّك في القيامة أن تراه.

إنّ الموت يهز النفس هزاً عميقاً، ولقد كان في حالات كثيرة سبباً في تغيير مجرى حياة بعض المقصرين والمسرفين على أنفسهم، وذلك عندما يرون قريباً لهم أو صديقاً أو جاراً يتوفاه الموت فيوسده أهله الثرى ويهيلون عليه التراب.

عزّى صالح المري رجلاً قد مات ولده فقال: (إن كانت مصيبتك أحدثت لك عظة في نفسك فنعم المصيبة مصيبتك، وإن كانت لم تحدث لك عظة في نفسك فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك بابنك).

إن الذي لا يتعظ بالموت يحل في قريب له مصاب في نفسه. وهذا يدل على عظيم تأثير الموت في النفوس السوية الفاضلة.

---

(١) صحيح البخاري ٨/٧٥، صحيح الترمذي للألباني برقم ١٩٠٢/مسند أحمد ٢/٢٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكانت الجنائز بهيئتها تحدث ضجة في المجتمع، وتترك أثر كبيراً في الوسط الذي تكون فيه، ولذا أمر الشرع باتباعها وتشييعها، ولقد قرأنا في تراجم بعض العلماء أنه قد تاب في يوم جنائزهم عدد كبير من العصاة، ورأينا شيئاً من ذلك في أحداث الحياة من زمن بعيد.

وكان أطباء القلوب من الدعاة إلى الله يعمدون - من أجل إصلاح بعض النفوس واستنقاذها من أنياب المادة وسلطان الشهوة - يعمدون إلى التذكير بنهاية الإنسان المحتومة... بالموت قال الغزالي:

[اعلم أنّ المنهمك في الدنيا، المكبّ على غرورها، المحبّ لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذكر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿**قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾ الجمعة: ٨].

والناس في موقفهم من الموت وذكره أقسام ثلاثة أشار إليها الغزالي بقوله: [ثم الناس إما منهمك، وإما تائب مبتدئ، أو عارف منته.

أما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه، ويشتغل بخدمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً.

وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة..

وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً، لأنه موعد للقائه لحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب] وهذا الأخير نادر.

وكتب بعض الحكماء إلى صديق له:

يا أخي احذر الموت في هذه الدار، قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده.

وقال بعض الخلفاء لعالم: عظني. فقال: لست أول خليفة تموت.

قال: زدني. قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك. فبكى.

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبة له:

إنّ لكل سفر زاداً لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله من ثوابه وعقابه، ترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم.

وقال سميط: أيها المغترّ بطول صحته، أما رأيت ميتاً قط من غير سقم، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذاً قط من غير عده.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القصة وسيلة من أهم وسائل الدعوة

يقول الله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

للقصة سحرٌ أخّاذ، وتأثير نفّاذ، وللنفس تعلّق بها كبير، يشترك في ذلك الكبير والصغير، والعالم والأميّ، والحضريّ والبدويّ، والغني والفقير.

ولذلك بدأت الحكايات في فجر حياة الإنسان... فما من أمة في الأرض إلاّ وقد اهتم أبناؤها بالقصص والحكايات، سواء أكانت هذه القصص واقعية أم أسطورية. وربما كانت هذه الطبيعة البشرية هي التي أملت رواية الأحداث وتناقلها على شكل حكايات، حتى أصبحت هذه الحكايات هي النواة التي قام عليها علم التاريخ.

وهذه المتعة البالغة هي التي تجعل الأطفال يتعلقون بجداتهم اللاتي يحفظن الحكايات الكثيرة المثيرة الجميلة، وهي ذاتها هي التي جعلت الكبار يتحلقون حول (الحكواتي) الذي كان يجلس إلى عهد قريب على نشز من الأرض، يروي قصة عنترة والملك الظاهر، وغيرهما من القصص، ويدفعون لقاء ذلك شيئاً من المال لصاحب المقهى الذي يضم هذه المجالس، وهذه المتعة هي التي كانت السبب في قيام فن القصة والأقصوصة والرواية والمسرحية، وقد عرفنا هذه الفنون عن طريق الغرب.. وتخصّص في كتابتها ناسٌ موهوبون... وقام المترجمون بنقل روائع القصص العالمية إلى لغتنا...

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكان لذلك تأثير وأي تأثير. إن الدعاة إلى الله يحتاجون أول ما يحتاجون إلى الأسلوب الحسن... إنهم مدعوون إلى أن يُجَدِّدوا في أساليبهم... وأن يختاروا أكثرها قرباً إلى نفوس الناس عامة والناشئة خاصة. أما قوة الفكرة وصلاحيتها للحياة، فهذه قائمة في هذا الدين، الذي يدعون الناس إليه، منذ أن أنزله الله تبارك وتعالى.

ومن المؤسف أن كثيراً من الأساليب لدى كثير من الدعاة منتقدة، وربما أدّت إلى غرض مناقض معاكس... إن كثيراً من هذه الأساليب ينفر ولا يبشر، ويبعد ولا يقرب، ويغوي ولا يهدي... فما أجدر الدعاة إلى الله أن يراجعوا هذه الأساليب وأن يتدبروا قوله تعالى: **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إنّ ربَّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾** [آل عمران: ١٥٩]

وقوله لموسى وهارون: **﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾** [طه: ٤٣ - ٤٤]

ومن الأساليب النافعة جداً القصة.

والدعاة إلى الله مع القصة في أزمة مستحكمة. فهم بين طرفين متناقضين، ولا يعرفون التوسط:

فهم إما ألاّ يعمدوا إلى القصة أصلاً، ويقتصرون على تقرير الحقائق الإسلامية، والأحكام الشرعية، والأخلاق الحميدة، ويكون كلامهم تجريدياً بعيداً عن الواقع، وقد يدخل بإغراقه في التفريع والتنويع والافتراضات... قد يدخل الملل إلى النفوس، ولا يؤدي الغرض المطلوب في التأثير.

وإما أن يعمدوا إلى القصص المكذوبة، والإسرائيليات الباطلة، والخرافات الأسطورية، يحشون بها كلماتهم وخطبهم، ويملؤون بها مجالسهم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأحاديثهم. وفي ذلك ما فيه من إدخال الخلل في تصور الإسلام، وإغواء الناس وإبعادهم عن طريق الحق.

وهؤلاء وأولئك مخطئون. ولا بدّ من الموقف الوسط السليم. ولو أننا نظرنا في كتاب الله لوجدنا أنه قد وضح للناس كثيراً من الحقائق عن طريق القصة، فقصص القرآن يشكل جزءاً كبيراً من هذا الكتاب الكريم.

إنّ القصة عندما تؤدى على الوجه المتقن المحكم المحبوك، تجعل السامع يتفكر في المغزى الذي تقوم عليه القصّة، وتحمله على أن يتأثر بها تأثراً بالغاً، وتجعله مقتنعاً بالفكرة لا عن طريق الموعظة والإرشاد والتوجيه، بل تجعله مقتنعاً بالفكرة كأنه هو الذي وصل إليها دون تأثير من الآخرين... وههنا تكمن أهمية القصة في الدعوة إلى الله... ذلك لأن النفوس ليست دائماً مستعدّة لقبول الموعظة، ولا سيما إذا كان الواعظ بعيداً عن الحكمة، أما القصة فإن تأمل أحداثها والتفاعل معها يحمل المرء على أن يتفكر في مغزاها وعبرتها.

إن القصّة التي تعالج موضوع إنسان كذاب مؤذٍ للناس، وتتحدّث عن رأي الناس فيه، وعن المصاعب التي يلقاها بعد حين عندما ينكشف أمره للناس، وعن النكبات التي تحلّ به عند ذلك.

إن هذه القصة التي يرويها الداعية تجعل السامع مقتنعاً بالفكرة التي يريد تقريرها، وكأنّ تلك الفكرة نبعت من ذات نفسه... فهو يردد بينه وبين نفسه أن الكذب رذيلة... وأن الكذب سبب لشقاء الإنسان، وأن الكذب سبب لنُفْرة الناس عن الكاذب.. وأن الكذب قد يعرّض صاحبه إلى بلايا ورزايا وأزمات ونكبات... وقد كان ناجياً منها بعيداً عنها، لو أنه اجتنب الكذب.

إن هذا الاقتناع الذاتي الذي يتولد عند سامع القصة هو الذي يمكن أن ندركه من قوله عز من قائل: ﴿**فاقصص القصص لعلّهم يتفكرون**﴾.

وقال الله تعالى: ﴿**لقد كان في قَصَصِهِمْ عبرةٌ لأولي الألباب. ما كان**

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ [يوسف: ١١١].

إنّ في قصص هؤلاء الأنبياء مع أممهم عبرةً لأولي الألباب. هذه حقيقة يقررها القرآن الكريم وعلى الدعاة إلى الله أنْ يعوها حقّ الوعي ليستخدموا هذه الأداة الفعّالة في دعوتهم. أجل... إن في القصة عبرة دون شكّ، ويعظم تأثّر الناس بالعبر بمقدار ما يكون المتحدّث موهوباً في عرْض القصة، وصياغتها وحبك عقدتها، وتشويق السامعين إلى متابعتها، وبمقدار ما يكون اهتمامه بالنواحي الواقعية في هذه القصة.

أما مصادر القصة فكثيرة... إنّ في الحياة الواقعية قصصاً مثيرة، يعجز الخيال عن الاتيان بما يقرب من روعتها ودلالتها وإتقانها وإحكامها... ولو أن القراء الكرام راجعوا أنفسهم فيما قابلوا من أحداث ووقائع، لوجدوا أنّ لديهم من القصص عدداً كبيراً ليس هناك أمتع منها ولا أنفع ولا أشد تأثيراً منها. وفي أخبار الصحف قصص واقعية مسجلة.. وهي كلها من الحياة. وكتب التاريخ القديم والحديث مملوءة بالقصص المثيرة الكثيرة. وكتب التراجم كذلك فيها قصص رائعة، وكتب الأدب فيها القصص الكثيرة. وقبل ذلك كله كتاب الله فيه القصص المترعة بالمواعظ والعبر، وكذلك سنة رسول الله ﷺ وسيرته الشريفة.

إنّ على الداعية أن يتخير من هذه المصادر المتعددة القصص التي تخدم القضية التي يدعو إليها، وكلما ربط الناس بأمرين كان أكثر نجاحاً وتأثيراً. وهذان الأمران هما:

- القصص الدينية الصحيحة الواردة في الكتاب والسنة والسيرة، فتغلغل العاطفة الدينية في أعماق نفوس جماهيرنا المسلمة كبير كبير.

- وربطهم بالواقع الذي يحيونه، وضرب الأمثلة الحيّة المشوقة التي تتفاعل مع أحاسيسهم ومشاعرهم.

إن على الدعاة أن يتخيروا من القصص الصحيح المؤثر الذي يعمل

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على توليد الاقتناع التام في نفوس السامعين. ولا بدّ من تحرّي الصحة والصدق، ذلك لأنّ كثيراً من الأقاصيص التي يوردها بعض الوعاظ أسطوري سخيف، فيه الأغاليط الشنيعة، والأكاذيب المفضوحة البعيدة عن الإسلام ومقاصده، فتؤدي نتيجة معاكسة[1].

إننا نريد من الداعية أن يكون ناجحاً في دعوته. ومن أهم أسباب نجاحه أن يكون حديثه حديثاً ممتعاً مفيداً مشوّقاً، فلا يجوز أن يُغرقَ نفسه وسامعيه بالكلام المجرد النظري، لأنه لو فعل ذلك أملّ السامعين ونفّرهم، ويمكن أن يدرأ عن حديثه ذاك الملل بأن يضمّن حديثه قصة من قصص القرآن أو السنة أو السيرة، ويعلق عليها، أو قصة من القصص الواقعية المحبوكة.

وكذلك من أسباب نجاحه أن يضع الشباب خاصة والمدعوين عامة، في جوّ يعينه على تحقيق بغيته، ومن ذلك أن يشغل الشباب بقراءات يوصيهم بها، ويدخل في هذا المجال ترغيبه إياهم بقراءة القصص الإسلامية المؤثرة، ولو استطاع أن يوزع عليهم بعضها مكافأة للمجدّ لكان ذلك أحسن وأفضل.

وهنا لا بدّ لي من أن أدعو الموهوبين من حملة الفكرة الإسلامية دعوة صادقة حارّة إلى أن يقدموا للناس ما يستطيعون من القصص... إنّ عليهم أن ينفضوا عنهم غبار الكسل والاسترخاء؛ فالزمن لا ينتظر المتقاعسين المتثاقلين، إننا في معركة مع الباطل، ولا بدّ من العمل المشترك في الميادين المختلفة لنصرة الحق والخير، ومقاومة الباطل والشر، ومن يدعو إليهما.

وأكاد أصل إلى أن الكتابة واجب متعين على القادرين الموهوبين إن كانوا صادقين في تبنيهم للإسلام.

---

(١) وقد بينت خطر هؤلاء القصاص الجهلة وإساءتهم لحقائق الدين ومعانيه الكريمة في مقدمات كتب القصاص التي نشرتها وحققتها وهي (أحاديث القصاص) لابن تيمية و(الباعث على الخلاص) للحافظ العراقي و(تحذير الخواص) للسيوطي و(القصاص والمذكرين) لابن الجوزي.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إنّ عليهم أن يسخروا هذه المواهب والطاقات لخدمة الإسلام عن طريق القصة. أوليس من المؤسف أن نجد اليساريين والملحدين والمنحلين الساقطين مستخدمين لوسيلة القصة في نشر رذائلهم وضلالاتهم أوسع استخدام بين الشباب والشابات؟!!

ـ إنك لتراهم في قصصهم يحمّلون كثيراً من المظالم الاجتماعية القائمة في بلاد المسلمين للإسلام... وهم يعلمون أنّ الإسلام بريء من ذلك كله.. بل ما كانت هذه المظالم إلا لأن الإسلام نُحِّيَ عن الحياة والحكم في معظم ديار المسلمين منذ عهد بعيد.

أعرف داراً من دور النشر قامت منذ ثلاثين سنة في بلد من بلاد المسلمين، اتخذت لها مركزاً في طرف المدينة، وشرعت تنشر القصص المترجمة عن الروسية، وهذه القصص تعالج القضايا الاجتماعية من خلال النظرية الشيوعية، وتنشر أيضاً القصص المترجمة عن اللغات الأوربية، إن كان كتابها شيوعيين أو يساريين، تطبعها طباعة أنيقة، وتخرجها إخراجاً فنياً جذاباً.

ولم يهتمّ بهذه الدار ولا بعملها أحدٌ من الطيبين المسلمين، ولا ألقى لها بالاً أحدٌ من رجال الفكر والسياسة من أعداء الشيوعية... بل كانوا يستهينون بها إذا ذكرت أمامهم، ويسخرون منها وممن يحذر منها. ولم يمض زمن طويل حتى تبيّن أثر هذه الدار عن طريق القصص... إذ مهّدت لقبول الفكر اليساريّ، حتى ظهر جيل من المقتنعين به، وعرف نفرٌ من الناس أثر الفكر والقصة، ولكن بعد فوات الوقت.

أقول ذلك لأبيّن خطورة القصة وسلطانها على النفس والعقل، ولو أنّ رجال الفكر والسياسة من أعداء الشيوعية أرادوا مواجهة هذا، لكان ينبغي عليهم أن يعدوا في مقابلة هذا التضليل والتغرير ما يكشفه ويبين انحرافه، وأن يقيموا دوراً إسلامية تنشر القصة الإسلامية الهادفة... فالفكرة لا تقاوم إلا بالفكرة... ولا مكان للظلام إن بزغت شمس الحقيقة... وإنّ شمعة واحدة في غرفة لتطارد فلول الظلام.

- وإنك لتراهم أيضاً يعتمدون في قصصهم على الجنس والحب والغرام، فيوردون المغامرات العاطفية وحوادث الخيانة الزوجية، بشكل يغري المراهقين بقراءتها. والذين انصرفوا إلى هذا اللون المنحلّ أكثر من الذين تخصصوا باللون الفكري الهدام اليساريّ السابق ذكره، ذلك لأن مثل هذه القصص، تلقى رواجاً عند المراهقين والدهماء... لقد قصر كثير من كتّاب القصّة جهودهم على هذا النوع من القصص، وتفننوا فيه فأفسدوا أبناء الأمة وبناتها إفساداً كبيراً.

وإفساد الخلق عن طريق إثارة الغريزة وإلهابها يمهّد الطريق لزلزلة الفكرة الإسلامية، لتحلّ محلّها الأفكار الزائغة التي لا تعبأ بالخلق ولا تقيم له وزناً.

إنّ أعداء الإسلام يتخذون القصة أداةً يدعون بها إلى باطلهم، ويهاجمون بها حقائق الدين وتشريعاته، ويزلزلون ثقة الناس بقيمه ومثله. فهل نعي هذا الواقع؟ وهل نعمل على تغييره؟

إن كتابة قصة ناجحة من الناحية الفنية والإسلامية، ربما كانت خيراً من إلقاء مئة خطبة.

إن الموهوبين موجودون... ولكن هؤلاء الموهوبين بحاجة إلى تشجيع. فعلى أصحاب الصحف والمجلات الإسلامية أن يفتحوا صدور صحفهم ومجلاتهم لهذه الطاقات الناشئة، وعلى رجال الفكر الإسلامي أن يُسَدِّدوا هذه الطاقات ويُقَوِّموها ويأخذوا بأيديها، حتى تستطيع أن تسدّ الفراغ الكبير الذي يقوم في عالم النشر عند المسلمين اليوم.

ولنقرأ قوله تعالى بتدبر واع: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأخذ بالأسباب واغتنام الفرص المتاحة

قال تعالى: ﴿**ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً**﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿**أم لم ينبأ بما في صحف موسى. وإبراهيم الذي وفّى. ألاّ تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يُرى. ثم يُجْزاه الجزاء الأوفى**﴾ [النجم: ٣٦ - ٤١].

إنَّ لله في هذا الكون سنناً، وإنَّ مما قدّر لهذه الدنيا أن تكون الأمور مرهونة بأسبابها، فلكل شيء سبب... بذا قضت إرادة الله تبارك وتعالى، ولا يُمكنُ لقوة في الدنيا أن تقف أمام إرادته عز وجل... ﴿**فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً**﴾ أجل... إنّ كل إنسانٍ يقصّر في الأخذ بالأسباب، ويقع فيما لا يحبّ أن يقع فيه مؤاخذ... لأنه لم يفعل ما أمر به من الأخذ بالأسباب والعمل بها. ومن طلب شيئاً ولم يسع في تحقيقه وَفْقَ سنن الله طلب المستحيل.

إنك لترى في الحياة رجالاً تخطّوا عتبة الشباب، وقاربوا الشيخوخة أو بلغوها، تراهم يعلنون الحسرة والندامة أنهم لم يأخذوا حذرهم... تراهم يأسفون أنهم فرّطوا في حق أجسامهم، فلم يرعوها حق رعايتها، فجنوا من جراء ذلك في كبرهم علة مستحكمة، وضعفاً مستمراً، وعجزاً بيّناً..

وترى رجالاً آخرين تقدّم بهم العمر يقرعون السنَّ ندامة، ويعضون

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أناملهم حزناً وألماً، أنهم قصّروا في حق أسرهم، فلم يتخذوا موقفاً حازماً من ميوعة أو مخالفة، أو حدّة أو شرّة، أو معصية أو كسل، أو إهمال أو إفساد... ظهرت من أزواجهم... وقد كانوا يملكون علاجها علاجاً حاسماً، لو أنهم قرروا اتخاذ موقف صلب منها يوم أن كانوا يملكون... ولكنَّ الأمر خرج من أيديهم... ورأوا أن الانحراف على تقدم الزمان يزيد، شأن كل انحراف عن الطريق المستقيم، ورأوا أن العود يبس، وأن الإصلاح تعذّر... فحزنوا وهاجوا وثاروا في بادئ الأمر دون جدوى... ثم كان منهم من راموا أنفسهم على المكروه، وراضوها وحملوها عليه قسراً وكرهاً، وقرّروا أن يرضوا بالمكروه الذي لا يرضاه لنفسه إنسانٌ كريم... فتجرعوا الغصص وصعّدوا الآهات... ومنهم من لم يستطع متابعة الطريق، فحطّم حياته الداخلية، وقضى شيخوخة بائسة مشردة... ومنهم من انهارت أعصابه واختل عقله... ومنهم من لجأ إلى الانحراف والآثام، والانسلاخ من حياة السموّ والاستقامة. فبعد عن أولاده وداره، ففسد بنوه وبناته... وخسر الدنيا والآخرة... كان ذلك كله لأنه لم يستفد من الفرصة المتاحة له يوم كان يستطيع تقويم الانحراف بموقف جاد... وترى رجالاً اشتعل رأسهم شيباً، وحنت الأيام والسنون ظهورهم... تراهم يقاسون من مرارة العقوق: عقوق أبنائهم، وتحمّل ما يصدر منهم من تصرفات مخزية معيبة، ويألمون، ويندمون أنهم لم يؤدبوا أولادهم وهم صغار، ولم يحملوهم على الجادة السوية، ولم يربوهم على آداب الإسلام. وجاء هذا الندم متأخراً بعد فوات الأوان.

.. وترى رجالاً شيوخاً مسنين يبدون أسفهم العميق على ما ضاع من أيّام الشباب دون فائدة يدخرونها ليوم المعاد، ويتمنون لو أنهم نبهوا إلى العمل الصالح الذي يجدونه يوم القيامة محضراً، وإلى العمل الفاسد الذي يحملون وزره على ظهورهم يومذاك، ولن يجدوا من يعينهم في ذاك اليوم العصيب ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى، وإن تَدْعُ مثقلةٌ إلى حملها لا يُحْمَلْ منه شيء ولو كان ذا قربى**﴾ [فاطر: ١٨].

إنّ الزرع في غير وقته لا يفيد الزارع شيئاً، وإنّ التعلم ساعة الامتحان

لا يجدي صاحبه شيئاً، والحج في غير ميقاته غير مقبول ولا منعقد، وصوم رمضان في غير رمضان من غير عذر لا يجوز.

هذه سنة الله في كونه، وفي دينه الذي أمر الناس بالتزامه. فإلى أولئك الذين يعانون من بعض ما ذكرنا، وهم ما زالوا في فسحة من الوقت تمكنهم من علاجه نسوق هذا الحديث، لعلّ الله ينير بصائرهم، ويفتح مغاليق قلوبهم، ويرقق نفوسهم، فيرعوون ويرتدعون، وينصاعون وينصحون، ويحسنون التصرف ويحزمون... إنّ عليهم ألا يدعوا الفرصة تفوتهم، فيضيعوا بأيديهم سعادة الدنيا والفوز يوم القيامة... فربما لا تعود الفرصة مرة أخرى.

إن الذي يأتي يوم القيامة وقد كسب السيئات في الدنيا، ولم يعمل فيها من الصالحات الكثير هو المفلس حقاً، وهو الخاسر حقاً. وقد يتمنى أن يرجعه ربه إلى الدنيا ليعمل صالحاً. ولكن النداء الرباني المخيف يحسم الموقف ﴿**ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾ وذلك في قوله عز من قائل:

﴿**ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم: ربّنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون. ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها. ولكن حقّ القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين. فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون**﴾ [السجدة: ١٢ - ١٤].

ويساقون بكل مهانة ليذوقوا عذاب الخلد، ولا يستجاب لهم. ويقول تعالى:

﴿**حتى إذا جاء أحدهم الموتُ قال رب ارجعونِ لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ. كلا. إنها كلمة هو قائلها. ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون. فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون. فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم، في**

جهنم خالدون، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون. ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون. قالوا: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين. ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون. قال: اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٨].

أجل إنه ندم متأخر فلا فائدة فيه.. إن الندم في ذاك اليوم في غير طائل، ولات ساعة مندم. ويأتيهم الجواب القاسي الذي يناسبهم: **﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾**.

أيها الأخ المسلم

اتق الله في شبابك، فالشباب هو الحياة، واغتنم هذه النعمة قبل أن يأتيك الهرم، واتق الله في جسمك، فلا تكلف نفسك ما لا تطيق، فإنّ لجسمك عليك حقاً، واغتنم صحتك قبل سقمك.

واتق الله في زوجك، واحذر أن تتركها وشأنها إن تجاوزت حدود الله أو أساءت إلى مصلحة الأسرة. ولتكن في ترويضها على الصراط المستقيم سالكاً سبيل المؤمنين الصالحين، الذين يلتزمون شرع الله، لأن الخير كل الخير فيما حدّده الشرع الحنيف. فكن معها رقيقاً رقة تُحِلُّكَ عندها في المقام الرفيع، ولياً في غير ضعف، وشديداً في غير عنف. واحذر أن تتهاون في حق الله، فإنّ التهاون لن تجني منه إلا الحسرة والشقاء والضياع، ووازن بين الأمرين الشدة واللين، حتى تصقل طباعها على ما تحب وعلى ما يرضى الله.

واتق الله يا أخي في أولادك الذين جعلهم الله أمانة بين يديك، ونصبَّك راعياً لهم، فلا تهمل توجيههم ولا تعهدهم.

إنَّ عليك يا أخي أن تغتنم الفرصة، وأن تعمل بإخلاص وصدق، وأنا أحسب أنك واجد ثمرة عملك وجدك وإخلاصك: **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾**.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهرس الموضوعات

الموضوع ..... الصفحة

مقدمة الكتاب ٥

أهمية الدعوة إلى الله ٩

ـ أسباب تخلف المسلمين ١١

ـ ضرورة الدعوة إلى الله ٢٢

العقبات التي تقوم في وجه الدعوة ٢٧

ـ عقبات في طريق الدعوة إلى الله ٢٩

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤١

ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٣

ـ صفات الانسان الذي يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٥

دور العلماء في الدعوة إلى الله ٦٣

ـ الرد على المنحرفين وقول الحق منجاة من اللعن ٦٥

ـ دعاة الشر . . . والصراط المستقيم ٧٠

ـ مكانة العلماء ٧٤

ـ أهم واجبات العلماء ٨١

ـ حكم سؤال العلماء وآدابه ٨٥

ـ علماء السوء ٩١

من صفات الداعية ٩٧

ـ الصبر من أهم أخلاق الداعية ٩٩

شبكة الألوكة ـ قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- الورع ١١٥
- النصح وتقبل النقد ١٢٣
- لا ييأس المؤمنون ١٢٨
- المراقبة ١٣٥
- الانفاق وكظم الغيظ ١٤٥
- العفو عن الناس ١٥٣
في مضمون الدعوة: العناية بالأمور الروحية ١٥٧
- الذكر ١٥٩
- العناية بالقلب والتحذير من الغفلة والشيطان ١٦٨
- التفكر في خلق الله ١٧٩
- تلاوة القرآن ١٨٤
- الحب في الله ١٨٨
- تحذير من الغافلين اتباع الهوى ١٩٦
- ملازمة الصالحين ومجالستهم ٢٠٠
أساليب الدعوة وقواعد العمل فيها ٢٠٥
- الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ٢٠٧
- الأسلوب الحسن في الدعوة ٢١٢
- دور السيرة في الدعوة إلى الله ٢١٩
- التذكير بشيء من أهوال جهنم ٢٤٩
- التذكير بطرف من نعيم الجنة ٢٥٣
- الموت واعظ ٢٦٠
- القصة وسيلة من أهم وسائل الدعوة ٢٧١
- الأخذ بالأسباب واغتنام الفرص المتاحة ٢٧٨
- **فهرس الموضوعات** ٢٨٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من آثار المؤلف المطبوعة

١ ـ الابتعاث ومخاطره.
٢ ـ أبو داود حياته وسننه.
٣ ـ أبو نعيم وكتابه الحلية.
٤ ـ أسماء بنت أبي بكر.
٥ ـ أقوال مأثورة وكلمات جميلة.
٦ ـ أم سُليم.
٧ ـ بحوث في أصول التفسير.
٨ ـ تاريخ القصاص وأثرهم في الحديث النبوي.
٩ ـ تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية.
١٠ ـ التشريع الاسلامي وحاجتنا إليه.
١١ ـ التصوير الفني في الحديث النبوي.
١٢ ـ الحديث النبوي: بلاغته، مصطلحه، كتبه.
١٣ ـ خواطر في الدعوة إلى الله.
١٤ ـ سعيد بن العاص بطل الفتوح وكاتب المصحف.
١٥ ـ فن الوصف في مدرسة عبيد الشعر.
١٦ ـ لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير.
١٧ ـ معركة شقحب أو معركة مرج الصفر.
١٨ ـ المناهج والأطر التأليفية في تراثنا.
١٩ ـ من أسباب تأخر العمل الاسلامي.
٢٠ ـ من صفات الداعية.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٢١ ـ نداء إلى الدعاة.
٢٢ ـ نظرات في الأسرة المسلمة.
٢٣ ـ وصايا للزوجين.
٢٤ ـ يوم الفرقان يوم بدر.

* * *

٢٥ ـ أحاديث القصاص لابن تيمية (تحقيق).
٢٦ ـ الأسرار المرفوعة لملا علي القاري (تحقيق).
٢٧ ـ الباعث على الخلاص من أحاديث القصاص للحافظ العراقي (تحقيق).
٢٨ ـ تحذير الخواص من أكاذيب القصاص للسيوطي (تحقيق).
٢٩ ـ الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي (تحقيق).
٣٠ ـ رسالة أبي داود إلى أهل مكة (تحقيق).
٣١ ـ الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة للكرمي (تحقيق).
٣٢ ـ القرامطة لابن الجوزي (تحقيق).
٣٣ ـ القصاص والمذكرون لابن الجوزي (تحقيق).
٣٤ ـ كتاب الضعفاء والمتروكين للدراقطني (تحقيق).
٣٥ ـ مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني (تحقيق).

شبكة الألوكة - قسم الكتب